بول أوستر

مستر فيرتيجو

ترجمة

عبد المقصود عبد الكريم



2509

سلسلة الإبداع القصصي

المركز القومي للترجمة

مستر فيرتيجو

رواية

تــأليف: بول أوستر
ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم

2015

مستر فيرتيجو

روايـة

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2509
- مستر فيرتيجو
- بول أوستر
- عبد المقصود عبد الكريم
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:

Mr. Vertigo

By: Paul Auster

This Edition published by arrangement with Viking, a member of Penguin Group (USA) Inc.

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

اوستر، بول، ١٩٤٧-
مستر فير تيجو: رواية / تأليف بول أوستر؛ ترجمة عبد المقصود
عبد الكريم .- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥
عدد الصفحات: ٣٤٤ صفحة.
المقـــــــاس: ١٤× ٢٠ سم.
تدمك: ٩٧٨٩٧٧٩٢٠٤٠٩٣
١- القصص الأمريكية
أ - عبد الكريم، عبد المقصود (مترجم)
ب - العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع
٢٠١٥ / ١٧٨٧٠

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

I

كُنْتُ فـي الثانيةِ عشـرة حين سـرْتُ على المـاء أول مرة، علَّمني الرجـل ذو الثياب السـوداء أن أفعل ذلك، ولن أتظاهر بأنني تعلمت الحيلة بين عشية وضحاها. عثر عليَّ "الأستاذ يهـودي" وأنا في التاسـعة، وكنت ولدًا يتيمًا يتسـول السـنتات في شـوارع "سـانت لويس"(١)، وعمل معي بدأب لثلاثةِ أعوام قبل أن يتركنـي أعرض أعمالي علانية. كان ذلك في ١٩٢٧، سـنة «بيب رث» و«تشـارلز ليندبرج»(٢)، السنة التي بدأ فيها الليل يسقط على العالم إلى الأبد، ظللت أقوم بها إلى ما قبل انهيار أكتوبر بأيام قليلة، وكان ما قمْتُ به أعظم مما حلم به هذان الشخصان. فعلْتُ ما لم يفعله أمريكي قبلي، ولم يفعله أحد من حينها.

اختارني الأستاذ يهودي لأنني كنت الأكثر ضآلة جسمًا، والأقذر والأكثر خسـة. قال: «لسْـتَ أفضل من حيوان، إنك جزء من العدم الإنسـاني». هذه أول جملـة قالها لي، ورغم مرور ثمانية وسـتين عامًا على تلك الليلة، يبدو وكأنني ما زلت أسمع الكلمات تنبعث من فم الأسـتاذ: «لسْتَ أفضل من حيوان، ستموت قبل انتهاء الشتاء إذا بقيتَ حيث أنت، وسأعلمك كيف تطير إذا أتيْتَ معي».

قلْتُ: «لا أحد يسـتطيع الطيران يا مِسْتر. ذلك ما تفعله الطيور، وأنا متأكد تماما من أنني لسْتُ طائرًا».

---

(١) سـانت لويس: مدينة في شـرق ولاية ميسوري، تقع على نهر الميسيسبي. (كل الهوامش للمترجم).

(٢) بيـب رث.(١٨٩٥-١٩٤٨): لاعـب بيسـبول أمريكي. تشـارلز ليندبرج (١٩٠٢-١٩٧٤): طيـار أمريكـي، أول مـن عبر الأطلنطـي (٢٠-٢١ مايو ١٩٢٧).

قال الأستاذ يهودي: «لا تعرفُ شيئًا؛ لا تعرف شيئا لأنك لا شيء، إذا لم أعلمك الطيران بحلول عيد ميلادك الثالث عشر، يمكنك أن تقطع رأسي بفأس، سأتعهد بذلك كتابة إذا أحببْتَ، سيكون مصيري بين يديك إذا فشلْتُ في الوفاء بوعدي».

كانت ليلة سبت في أوائل نوفمبر، وكنا نقف أمام «كافيه برادايز»، وهو كافيه رائع وسط المدينة تعزف فيه موسيقى جاز متميزة، وبه فتيات يُدخنْ سجائر ويرتدين ثيابا شفافة. اعتدْتُ على التسكع هناك في نهاية الأسبوع، أتسول الحسنات، وأنقل رسائل، وأوفر سيارات أجرة لأشخاص متأنقين. في البداية ظننْتُ أن الأستاذ يهودي ليس إلا سكيرًا آخر، سكيرًا ثريا مترنحًا يتعثر أثناء الليل في سترةٍ سوداء، وقبعة من الحرير. كانت لهجته غريبة، ولذا تصورت أنه من خارج البلدة، وكان هذا بقدر ما أعرف، يتفوه السكارى بكلام غبي، ولم يكنِ الحديث عن الطيران أكثر غباءً من معظم ما ينطقون به.

قلْتُ: «إذا ارتفعْتَ عاليًا جدا في الهواء، يمكن أن ينكسر عنقك وأنت تهبط».

قال الأستاذ: «نتحدث عن التقنية فيما بعد، ليست مهارة سهلة التعلم، لكن إذا سمعْتَ كلامي وأطعْتَ تعليماتي، سوف نصبح من المليونيرات».

قلْتُ: «أنت مليونير بالفعل. لماذا تحتاج إليَّ؟»

«لأنني، يا سفاحي الرث الصغير، من النادر أن أمتلك قطعتين من فئة عشرة سنتات معًا. ربما أبدو لك مثل بارون لص[1]، ذلك

(١) بارون لص: من أقطاب المال في أمريكا في القرن التاسع عشر، ممن اغتنوا بشكل غير قانوني.

فقـط لأنك غبي. اسـتمع إليَّ جيـدا، أعرض عليك فرصــة العمر، فرصة لا تصادفها إلا مرة. حجزْتُ في قطار «بلو بيرد سبيشـيال» في السادسـة والنصف، وهي آخر مرة تراني فيها إذا لم تركب هذا القطار».

قلْتُ: «لم تجب عن سؤالي بعد».

«لأنك استجابة دعائي يا بني. لهذا أريدك. لأن لديك الموهبة».

«الموهبة؟ لا أتمتع بأية موهبة، ولو كان لدي فماذا تعرف عنها، يا مستر سترة؟ بدأْتُ الحديث معي منذ دقيقة».

قال الأسـتاذ يهودي: «تخطئ مرة أخرى. راقبْتُك أسبوعًا، وإذا كنت تظن أن خالك وزوجته سيأسفان لرؤيتك ترحل، فإنك لا تعرف مع من تعيش في آخر أربع سنوات».

قلـت فجأة: «خالي وزوجتـه؟» مُدركًا أن هذا الرجل لم يكن من سـكارى ليلة السـبت، كان أسوأ من ذلك: ضابطًا أو شرطيا مسئولاً عن المتسـربين من المـدارس، ومن المؤكد وأنـا أقف هناك، كنت غارقًا في الوحل حتى ركبتي.

واصل الأسـتاذ دون أن يستغرق وقتًا في جذب انتباهي: «خالك سـليم صعـب، لم أر قـط مواطنا أمريكيـا بهذا الغبـاء؛ ليس كريه الرائحة فقط، لكنه خسـيس وبشـع حتى النخـاع؛ لا غرابة في أنك صـرت مراوغـًا من أبناء الشـوارع، دار بيننا، أنـا وخالك، حوار طويـل هـذا الصباح، وهو يرغب في أن ترحـل دون مقابـل، تخيلْ ذلـك يا ولد، ليس عليَّ حتى أن أدفـع ثمنًا لك. وذلك الخنزير البدين

يحـــدث زوجته التي اكتفت بالجلوس، ولـــم تنطق بكلمة دفاعًا عنك؛ إذا كان ذلـــك أفضـــل ما يمكن أن تفعله لأســـرة، فأنت محظوظ حين تتخلـــص من هذين الاثنيـــن، القرار قرارك، لكـــن حتى إذا رفضت طلبـــي، فقد لا تكون عودتك فكرة طيبـــة، يمكنني أن أقول لك إنهما سيشعران بخيبة الأمل تمامًا إذا رأياك مرةً أخرى. ستشعر بالذهول والأسى، إذا عرفْتَ ما أعنيه».

ربمـــا كنـــتُ حيوانًا، لكن حتى أدنى حيوان لديه مشـــاعر، وحين صب عليَّ الأستاذ هذه الأخبار، شعرْتُ كأنني تلقيت بعض اللكمات، لـــم يكن الخال سـليم وزوجته «بج» مُهميـــن، لكنني كنت أعيش في بيتهمـــا، وذهلتُ حين علمت أنهما لا يرغبان في وجودي. لم أكن قد تجاوزت التاســـعة رغم كل شـــيء. كنت فظا في ذلك العمر، لكنني لـــم أكن فظـــا نصف ما أتظاهر به، وإذا لم ينظر الأســـتاذ إليَّ بتلكما العينين الســـوداوين الصائبتين، ربما بدأتُ علـــى الفور الصياح في الشارع.

حين أعاود الآن التفكير في تلك الليلة، ما زلت غير متأكد مما إذا كان يخبرنـــي بالحقيقـــة أم لا، ربما تحـــدث إليَّ خالـــي وزوجتـــه، لكن ربما أيضا اختلق المسألة كلها، لا أشك في أنه رآهما- كان يصفهما بدقـــة- لكن بمعرفة الخال ســـليم، يذهلني بما يتجاوز المســـتحيل أنه تركني أرحل دون أن يحصل على بعض النقود من الاتفاق، لا أقول إن الأســـتاذ يهودي خدعه، لكن نظرًا لما حدث بعد ذلك، لا شـــك في أن الملعون أخطأ، ســـواء كان الحق فـــي جانبه أم لم يكن، لن أضيع الوقـــت في التفكير كثيرًا في ذلك الآن؛ كانت النتيجة أنني اســـتجبْتُ لطلب الأســـتاذ، وعلى المـــدى البعيد تلك هي الحقيقـــة الوحيدة التي تســـتحق القول، أقنعني بأنني لا أستطيع الذهاب إلى البيت، وبمجرد أن قبلْتُ ذلك، لم أعد أهتم بنفسي. لابد أن ذلك ما كان يريد أن أشعر

به- التوتر التام والشعور بالضياع، من الصعب أن تُبالي بما يحدث لك إذا لم يكن لديك سبب لتواصل الحياة، تقول لنفسك: إنك تود أن تكون ميتًا، وبعد ذلك تكون مستعدًا لأي شيء- حتى لو كان شيئًا مجنونًا مثل التلاشي في الليل مع غريب.

قلْتُ، خافضًا صوتي كثيرًا، ومحدقًا فيه بنظرة وحشية: «حسنا، يا مستر، فزت بصفقة، لكنك إذا لم تنفذ ما قلْتَ لي، يمكنك أن تقبِّل رأسك قبلة الوداع، ربما أكون ضئيلاً لكنني لم أترك قط إنسانًا ينسى وعده».

كانت الدنيا لا تزال مظلمة حين ركبنا القطار، سرنا إلى الغرب في الفجر، مسافرين عبر ولاية «ميسوري»[1] والضوء الشاحب في نوفمبر يكافح لينفذ من خلال السحب. لم أخرج من سانت لويس منذ اليوم الذي دفنوا فيه أمي، وكان عالمًا كئيبا اكتشفْتُه ذلك الصباح: سماء رمادية وأراض قاحلة، مع حقول لا نهاية لها من سيقان ذرة ذابلة تحيط بنا على الجانبين. دخلنا مدينة كنساس[2] بعد الظهر بقليل، لكن في كل الساعات التي قضيناها معًا لا أظن أن الأستاذ يهودي تبادل معي أكثر من ثلاث كلمات أو أربع، نام معظم الوقت، يغلبه النوم بشكل متقطع وقبعته ساقطة على وجهه، لكنني كنت مرعوبًا بشكل يحول دون أن أفعل أي شيء سوى النظر من الشباك، أشاهد الأرض تمر بجواري وأنا أفكر في الورطة التي ورطت نفسي فيها. حذرني رفاقي في سانت لويس من الشخصيات التي تشبه الأستاذ يهودي: جوالين فرادى بتصميمات شيطانية، مارقين يجوسون بحثًا عن فتيةٍ صغار لتحقيق مآربهم، كان سيئًا جدا أن أتخيله يخلع

---

(١) ميسوري: ولاية في وسط أمريكا.

(٢) كنساس: مدينة في غرب ولاية ميسوري.

ملابسـي ويلمسـني حيث لا أريـد أن أُلمَس، لكن ذلك لم يكن شـيئًا مقارنة بالمخاوف الأخرى التي تتسكع في جمجمتي؛ سـمعْتُ عن ولد ذهب مع غريب ولم يُعرفْ عنه شيءٌ بعد ذلك، بعد ذلك اعترف الرجل بأنه قطع الولد إلى قطع صغيرة وسلقه وتعشى به، رُبط ولدٌ آخر بسلاسـل إلى جدار في قبو مظلم ولم يتوفر له من الطعام سوى الخبز والماء لستة أشـهر، نُزِع جلد ولد آخر عن عَظامه، كان لدي وقـت لأتأمل ما فعلْتُ، تبينْتُ أنني ربما أتصرف بالطريقة نفسـها، تركْتُ نفسـي أقع في براثن وحـش، وإذا تبين أنه مرعب نصف ما يبدو عليه، فمن المرجح أنني لن أرى الفجر مرة أخرى.

نزلنا من القطار وبدأنا السير على الرصيف، شاقين طريقنا عبر الزحام. قلْتُ، جاذبا معطف الأستاذ يهودي: «سأسلمك لأول شرطي أراه إذا لم تطعمني الآن».

قال: «ماذا عن التفاحة التي أعطيْتُها لك؟»

«رميْتُها من شباك القطار».

«لا تحب التفاح، أليس كذلك؟ وماذا عن سندويتش فخذ الخنزير؟ إذا تغاضينا عن رجل الدجاجة المحمرة، وكيس الكعك».

«رميْتُها كلها. لا تتوقعُ أن آكل الطعام الذي أعطيْتَه لي، أليس كذلك؟»

«ولماذا لا أيها الرجل الصغير؟ إذا لم تأكل فسوف تذوى وتموت، يعرف الجميع ذلك».

«بتلـك الطريقة أموت ببطء على الأقل، لكنني إذا تناولت شـيئًا مليئًا بالسم، أموت في الحال».

للمرة الأولى يبتسم الأستاذ يهودي منذ قابلْتُه. إذا لم أكن مخطئًا، أعتقـد أنه تمادى إلى درجة الضحك. «تقـول إنك لا تثق في، أليس كذلك؟».

«إنـك لعنة صريحة، لا أثق فيك مادمت أسـتطيع أن أقذف بغلاً ميتًا».

قال الأسـتاذ، وهو يربت على كتفـي بعطف: «اهدأ يا بني. أنت مَورد رزقي، تتذكر؟ لن أوْذي شعرة على رأسك».

كانـت تلك هـي الكلمات بالضبط بقدر مـا يعنيني، ولم أكن غبيا بدرجـة تجعلني أبلع ذلك النوع من الكلام المعسـول، لكن الأسـتاذ يهـودي مدَّ يـده إلى محفظتـه وأخرج ورقـة بدولار جديـد تمامًا، ووضعه في كفي، قائلاً، وهو يشـير إلى مطعم وسط المحطة: «هل ترى ذلك المطعم؟ ادخلْه واطلبْ لنفسك أكبر غداء يمكن أن تحشره في بطنك. سأنتظرك في الخارج هنا».

«وماذا عنك؟ هل تأخذ موقفًا من الأكل؟»

رد الأسـتاذ يهـودي: «لا تقلقْ بشـأني معدتي تسـتطيع أن تهتم بنفسـها». ثم أضاف وأنا ألتفْتُ لأمضـي: «نصيحة واحدة، يا تافه؛ إذا كنت تخطط للهروب فهذا هو الوقت المناسـب، ولا تقلق بشـأن الدولار؛ يمكنك أن تحتفظ به مقابل قلقك».

سـرْتُ إلـى المطعـم وحــدي، وقد جعلتني كلمات الفراق هادئًا إلــى حد مــا، إذا كان ينوي على شــر، فلماذا يعـرض عليَّ فرصة للهـروب؟ جلسْـتُ على الطاولـة وطلبْتُ وجبـة رخيصة وزجاجة

فشـــاغ[1] قبـل أن أرمـش، كـوم النادل أمامـــي جبلاً من لحـم البقر المملح والكرنب. كانت أكبر وجبة رأيْتُها، وجبة بحجم سبورتسمان بارك[2] في ســـانت لويس، والتهمْتُها كلها حتى آخر لقمة، بالإضافة إلى شـــريحتين من الخبز وزجاجة ثانية من الفشـــاغ. لا شيء يعادل الإحســـاس بالسـعادة التي اجتاحتنـــي على تلك الطاولـة القذرة وأنا أتناول الغداء. بمجرد امتلاء بطني، شعرْتُ بأنني لا يمكن أن أُغلَب، وكأنني لا يمكن أن يؤذيني شـــيء مرة أخرى. جاءت أروع لمســـة القمة وأنا أخلص الدولار من جيبي لأدفع الثمن. تكلفت المسألة كلها خمســـة وأربعين ســـنتا، وحتى بعد أن ألقيتُ خمسة ســـنتات بقشيشًا للنادل تبقى معي خمســـون ســـنتا. لا تبدو كثيرة اليوم، لكن كان ربعا دولار ثروة بالنســـبة لي في ذلك الوقت. قلت لنفســـي: إنها فرصتي للهـروب، اندفعـت وأنا أغادر مقعدي. يمكنني أن أتسـلل من الباب الجانبـي، ولن يعرف أبدًا الرجل الذي يرتدي الملابس الســـوداء ما أصابـه، لكنني لم أفعل ذلـك، وفي ذلك الاختيار تعلقت قصة حياتي كلها، عدْتُ إلى حيث ينتظر الأستاذ لأنه وعد بأن يجعلني مليونيرًا. بقوة تلك الخمســـين ســـنتا، تصورْتُ بأن الأمر يســـتحق أن أرى إن كانت هناك حقيقة تدعو إلى التفاخر.

ركبنـــا قطـــارًا آخر بعـد ذلك، ثم ركبنـــا قطارًا ثالثًـــا قرب نهاية الرحلة ووصلنا إلى بلدة ســـيبولا[3] تلك الليلة في الســـاعة الســـابعة.

---

(١) الفشـــاغ: شـراب محلِّي بنكهة جذور الفشـــاغ، وهو نبات أمريكي ينمو في المناطق الحارة.

(٢) سبورتســـمان بارك: اســـم لعدة بنايات ســـابقة لملاعب البيسبول في سانت لويس بولاية ميسوري.

(٣) سيبولا: بلدة شمال نيو مكسيكو.

صمت الأستاذ يهودي طوال الصباح، لكنه لم يتوقف تقريبًا عن الكلام بقية اليوم. تعلمت بالفعل ألا أضع أية فرضيات عما قد يفعله أو لا يفعله. بمجرد أن تظن أنك استوعبتَه، يتحول ويفعل عكس ما تتوقعه بالضبط.

قال، معلنًا لي عن اسمه أول مرة: «يمكنك أن تدعوني الأستاذ يهودي، وإذا أحببْتَ يمكن أن تدعوني الأستاذ اختصارًا، لكن لا تدعُنِي يهودي تحت أي ظرف. واضح؟»

قلْتُ: «هل هذا هو الاسم الذي وهبه لك الرب، أم أنك اخترْتَ هذا اللقب بنفسك؟»

«لا حاجة بك إلى أن تعرف اسمي الحقيقي، سيكون الأستاذ يهودي كافيًا».

«حسنا، أنا والتر. والتر كليربورن رولي. لكن يمكنك أن تدعوني والت».

«سأدعوك بما أحب؛ إذا أردْتُ أن أدعوك دودة فسأدعوك دودة، وإذا أردْتَ أن أدعوك خنزيرًا فسأدعوك خنزيرا. مفهوم؟»

«جحيم يا مِسْتر، لا أفهم ما تتحدث عنه».

«ولن أحتمل أي كذب أو خداع، لا أعذار، لا شكاوى، لا ردود وقحة، بمجرد أن تلتزم بذلك، ستكون أسعد ولد على الأرض».

«بالتأكيد، وإذا كان لسكران سيقان، يمكنه أن يتبول واقفًا».

«أعرفُ قصتَكَ يا بني، وعليك ألا تخترع أية حكايات طويلة من أجلي؛ أعرف كيف مات أبوك بالغاز في بلجيكا سنة ١٩١٧،

وأعـرفُ ما يتعلق بأمك أيضًا، وكيف اعتادت أن تمارس الحيل في شـرق سـانت لويس من أجل رجل، وما حدث لها منذ أربعة أعوام ونصف حين وجه ذلك الشرطي المجنون مسدسه وأطلق النار على وجههـا، لا تعتقدْ أنني لا أشـفق عليك يا ولـدي، لكنك لن تصل إلى شيء أبدًا إذا هربت من الحقيقة وأنت تتعامل معي».

«حسنا يا مستر مدَّع، إذا كنت تعرف كل الإجابات فلماذا تضيع جهدك في إخباري بأشيًاء تعرفها بالفعل؟»

«لأنــك لا تصدق كلمــة مما قلْتُ، إنك تعتقد أن مســألة الطيران كلام فــارغ، ســتعمل بجديــة يا والــت، بجدية أكثر ممــا عملْتَ من قبل، وســترغب في الفرار منــي كل يوم تقريبًا، لكنــك إذا التزمْتَ بما عليك، ووثقْتَ فيما أقول، فســوف تكون قادرًا على الطيران بعد سنوات قليلة. أقسم لك. سوف تكون قادرًا على الإقلاع عن الأرض والطيران في الهواء مثل طائر».

«أنــا من ميســوري، تتذكر؟ لــم يلقبوها ‘ولاية الاســتعراض’ عبثًا».

«حسنا، لم نعد في ميسوري يا صديقي الصغير. إننا في كانساس، مكان أكثر اســتواءً، وأكثر بؤسًــا لم تره قط في حياتك. حين زحف كورونــادو(١) ورجاله إلى هنا فــي ١٥٤٠ بحثًا عن ‘مدن الذهب’، ضلــوا وجُنَّ نصفهم، ليس هناك ما يدلــك على موضعك؛ لا جبال، ولا أشجار، ولا مدقات على الطريق، إنها هنا مستوية مثل الموت، وبمجرد أن تقضي هنا بعض الوقت، تفهم أنك لا يمكن أن تذهب إلا إلى أعلى- تلك السماء صديقك الوحيد».

---

(١) كورونادو (١٥١٠-١٥٥٤): مستكشف إسباني.

حل الظلام ونحن ندخل المحطة، ولم يكن هناك سبيل لتأكيد وصف الأستاذ لوطني الجديد. بقدر ما أعرف، لم تكن البلدة تختلف عما توقعْتُ أن أراه في بلدة صغيرة. أبرد قليلا، ربما، وأكثر ظلامًا مما تعودْتُ، لكن نظرًا إلى أنني لم أذهب إلى بلدة صغيرة من قبل، لم تكن لدي فكرة عما أتوقعه. كان كل شيء جديدا بالنسبة لي: بدت كل الروائح غريبة، وكل النجوم في السماء غير مألوفة. إذا أخبرني أحد بأنني أدخل فقط «أرض الإوز»(١) لا أعتقد أنني سأعرف الفرق.

سرنا خلال مبنى الحراسة ووقفنا خارج الباب لحظة نتفحص القرية المظلمة، لم تكن الساعة تجاوزت السابعة مساء، لكن المكان كله كان مغلقًا، وباستثناء بضعة مصابيح تشتعل في المنازل خلفها، لم يكن هناك مظهر من مظاهر الحياة في أي مكان. قال الأستاذ يهودي: «لا تقلقْ، سنبدأ رحلتنا في أية دقيقة». مد يده وحاول أن يمسك بيدي، لكنني سحبْتُ ذراعي بعيدًا قبل أن يتمكن من القبض على يدي، وقلْتُ: «احتفظ ببراثنك لنفسك يا مِسْتر أستاذ، قد تظن أنك تمتلكني الآن، لكنك لا تمتلك حيوانا».

بعد حوالي تسع ثوانٍ تقريبا من نطقي بتلك الكلمات، ظهر حصان رمادي ضخم في نهاية الشارع يجر عربة بأربع عجلات. بدت مثل عربة في فيلم من أفلام الغرب للممثل توم ميكس(٢) شاهدْتُه في دار العرض في ذلك الصيف، لكنها كانت سنة ١٩٢٤، يا يسوع، وحين رأيتُ تلك العربة العتيقة تدمدم في الشارع، ظننْتُ أنها شبح، لكن

(١) أرض الإوز Oz: مكان خيالي وسحري وغريب، من ابتكار ل. فرانك بوم في رواية "عالم أوز المدهش".

(٢) توم ميكس (١٨٨٠-١٩٤٠): ممثل أمريكي، نجم عدد من أفلام الغرب الأمريكي.

يا للدهشة، لوَّح الأستاذ يهودي بيده حين رآها قادمة، ثم وقف ذلك الحصان الرمادي العجوز أمامنا مباشرة، وأمسك باللجام وهبَّات من البخار تندفع من منخاريه، كان السائق شخصا مستديرًا ومكتنزًا بقبعة بإطار واسع، وكان جسده ملفوفا في بطانيات، وفي البداية لم أعرف إن كان رجلا أم امرأة أم ولدًا.

قال الأستاذ: «أهلا، 'الأم سُيو'. ألقِي نظرةً على ما وجدْتُ».

حدقت المرأة فيّ لثانيتين بعينين خاليتين وباردتين كالحجر، ثم من حيث لا أعرف ومضت بابتسامة من أدفأ الابتسامات التي أمتعتني ومن أكثرها ودًا. لا يمكن أن يكون هناك أكثر من سنَّتين أو ثلاث تبرز من لثتيها، ومن الطريقة التي لمعت بها عيناها، استنتجْتُ أنها غجرية. كانت الأمّ سيو، ملكةَ الغجر، وكان الأستاذ يهودي ابنَها، أميرَ الظلام. كانا يخطفانني إلى «قلعة اللاعودة»، وإذا لم يأكلاني على العشاء في تلك الليلة، فسوف يحولانني إلى عبد، خصي ذليل بحلق في أذنه ومنديل من الحرير يلتف حول رأسي.

قالت الأم سيو: «اصعد يا ولدي»، كان صوتها عميقًا جدا ورجوليا، كان يمكن أن أموت من الرعب إن لم أعرف أنها تستطيع أن تبتسم. «سترى بعض البطاطين في الخلف. سوف تستخدمها إذا كنْتَ تعرف ما ينفعك، أمامنا رحلة طويلة في البرد، ولابد أنكِ تودُّ أن تصل إلى هناك دون أفخاذ متجمدة».

قال الأستاذ وهو يتسلق بجوارها: «اسمه والت، صعلوك تافه بمخ متقيح؛ الشخص الذي كنت أبحث عنه طوال كل هذه السنوات إذا صح حدسي». ثم قال بسرعة وهو يلتفت إليّ: «هذه هي الأم سيو، يا طفلي. عاملْها بلطف، ولن تردَّ إلا بما هو طيب. عارضْها،

وسوف تندم على اليوم الذي وُلِدْتَ فيه. قد تكون بدينة ودرداء، لكنها أقرب إلى الأم بصورة لن تعرفها أبدًا».

لا أعرف كم استغرق الأمر لنصل إلى المنزل. كان في مكان ما في الريف، على بعد ستة عشر ميلا أو سبعة عشر ميلا من البلدة، لكنني لم أعرف ذلك إلا فيما بعد؛ لأن النوم غلبني بمجرد أن انسللْتُ تحت البطاطين وبدأت العربة السير في الطريق، حين فتحْتُ عيني مرة أخرى، كنا هناك بالفعل، وإذا لم يوقظني الأستاذ بصفعة على الوجه، ربما نمت حتى الصباح.

قادني إلى المنزل والأم سيو تفك الفرس، وكان المطبخ أول مكان دخلناه: مساحة عارية، خافتة الإضاءة، بها موقد خشبي في أحد الأركان ولمبة جاز ترتجف في ركن آخر. وكان يجلس إلى الطاولة ولد أسود في الخامسة عشرة تقريبا يقرأ كتابًا. لم يكن أسمر مثل كل الملونين الذين صادفْتُهم في وطني، كان في لون الزفت، أسود، جدا. كان حبشيا تمامًا، ولدا زنجيا من أحراش أفريقيا السوداء، وكاد قلبي يتوقف عن النبض حين وقع بصري عليه، كان ولدًا ضئيلاً وهزيلاً بعينين جاحظتين وشفتين ضخمتين، وبمجرد أن وقف عن مقعده ليحيينا، رأيْتُ أن كل عظامه ملتوية ومعوجة، حتى إن جسمه بدا مشوهًا وأحدب مثل كسيح.

قال لي الأستاذ: «هذا أيسوب. أرق إنسان على وجه الأرض. حيِّه يا والت، وصافحه. سيكون أخاك الجديد».

قلت: «لا أصافح زنجيا. جننْتَ حين تظن أنني قد أفعل شيئًا من هذا القبيل».

تنهد الأستاذ يهودي تنهيدة طويلة بصوت مرتفع، لم تكن تعبيرًا عن الاشمئزاز بقدر ما كانت تعبيرا عن الأسى، رعدة تذكارية من أعماق روحه. ثم بمنتهى التأني والهدوء، ثنى سبابة يده اليمنى إلى خطاف يشير بصلابة، ووضع طرف الخطاف تحت ذقني مباشرة، بالضبط في نقطة التقاء اللحم والعظم. ثم بدأ يضغط، وفجأة انطلق ألم مرعب حول قفاي وصعد إلى جمجمتي، لم أشعر بألم مثله من قبل، كافحْتُ لأصرخ، لكن حنجرتي سُدَّتْ، ولم يصدر عني إلا صوت ضعيف مكتوم. واصل الأستاذ الضغط بإصبعه، وشعرْتُ فورا بقدمي ترتفعان عن الأرض، كنْتُ أتحرك إلى أعلى، مرتفعًا في الهواء مثل ريشة، وبدا أن الأستاذ حقق ذلك دون أي جهد، كما لو لم أكن بالنسبة له أكثر من خنفساء، وفي النهاية رفعني بحيث كان وجهي في مستوى وجهه أنظر في عينيه مباشرة.

قال: «لا نتحدث هنا بهذه الطريقة يا ولد، كل الرجال أخوة، وفي هذه الأسرة يتعامل الجميع باحترام. إنه القانون. تحمَّلْه حتى لو لم يعجبَك. القانون هو القانون، ومن يخالفه يتحول إلى حشرة ويتمرغ في الأرض بقية أيامه».

قدموا لِي المأكل والملبسِ وخِصصوا لِي غرفة، لم أوبَّخْ أو أضـرَبْ، لم أركَلْ أو أنخَسْ أو ألكَمْ على أذني، ولكن مـع احتمال الأمور بالنسـبة لــي، فإنني لم أكن قط أكثر سـوداوية، وأكثر امتلاء بالمرارة والغضب المكتوم، في الشهور الستة الأولى، لم أفكر إلا في الهروب. كنْتُ ابنًا من أبناء المدن نشأ وموسيقى الجاز في دمه، طفلاً من أبناء الشـوارع عينه على الفرصة الرئيسية، وقد أحببْتُ ضجيج الحشـود، صراخ عربـات الترواللي وخفقان النيون، ونتانة الويسكي المغشـوش تتقاطر في البالوعات. كنْتُ راقصًا ابن نكتة، قزمًا بارعًا بلسـان سـريع، أعرف الكثيـر من الحيل، وهناك كنت مقيمًا وسـط المجهول، أعيش تحت سماء لا تجلب إلا المناخ-مناخًا يكاد يكون سيئًا باستمرار.

كانـت ملكية الأسـتاذ يهودي سبعة وثلاثين فدَّانًا مـن القذارة، ومنزلاً ريفيا من طابقين، وقفص دجاج، وزريبة خنازير، وحظيرة للماشـية. كان في القفص دسـتة من الدجاج، وفـي الحظيرة بقرتان وحصان رمادي، وفي الزريبة سـتة خنازير أو سبعة. لم يكن هناك كهرباء، أو مواسـير للمياه، أو تليفون، أو لاسلكي، أو فونوجراف، أو العدم. كان المصدر الوحيد للمتعة بيانو في الردهة، وكان أيسوب الشخص الوحيد الذي يستطيع العزف عليه، وكان يعزف حتى أبسط الأغاني بشـكل غير متقن حتى إنني كنت أغـادر المكان دائمًا حين تلمـس فيها أصابعه المفاتيح، كان المكان بؤرة قذرة، عاصمة العالم للضجـر، وقـد تناولت منه ما يكفي بعد اليوم الأول. لم يسـمعوا في ذلك المنزل حتى عن البيسبول، ولم يكن هناك أي شخص أحدثه عن الكاردينال،[1] فريقي المفضل، وكان الموضوع الوحيد الذي أهتم به

(١) الكاردينال: فريق بيسبول أمريكي، تأسس في سانت لويس.

في تلك الأيام، شـعرْتُ وكأنني وقعْتُ خلال شق في الزمن وهبطْتُ في العصـر الحجري، في بلد حيث لا تـزال الديناصورات تطوف على الأرض. طبقا لما قالته الأم سيو، فاز الأستاذ يهودي بالحقل في رهان مع شخص في شيكاجو قبل ذلك بسبع سنوات تقريبًا. قلْتُ لابد أنه كان رهانا مثيرا، يتحول الخاسـر إلى فائز، والفائز مغفل يخسر مستقبله في بنجهولفيل، الولايات المتحدة الأمريكية.

أعتـرف بأنني كنْـتُ غبيا صغيرًا محتدًا فـي ذلك الوقت، لكنني لن أقدم أي مبررات لنفسـي، كنْتُ كيفما كنْتُ، نتاجا لشعب وأماكن أتيتُ منها، ولا معنى للبكاء على ذلك الآن. أكثر ما يؤثر في بشـأن تلك الشـهور الأولى مدى صبرهم معي، وكيـف بدا أنهم يفهمونني بشكل جيد ويتحملون تصرفاتي الغريبة. هربْتُ أربع مرات في ذلك الشـتاء، وذات مرة وصلْتُ إلى ويتشيتا(١)، وكانوا يردونني كل مرة ولا يوجهون لي أية أسئلة، كنت قيد شعرة من العدم، كنت أبتعد ذرة أو اثنتين عن نقطة تلاشي مكونات الإنسان، وحيث إن الأستاذ رأى أن روحي ليسـت أنبل من روح حيوان، فقد بدأ معي من هناك: في الحظيرة مع الحيوانات.

بقـدر ما كرهْـتُ رعاية الدجـاج والخنازير، فضلْـتُ صحبتها علـى صحبـة الناس، كان مـن الصعب أن أحدد مـن أكرهه أكثر، وكنت يوميا أعيد ترتيب نظام عداواتي. تسـتحق الأم سيو وأيسوب العداء بسـبب اشتراكهما الواضح في الاحتقار الداخلي، لكن الأستاذ فـي النهاية هو الذي أثـار قمة غضبي واسـتيائي؛ كان الوغد الذي احتال عليَّ ليأخذني إلى هناك، وإذا كان لأحد أن يلام على الورطة التي كنت فيها، فهو المتهم الرئيسـي. وكانت سـخريته أكثر ما أثار

(١) ويتشـيتا: مدينة تقع جنوب غرب مدينة كانسـاس، ولاية كانسـاس، وهي ولاية تقع وسط الولايات المتحدة.

سخطي، بالإضافة إلى الضربات والاتهامات التي يصوبها إليَّ باستمرار، والطريقة التي كان يسوقني ويتعقبني بها لا لسبب إلا ليبرهن على أنني عديم القيمة، مع الاثنين الآخرين كان مهذبًا دائمًا، نموذجا للياقة، لكنه لم يفوت فرصة ليقول شيئًا خبيثًا في حقي. بدأ ذلك صباح أول يوم، وبعد ذلك لم يتوقف، قبل مرور وقت طويل، أدركْتُ أنه ليس أفضل من الخال سليم. ربما لم يكن يجلدني كما كان سليم يفعل، لكن كلمات الأستاذ كانت قوية تؤذيني مثل خبطة في الرأس.

قال لي صباح أول يوم: «حسنا، أيها الوغد الضعيف. قل لي ما تعرفه عن الثلاثة آر»[1].

قلْتُ، لاجئًا إلى الرد السريع لرجل حكيم: «ثلاثة؟ لا أعرف إلا مؤخرة واحدة[2]، أستخدمها كلما جلسْتُ. مثل أي شخص آخر».

«أقصد المدرسة، يا تافه، هل وضعْتَ قدما في فصل- وإذا كنت، فماذا تعلمْتَ هناك؟»

«لم أكن في حاجة إلى مدرسة لتعلمني، كانت لديَّ وسائل أفضل من ذلك لقضاء الوقت».

«رائع، تتحدث مثل متعلم حقيقي. لكن كن أكثر تحديدًا، ماذا عن الأبجدية؟ هل تستطيع كتابة حروف الأبجدية أم لا؟»

«بعضها، الحروف التي تؤدي الغرض، الأخرى لا تهم، تؤلمني فقط؛ ومن ثم لا أهتم بها».

---

(١) الثلاثة آر three R›s: إشارة إلى المهارات الأساسية في التعليم وهي القراءة reading، والكتابة writing، والرياضيات arithmetic.

(٢) مؤخرة: في الأصل arse وتنطق مثل R›s.

«وما الحروف التي تفي بغرضك؟»

«حسنا، لنرَز هناك حرف A، أحب ذلك الحرف، وحرف W. ثم هناك تلك الحروف، L، E، R، وذلك الحرف الذي يبدو مثل الصليب، T، كما في كلمة ستيك(١). تلك الحروف زملائي، والبقية يمكن أن تُقلى في الجحيم ولا أبالي».

«تعرف إذن كيف تكتب اسمك».

«هذا ما أقوله لك يا ريس، أستطيع أن أكتب اسمي، أستطيع أن أعد إلى ما لا نهاية، وأعرف أن الشمس نجم في السماء، وأعرف أيضًا أن الكتب للفتيات والمخنثين، وإذا كنت تخطط لتعلمني أي شيء من الكتب، يمكننا أن ننهي اتفاقنا فورًا».

«لا تغضب، يا بني، ما قلته لي موسيقى في أذني، كلما كنْتَ أكثر غباء، كان أفضل لكلينا، بتلك الطريقة يقل ما تفسده، وهو ما يوفر لنا الكثير من الوقت».

«وماذا عن دروس الطيران؟ متى نبدأها؟»

«بدأنا بالفعل، من الآن يرتبط كل ما نفعله بالتدريب، لن يكون الأمر واضحًا لك دائمًا، لذا حاول أن تضع ذلك في اعتبارك، إذا لم تنس، ستكون قادرًا على التحليق هناك حين يكون التقدم جادًا، إننا نبدأ رحلة طويلة، يا بني، وأول ما عليَّ أن أفعله أن أحطم روحك، أتمنى أن يكون الأمر بطريقة أخرى، لكنني لا أستطيع؛ نظرا للقذارة التي تنحدر منها، لن تكون مهمة بالغة الصعوبة».

(١) الحروف المذكورة تشكل حروف اسمه Walter. ستيك steak، أي شريحة من اللحم.

وهكذا قضيْتُ أيامي أجرف السماد في الحظيرة، مقطبًا حاجبي والآخرون يجلسون ينعمون بالراحة والدفء في المنزل. تهتم الأم سيو بالطبخ والمهام المنزلية، وأيسوب يسترخي على الأريكة يقرأ الكتب، والأستاذ يهودي لا يفعل شيئا، يبدو أن وظيفته الأساسية الجلوس على مقعد خشبي مستقيم الظهر من شروق الشمس إلى غروبها والنظر من النافذة، باستثناء محادثاته مع أيسوب، كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي رأيته يفعله حتى الربيع، كنت أنصت أحيانا وهما يتحدثان، لكنني لم أفهم قط ما يقولان. كانا يستخدمان الكثير من الكلمات المعقدة، بدا وكأنهما يتواصلان برطانة خاصة بهما، فيما بعد، حين عرفت خبايا الأمور، عرفْتُ أنهما يذاكران. تكفل الأستاذ يهودي بتعليم أيسوب المواد الدراسية، وكانت الكتب التي يقرآنها تتناول مواضيع مختلفة: التاريخ والعلوم والآداب والرياضيات واللاتينية والفرنسية، إلخ. وكان لديه مشروع تعليمي الطيران، لكنه كان منهمكا أيضًا في جعل أيسوب متعلمًا، وبقدر ما أعرف كان هذا المشروع الثاني يعني له أكثر بكثير مما يعني له مشروعي، وكما عبَّر الأستاذ بعد وقت قصير من وصولي: «كان حتى أسوأ مما كنْتَ، يا قزم. حين عثرْتُ عليه منذ اثنى عشر عامًا، كان يزحف في حقل قطن في جورجيا يرتدي أسمالا، لم يتناول طعاما ليومين، وأمه، ولم تكن إلا طفلة هي الأخرى، ترقد ميتة من الدرن في كوخهما على بعد أربعة عشر ميلا من الطريق، وتلك هي المسافة التي هامها الطفل بعيدًا عن البيت، كان يهذي جوعا، وإذا لم ألتقِ به صدفة في تلك اللحظة، من المستحيل أن أعرف ماذا كان يمكن أن يحدث له، ربما تلوى جسمه بشكل تراجيدي، لكن عقله آلة متألقة، وقد تفوق عليَّ بالفعل في معظم المجالات، أخطط لإلحاقه بكلية خلال ثلاث سنوات، يمكنه أن يواصل دراسته هناك، وبمجرد أن يتخرج ويدخل العالم سيكون قائدًا لجنسه، مثالاً ساطعا

لكل الشعوب السوداء المضطهدة في هذه البلاد العنيفة المرائية»، لم أفهم ما تحدث الأستاذ عنه، لكن الحب في صوته انتقل إليَّ وانطبع في ذهني. بكل غبائي، كنت قادرًا على فهم الكثيرِ منه، كان يحب أيسوب كما لو كان ابنه، ولم أكن إلا بهيمًا مغفلاً ومهجنًا يُبصَق ويترك في المطر.

كانت الأم سيو رفيقتي في الجهل، زميلتي الأمية الكسول، وبينما كان يمكن أن يساعد ذلك في خلق رابطة بيننا، لم يحدث شيء من هذا القبيل، لم يكن هناك عداء صريح من جانبها، لكنها في الوقت ذاته كانت تهيج أعصابي، وأعتقد أن التكيف مع غرابتها استغرق مني وقتا أطول مما استغرق مع الاثنين الآخرين- اللذين يمكن بصعوبة أن يعتبرا طبيعيين، حتى حين تبعد البطاطين عن جسمها وتخلع القبعة عن رأسها، كنت أعاني من مشكلة في تحديد جنسها، وكان ذلك مزعجا إلى حد ما، وحتى بعد أن لمحْتُها عارية من ثقب باب غرفتها ورأيْتُ بأم عيني أن لها ثديين، وليس لديها عضو يتدلى من عانتها، ظللْتُ غير مقتنع تمامًا. كانت يداها خشنتين مثل يدي الرجل، وكانت لها كتفان عريضتان وعضلات منتفخة في ساعديها، وباستثناء اللحظة التي ومضت فيها ابتسامة من ابتساماتها النادرة والجميلة، كان وجهها شاحبًا وصلبًا مثل لوح من الخشب، ربما ذلك أقرب إلى ما أقلقني: صمتها، الطريقة التي بدا أنها تنظر بها إليَّ وكأنني غير موجود، في نظام التسلسل الاجتماعي للأسرة، كنت أقف تحتها مباشرة، مما كان يعني أن لي تعاملات معها أكثر مما لي مع أي شيء آخر، كانت هي التي تكلفني بالمهام وتراقبني، وتتأكد من أنني غسلت وجهي وأسناني قبل النوم، ومع ذلك في كل الساعات التي قضيتها في صحبتها كانت تجعلني أشعر بالوحدة أكثر مما كنت أشعر وأنا وحدي حقا، يزحف إحساس بالخواء في بطني

كلما تكون حولي، بالضبط وكأن مجرد القرب منها يجعلني أبدأ في الانكماش. لم تكن طريقة تصرفي تؤثر في الأمر، يمكن أن أتعفرت أو أقف ساكنا، ويمكن أن أصرخ أو أعقد لساني، ولا تختلف النتائج قط. كانت الأم سيو حائطًا، وكلما اقتربْتُ من ذلك الحائط أتحول إلى نفثة دخان، سحابة ضئيلة من الرماد المتناثر في الريح.

أيسوب الشخص الوحيد الذي أظهر لي عطفًا حقيقيا، لكنني كنْتُ ضدَّه من البداية، ولم يغير من موقفي ما يقوله أو يفعله، لم تكن لي حيلة في ذلك، كان شعوري بازدرائه متأصلاً في دمي، ونظرًا لأنه كان أبشع عينة من نوعه قادني سوء الحظ لرؤيتها، كان أمرًا منافيًا للعقل أن نعيش تحت سقف واحد، كان أمرًا منافيًا لقوانين الطبيعة، ينتهك كل ما هو مقدس وحقيقي، ولن أترك نفسي تتقبله. حين تسلم بحقيقة أن أيسوب كان يتحدث بطريقة لا يتحدث بها أي ولد ملون على وجه الأرض ـ يتحدث مثل لورد إنجليزي أكثر مما يتحدث مثل أمريكي ـ ثم تسلم بحقيقة إضافية وهي أنه المفضل لدى الأستاذ، لم أكن أستطيع التفكير فيه دون أن أستسلم لنوبة عنيفة من العصبية، ومما يجعل الأمور أسوأ، كان عليَّ أن أغلق فمي حين يكون قريبًا، أظن أنه كان يمكن لبضع ملاحظات مختارة أن تفجر غضبي، لكنني تذكرْتُ إصبع الأستاذ يغرس في ذقني، ولم أكن في حالة مزاجية تسمح لي بالخضوع لهذا العذاب مرة أخرى.

كان أسوأ ما في ذلك أن أيسوب لم يبدُ مهتما بأنني أزدريه إلى هذا الحد، استكملْتُ ذخيرة كاملة من العبوس والتكشير لأستخدمها في صحبته، لكن كلما أطلقْتُ إحدى تلك النظرات في اتجاهه، يكتفي بهز رأسه والابتسام لنفسه، مما يجعلني أشعر بأنني معتوه، بصرف

النظــر عما أبذل من جهد لمحاولة إيذائه، لم يدعني أزعجه قط، ولم يمنحني قط الإحساس بالرضا لتسجيل هدف ضده. لم يكسب الحرب بيننا ببســاطة، كان يكسب كل معركة في تلك الحرب، وتبينت أنني إذا لم أســتطع حتى أن أتفوق على شـيطان أسـوِد فــي تبادل عادل للإهانــات، لابد أن تُفتَن كل براري كانســاس، أرغَمْتُ على أرض الأحلام السيئة، وكلما كافحْتُ أكثر لأستيقظ أصبح الكابوس أبشع.

قال لي أيسوب عصر أحد الأيام: «تحاول بجدية شديدة، تستهلكك استقامتك إلى حد بعيد، وقد عميت عما حولك، وإذا كنت لا تستطيع رؤيــة ما أمام أنفك، فلن تســتطيع أبدًا أن تنظر إلى نفســك وتعرف حقيقتك».

قلْتُ: «أعرف حقيقتي، لا أحد يستطيع أن يسلبني ذلك».

«الأستاذ لا يسرق منك شيئا؛ إنه يقدم لك هبة عظيمة».

«انظرْ، قدمْ لي معروفا؛ لا تذكر اسم ذلك الجبان في حضوري، يفزعني أستاذك هذا، تتحسن حالتي كلما قل تفكيري فيه».

«إنه يحبك يا والت، يؤمن بك بكل ذرة من روحه».

«ليذهب ما يفعله إلى الجحيم، ذلك الدجال لا يقدم أي شيء على الإطــلاق، إنه ملــك الغجر مهما فعل، وإذا كانت لــه أية روح- ولا أقول إن له روحا- فهي معبأة بالشر تمامًا».

اتسعت عينا أيسوب في ذهول: «ملك الغجر؟ هل هذا ما تظن؟» لابــد أن الفكرة نخســته حتى النخاع، وبعد لحظة أمســك بطنه وبدأ يهتــز فــي نوبة من الضحك، وقال وهو يمســح الدمــوع من عينيه:

«تعـرف بالتأكيد كيف تأتي بأفكار جيدة، من وضع في رأسـك هذه الفكرة؟»

قلت وأنا أشعر بتورد وجنتي نتيجة الارتباك: «حسنا، إذا لم يكن غجريا، فماذا يكون إذن بحق الجحيم؟»

«مَجَرِيًا».

«مـاذا؟» تمتمْتُ، كانت أول مرة أسـمع فيها أحدًا يسـتخدم هذه الكلمة، وقد أذهلتني حتى إنني فقدْتُ للحظة القدرة على الكلام.

«مجريـا، وُلِدَ في بودابسـت وجـاء إلى أمريـكا صبيًا صغيرًا، ترعرع في بروكلين في نيويورك، وكان أبوه وجده من الحاخامات».

«وما ذلك، يشبه القوارض إلى حد ما؟»

«إنه معلّمٌ يهودي. وزير أو كاهن من نوع ما، لليهود فقط».

قلْتُ: «حسنا الآن، تقول ذلك، ذلك يفسر كل شيء، أليس كذلك؟ إنه أسوأ من غجري، دكتور دارك بروز العجوز- إنه كايك(١). ليس هناك أحقر من ذلك على كل الكوكب البائس».

قال أيسـوب: «من الأفضل ألا تدعه يسـمعك وأنـت تتكلم بهذه الطريقة».

قلْتُ: «أعـرفُ حقوقي، وليس هناك يهودي يمكن أن يضايقني، أقسم على ذلك».

---

(١) كايك: كلمة تحقير تستخدم في أمريكا وكندا لوصف اليهودي.

«هوِّنْ على نفسك، يا والت. إنك تسعى للمشاكل فقط».

«وماذا عن تلك الساحرة، الأم سيو؟ هل هي هيبي[1] أخرى؟»

هز أيسوب رأسه وحدق في الأرض، كان صوتي يموج بغضب شديد مما جعله لا يستطيع النظر في عيني، قال: «لا، إنها أوجلالا سيوكس، جدها أخو سيتنج بول، وفي شبابها كانت تركب حصانا دون سرج في عرض 'الغرب البري' لـ'بفلو بِلْ'»[2].

«إنك تخري في رأسي».

«لا يخطر لي ذلك على بال، ما أقوله لك الحقيقة الخالصة الصريحة، إنك تعيش في المنزل نفسه مع يهودي أسود، وهندية، وستكون حياتك أكثر سعادة كلما تقبلت الحقائق أسرع».

احتملت ثلاثة أسابيع حتى ذلك الوقت، لكنني بعد هذه المحادثة مع أيسوب عرفْتُ أنني لم أعد أحتمل أكثر؛ هربت من هناك في تلك الليلة ذاتها- انتظرتُ حتى نام الجميع وزحفْتُ من تحت الأغطية، وتسللت هابطًا السلم، وسرْتُ على أطراف أصابعي إلى ظلمة ديسمبر البارد، لم يكن هناك قمر في السماء، ولم تكن هناك حتى نجمة تسطع فوقي، وحين عبرْتُ العتبة، ضربتْني ريحٌ عنيفة دفعتني إلى جدار المنزل، لم تكن عظامي أقوى من القطن في تلك الريح، كان الليل يموج بالصخب، وكان الهواء يندفع ويدوِّي وكأنه يحمل صوت الرب، يطلق حنقه على كائن أحمق بدرجة تجعله يواجهه، صرْتُ ذلك الأحمق، ومرة بعد أخرى نهضت من على

---

(١) هيبي: ربة الشباب والربيع ابنة زيوس وهيرا، وزوجة هرقل.

(٢) بفلو بِل (١٨٤٦-١٩٢٧): جندي أمريكي ومخرج استعراضي، حصل على نوط الشرف سنة ١٨٧٢ للخدمات التي قدمها للجيش الأمريكي.

الأرض وشققت طريقي بين أسنان الخضم، أدور مثل دولاب الهواء وأنا أدفع جسدي إلى الفناء، بعد عشر محاولات أو اثنتي عشرة محاولة، هلكت تمامًا، صرت هيكلا منهكا ومترنحا، وصلت إلى حظيرة الخنازير، وبالضبط وأنا أسقط على ركبتي مرة أخرى، لم أبصر وفقدت الوعي، مرت الساعات. أفقتُ مع بزوغ الفجر لأجد نفسي محاطا بأربعة خنازير هاجعة، إذا لم أقع على الأرض بين تلك الخنازير، لكان هناك احتمال كبير لأن أتجمد حتى الموت أثناء الليل، مفكرًا في ذلك الآن، أفترض أنها كانت معجزة، لكنني حين فتحْتُ عيني في ذلك الصباح ورأيْتُ موضعي، كان أول ما فعلْتُ الوثب على قدمي والبصق، لاعنًا حظي السيئ.

لم يكن لدي أدنى شك في أن الأستاذ يهودي مسئول عما حدث، في تلك المرحلة المبكرة من تاريخنا معًا، نسبْتُ له كل أنواع القوى الخارقة، وكنت مقتنعا تمامًا بأنه هو الذي جلب هذه الرياح العنيفة لا لسبب إلا ليحول بيني وبين الهروب، لعدة أسابيع بعد ذلك، امتلأ رأسي بعدة نظريات وتأملات طائشة، وكان أكثرها إثارة للهلع يخص أيسوب ويقيني المتنامي بأنه وُلِد أبيض، كانت فكرة مرعبة، لكن بدا أن كل الأدلة تدعم استنتاجي، كان يتحدث مثل شخص أبيض، أليس كذلك؟ ويتصرف مثل شخص أبيض، ويفكر مثل شخص أبيض، ويعزف على البيانو مثل شخص أبيض، ولماذا ينبغي، لمجرد أن بشرته سوداء، أن أصدق عيني حين يخبرني قلبي بشيء آخر؟ كانت الإجابة الوحيدةُ أنه وُلِد أبيض، وقبل سنوات اختاره الأستاذ أول تلاميذه في فن الطيران، وطلب من أيسوب أن يقفز من على سطح الزريبة، وقفز أيسوب - لكن بدل أن يمسك بتيارات الرياح ويحلق في الهواء، سقط على الأرض وتكسرت كل عظمة في جسمه، وهذا يفسر شكله البائس وغير المتناسق، لكن

الأستاذ يهودي، ليجعل الأمور أسوأ، عاقبه على فشله، استدعى قوة مائةِ شيطانٍ يهودي، وأشار بإصبعه إلى تلميذه وحوله إلى زنجي بشع، تحطمت حياة أيسوب، ولم يكن لدي شك في أن المصير نفسه ينتظرني، لا ينتهي بي الأمر فقط إلى أن أصبح أسود البشرة وكسيحًا، لكنني سأرغم على قضاء بقية أيامي أدرس الكتب.

هربْتُ في المرة الثانية عصرًا، هزمني الليل بسحره، ومن ثم قامرت باستراتيجية جديدة ونفذتها في وضح النهار، متصورًا أنه لن يكون هناك أي عفريت يهدد خطواتي إذا عرفْتُ إلى أين أذهب، في أول ساعة أو ساعتين، سار كل شيء طبقًا للخطة؛ تسللت من الزريبة بعد الغداء مباشرة وانطلقت في الطريق إلى سيبولا، عازمًا على مواصلة السير بسرعة والوصول إلى البلدة قبل حلول الظلام، ومن هناك أستقل قطارًا من قطارات الشحن وأنطلق في طريقي إلى الشرق، وإذا لم أتعثر، سأتجول في شوارع سانت لويس العزيزة والقديمة خلال أربع وعشرين ساعة.

وهكذا اندفعْتُ عبر الطريق السريع المغبر المستوى مع فئران الحقول والغربان، بشعور يزداد ثقة مع كل خطوة أخطوها، وفجأة حدقْتُ ورأيْتُ عربة بأربع عجلات تقترب من الاتجاه المقابل، بدت بشكل مدهش شبيهة بعربة الأستاذ يهودي، لكن حيث إنني رأيْتُ تلك العربة في الزريبة قبل أن أرحل، استهجنت الصدفة وواصلْتُ السير، وأنا على بعد حوالي اثنتي عشرة ياردة منها، حدقت مرة أخرى، تجمد لساني في سقف فمي؛ سقطت مقلتاي من محجريهما وقعقعتا في قدمي، كانت عربة الأستاذ يهودي بالفعل، ولم يكن يجلس في تلك العربة غير الأستاذ نفسه، يتطلع إليَّ وابتسامة عريضة على وجهه، أوقف العربة ورفع قبعته لي بتلقائية وود.

«مرحبا، يا بني. الجو قارص بعض الشـيء للتجوال في عصر هذا اليوم، ألا تعتقد ذلك؟»

قلت: «الطقس مناسـب لي، على الأقـل يمكن أن أتنفس هنا، إذا بقيت جالسًا في مكان واحد وقتا طويلاً جدًا، تختنق من زفيرك».

«بالتأكيد، أعرف ذلك، يحتاج كل فتى إلى أن يفرد سـاقيه. لكن النزهة انتهت الآن، وحان موعد العودة إلى البيت. ابتعدْتَ، يا والت، وسـوف نرى إن كان من الممكن أن نصل إلى هناك قبل أن يلاحظ الآخرون غيابنا».

لم يكن أمامي اختيار، صعدت إلى العربة وجلسْـتُ بجواره وهو يشد اللجام ليسير الحصان مرة أخرى، على الأقل لم يعاملني بقسوته المعتـادة، وتجاهل مثلي إحباط محاولة هروبي، لم أكن على وشـك أن أتركه يعرف ما كنت مقدمًا عليه، ربما خمن ذلك على أية حال، لكن بدلاً من أكشـف عن مدى خيبة أملي، تظاهرت باللعب بمسـألة أنني خرجْتُ للتمشية.

قلْتُ: «ليس أمرا طيبًا أن يحبس صبي بهذا الشكل. إن ذلك يجلب له الحزن ويجعل مزاجه سـيئا، ولا يستطيع أن يقوم بمهامه بالروح المناسبة، إذا منحْتَ الفتى قليلا من الهواء النقي، سيكون أكثر رغبة في القيام بعمله».

قال الأستاذ: «أسمع ما تقول يا صاحبي، وأفهم كل كلمة منه».

«حسـنا، ماذا سـتكون، يا كابتن؟ أعرف أن سيبولا ليست مدينة تماما، لكنني أراهن أنهم أقاموا معرض صور أو شـيئا ما، قد يكون رائعـا أن نذهب إلى هنـاك ذات ليلة، تعرف، متعة صغيرة لكسـر

الملــل، أو ربما يكون هناك فريق بيســبول قريــب منا، ضمن فرق اتحاد صغير، حين يأتي الربيع، لماذا لا نحضر مباراة أو اثنتين، لن يكون فريقًا كبيــرًا مثل الكاردينال. أقصد أن دوري الدرجة الرابعة يناسـبني، ما داموا يسـتخدمون المضارب والكرات لن تسـمع أية شــكوى من هذه الناحية، لن تعرف قط يا سيدي، إذا أعطيتها نصف فرصة، ربما تحبها أنت نفسك».

«إنني متأكد من ذلك، لكن لا يزال أمامنا جبل من العمل، وأثناء ذلك ينبغي حماية الأسرة، نكون أكثر أمانا كلما اختفينا أكثر، لا أريد أن أفزعك، لكن الأمور ليســت هادئة في هذا الحي كما قد تبدو، لنا مــن حولنا أعداء أقويــاء، لا يبهجهم وجودنا فــي بلادهم، لن يبالي الكثير منهم إذا توقفنا عن التنفس فجأة، ولا نريد استثارتهم بالتباهي بأنفسنا المبهرجة علنًا».

«مادمنا ننشغل بعملنا، من يبالي بما يفكر فيه الناس؟»

«كذلــك بالضبط، يعتقد بعض الناس أن عملنا يخصهم، وأســعى إلــى الحفاظ على مســافة كبيرة بينــي وبين أولئــك المتطفلين، هل توافقني يا والت؟»

قلتُ له إنني أوافقه، والحقيقة أنني لم أكن أوافقه إطلاقًا، الشــيء الوحيــد الــذي عرفتُه أن هناك أناسًــا يريدون قتلي، ولن يســمح لي بالذهــاب إلى أية مباريات بيســبول، ولا حتى النبــرة المتعاطفة في صــوت الأســتاذ يمكن أن تجعلنــي أفهم ذلك، وطــوال الطريق إلى البيت ظللتُ أطلب من نفســي أن أكون قويا ولا أستسلم للموت أبدًا؛ عاجــلا أو آجلا ســأجد طريقــة للخروج من هنــاك، عاجلا أو آجلا سأترك ذلك الرجل المشعوذ في التراب.

فشـلت محاولتي الثالثـة ببؤس كما فشـلت الاثنتـان الأخريان. غـادرت البيت في الصباح في تلك المـرة، ورغم أنني وصلت إلى ضواحي سـيبولا فإن الأستاذ يهودي كان في انتظاري مرة أخرى، جاثما على العربة بالابتسـامة نفسـها التي تعبر عن الرضا بالنفس تنتشـر عبر وجهه، شـوش هذا الحادث تفكيري تماما، على عكس المرة السـابقة، لم أسـتطع اسـتبعاد وجـوده هناك باعتبـاره مجرد صدفة، بدا الأمر وكأنه كان يعرف أنني سـأهرب قبل أن أعرف أنا نفسـي، كان ابن الزانية في رأسـي، يمتص عصارات دماغي، ولم يكن حتى لأعمق أفكاري أن تخفي عليه.

لكننـي لم أستسـلم، كان عليَّ فقط أن أكون أكثـر مهارة، وأكثر منهجيـة في الطريقة التي أسـلكها، بعد تفكير طويل، اسـتنتجْتُ أن السـبب الرئيسي لمشاكلي المزرعة نفسها، لم أكن أستطيع الخروج مـن هناك لأن المـكان منظم جدًا، وبـه اكتفاء ذاتي تـام. كان لدينا لبـن وزبـد من البقـر، وبيض من الدجـاج، ولحوم مـن الخنازير، وخضـروات من مخـزن الخضروات، ومخزون هائـل من الدقيق والملح والسـكر والملابس، ولـم تكن هناك ضرورة لأن يذهب أحد إلى البلدة لشراء إمدادات، قلت لنفسي: لكن ماذا إذا انتهى شيء من عندنـا، إذا حدث نقص فجائي في شـيء حيوي لا نسـتطيع العيش دونه؟ سـيكون على الأسـتاذ الذهاب للحصول علـى المزيد، أليس كذلك؟ وبمجرد أن يذهب، سأتسلل من هناك وأهرب.

كان الأمر بسـيطًا جدا، ضحكْتُ تقريبا من البهجة حين خطرت لي هذه الفكرة، لابد أننا كنا في فبراير، وطوال الشـهر التالي تقريبا لم أفكر في شـيء آخر سـوى التخريب، امتلأ عقلي بعدد لا يحصى

مـن الحيل والخطط، مُسـتحضرًا أعمالاً مفزعة ومدمرة بشـكل لا يوصف، تصورت أن أبدأ بأعمال صغيرة- أشـق كيسا أو اثنين من أكياس الدقيق، وربما أتبول في برميل السـكر- لكن إذا فشـلت تلك الأمور في تحقيق النتيجة المطلوبة، لن أنفر من القيام بأشـكال أكبر مـن التخريـب: تحرير الدجاج من حظيرته، على سـبيل المثال، أو قطـع رقاب الخنازير، لم يكن هناك شـيء لا أريد فعله لأخرج من هناك، وإذا لزم العنف، كنت مسـتعدًا حتى لإشـعال النار في القش وحرق الزريبة.

لم يتم أي شيء كما تخيلته، سنحت لي فرص، لكن كلما كنت على وشـك وضع خطة موضع التنفيذ، خذلتني أعصابي بشكل غامض. كان الخـوف يتأجج في رئتي، ويبدأ قلبي يرفرف، وبالضبط ويداي تستعدان للقيام بالمهمة، كانت قوة غير مرئية تسلبني قوتي، لم يحدث لي شـيء مثل هذا من قبل، كنْتُ دائمًا مؤذيًا تمامًا، طوع اندفاعاتي ورغباتي تماما، إذا أردْتُ أن أفعل شيئًا أشرع على الفور في فعله، وأنهمـك فيه بتهـور، خارجًا على القانون بالفطـرة، وحينذاك كنت مُعوَّقًا، يمنعني شـلل غريب في الإرادة، فاحتقرْتُ نفسـي لتصرفي بهذا الجبن، ولم أسـتطع أن أفهم كيف أن تسـرب مقدرتي يمكن أن يغوص إلى هذا العمق، باغتني الأسـتاذ يهودي مرة أخرى، حولني إلى دمية، وكلما كافحْتُ أكثر لأهزمه، جعل الحبال أكثر إحكاما.

قضيت شـهرًا في الجحيـم قبل أن أجد الشـجاعة للقيام بمحاولة أخـرى، في هذه المـرة، بدا أن الحظ يحالفني، وبعد أقل من عشـر دقائـق من الوصـول إلى الطريق، التقطني صاحب سـيارة عابرة،

وأخذني معه طوال الطريق إلى ويتشيتا[1]. وكان من ألطف الرجال الذين قابلتهم على الإطلاق، فتى جامعيًا في طريقه لرؤية خطيبته، واندفعنا منذ البداية، كل منا يمتع الآخر بالقصص لساعتين ونصف بالتمام، أتمنى أن أتذكر اسمه، كان شخصا أخرق أسمر الشعر، حول أنفه نمش، وعلى رأسه قبعة صغيرة وأنيقة من الجلد، لسبب ما أتذكر أن اسم صديقته «فرانسين»، وربما يرجع ذلك إلى أنه تحدث عنها كثيرًا جدا، وحكى بإسهاب عن الحلمتين الورديتين على ثدييها والأهداب المخرمة المتصلة بملابسها الداخلية، كان صاحب القبعة الجلدية يقود سيارة فورد جديدة براقة، وكان يسرع على الطريق السريع الخالي وكأنه ليس هناك غد، قهقهت وشعرت بأنني حر وسعيد جدا، وكلما ثرثرنا في أمر ما، ازداد شعوري بالحرية والسعادة، قلتُ لنفسي: فعلتُها حقا تلك المرة، هربتُ من هناك، ولن يوقفني أحد بعد ذلك.

لا أعرف بدقة ماذا كنتُ أتوقع من ويتشيتا، لكن من المؤكد أنها لم تكن البلدة الصغيرة الكئيبة التي اكتشفتُها في منطقة لتربية الماشية عصر ذلك اليوم سنة ١٩٢٥، كان المكان بلدة منعزلة، بثرة مملة في عقب أبيض عار، أين كانت الصالونات والقناصون والمحتالون المحترفون؟ أين كان ويات إرب؟[2] بصرف النظر عما كانت عليه ويتشتيا في الماضي، كانت تجسيدًا لفوضى حقيقية بائسة من المحلات والمنازل، بلدة شُيّدتْ منخفضة جدا على الأرض بحيث لا يصطدم كوعك بالسماء حين تتوقف لتحك رأسك، تبينتُ أن عليَّ أن أحتال من أجل نفسي، أتوانى بضعة أيام لأوفر بعض النقود، ثم أسافر عائدا إلى سانت لويس بشكل مناسب، أقنعتني جولة سريعة

---

(١) ويتشيتا: مدينة جنوب كانساس.

(٢) ويات إرب (١٨٤٨-١٩٢٩): ضابط أمريكي تورط في نزاع شهير في أريزونا سنة ١٨٨١.

في الشـوارع بالتخلي عن ذلك، وبعد وصولي بنصف ساعة، كنت بالفعل أبحث عن قطار لأرحل من هناك.

شعرْتُ بكآبة وغم شديد، حتى إنني لم ألاحظ أن الثلوج بدأتْ تتساقط، كان مارس أسوأ موسم للعواصف في تلك البلاد، لكن اليوم بدأ ساطعا وصافيا، ولم يخطر على بالي حتى إن الطقس يمكن أن يتغير، بدأ بهبة ريح، رذاذٍ أبيض ينزلق خلال السحب، لكن وأنا أواصل السير عبر البلدة بحثًا عن محطة القطار، ازداد المطر سمكا وكثافة، وحين توقفْتُ لأتفحص اتجاهاتي بعد ذلك بخمس دقائق أو عشر، كانت المياه تصل إلى كاحلي بالفعل. كان الجليد يتساقط بغزارة. قبل أن أستطيع التفوه بكلمة «عاصفة»، عصفت الريح وبدأتْ تدفع الجليد في كل الاتجاهات على الفور. كانت السرعة التي حدثت بها غريبة. في دقيقة كنت أسير في الشوارع وسط ويتشيتا، وفي الدقيقة التالية تهْتُ، تعثرت بشكل أعمى في عاصفة بيضاء، لم تعد هناك وسيلة أعرف بها موضعي، كنت أرتجف تحت ملابسي المبللة، كانت الرياح مجنونة، وكنْتُ ضئيلا وسطها، ألف وأدور.

لسْتُ متأكدا من المدة التي قضيتها وأنا أتخبط في تلك الفوضى، أظن أنها لا تقل عن ثلاث ساعات، وربما خمس ساعات أو ست ساعات. وصلْتُ البلدة وقت الأصيل، وكنْتُ لا أزال على قدمي بعد هبوط الليل، أشق طريقي عبر الطرق الجبلية، محاصرًا حتى ركبتي، ثم حتى خصري، ثم حتى عنقي، باحثًا في هلع عن ملجأ قبل أن يبتلع الجليد جسدي كله، كان عليَّ أن أواصل الحَركة، أي توقف قد يدفنني، وقبل أن أتحرك، أتجمد حتى الموت أو أختنق. وهكذا واصلت السير إلى الأمام، حتى وأنا أعرف أن الأمر يدعو إلى اليأس، حتى وأنا أعرف أن كل خطوة تقربني من نهايتي؛ أين

النور؟ ظللْتُ أتساءل، كنت أبتعد أكثر وأكثر عن البلدة، إلى الريف حيث لا أحد يعيش، وكلما غيرتُ مساري أجد نفسي في العتمة نفسها، بين ليل تام وبرد قارص.

بعد مرور بعض الوقت، لم يعد يبدو لي شيء حقيقيا، توقف عقلي عن العمل، وإذا كان جسدي لا يزال يسحبني، فذلك لأنه لا يعرف شيئا أفضل، حين رأيتُ بصيصًا من النور عن بعد، أدركْتُه بالكاد، ترنحْتُ باتجاهه، بوعي لا يزيد عن وعي فراشة تتجه إلى شمعة، اعتبرْته حلما في الغالب، وهمًا تعرضه أمامي ظلال الموت، ومع ذلك حافظْتُ عليه أمامي طوال الوقت، أحسسْتُ وكأنه سيختفي قبل أن أصل إليه.

لا أتذكر الزحف على سلم المنزل أو الوقوف في الرواق الأمامي، لكنني لا أزال أرى يدي تمتد إلى مقبض الباب، وكان من الخزف الأبيض، وأتذكر دهشتي حين شعرْتُ أن المقبض دار وفُتِح المزلاج، دخلْتُ إلى الردهة وكان كل شيء ساطعًا، يشع بشكل لا يحتمل، فاضطررْتُ إلى غلق عيني، وحين فتحتهما مرة أخرى، كانت هناك امرأة تقف أمامي- امرأة جميلة شعرها أحمر، ترتدي فستانا أبيض طويلا، وعيناها الزرقاوان تتطلعان إليَّ في دهشة وذعر، حتى إنني انفجرْتُ في البكاء تقريبا، لثانية أو اثنتين، تصورت أنها أمي، وحين تذكرْتُ أن أمي ماتت، أدركت أنني مت أنا نفسي وقد مررْتُ للتو عبر بوابات السماء.

قالت المرأة: «انظر إلى نفسك. أيها الولد المسكين، انظر إلى نفسك فقط».

قلْتُ: «سامحيني على تطفلي، يا مدام. اسمي والتر رولي، وعمري تسع سنوات، أعرف أن ذلك قد يبدو غريبًا، لكنني سأكون ممتنا لك إذا قلت لي أين أنا، لدي شعور بأنني في الجنة، وذلك لا يبدو صوابا بالنسبة لي، بعد كل الموبقات التي اقترفْتُها، تصورت دائما أن الأمر سينتهي بي في الجحيم».

قالت المرأة: «أوه يا عزيزي، انظر فقط إلى نفسك، أنت متجمد حتى الموت، تعال إلى قاعة الاستقبال لتتدفأ بجوار المدفأة».

وقبل أن أكرر سؤالي، أخذتني من يدي وقادتني حول الدرج إلى الغرفة الأمامية، وهي تفتح الباب بالضبط، سمعْتُها تقول: «يا عزيزي اخلع عن هذا الصبي ملابسه وأجلسه بجوار المدفأة، سأصعد لآتي ببعض البطاطين».

هكذا عبرْتُ العتبة بنفسي، ودخلْتُ إلى دفء الردهة وكتل من الجليد تتساقط مني وتبدأ الذوبان عند قدمي، كان هناك رجل يجلس إلى طاولة صغيرة في الركن، يتناول القهوة من فنجان صيني رائع، كان أنيقا يرتدي بدلة رمادية فاتحة، وكان شعره ممشطا إلى الخلف دون فرق، يلمع بزيت بريليانتين في نور المصباح الأصفر، كنتُ على وشك أن أقول له شيئا حين تطلع إلي وابتسم، وهناك عرفْتُ على الفور أنني ميت وأنني ذهبْتُ إلى الجحيم مباشرة، من بين كل الصدمات التي تعرضْتُ لها في حياتي، لا شيء يفوق القتل بالصدمة الكهربية في تلك الليلة.

قال الأستاذ: «تعرف الآن أنك ستجدني حيثما ذهبْتَ، مهْما بعدْتَ ستجدني في انتظارك على الطرف الآخر، الأستاذ يهودي في كل مكان يا والت، ومن المستحيل أن تهرب منه».

قلـــتُ: «أنت ملعــون ابن عاهرة، أنت حقير محتـــال. أنت حقيبة زبالة قذرة».

«امسك لسانك يا ولد. هذا منزل مسز ويذرسبون ولن تسمح بأية شتيمة هنا. إذا كنت لا تريد العودة إلى تلك العاصفة، عليك أن تخلع هذه الملابس وتأدب».

رددت عليه: «افعلها، أيها اليهودي القذر، حاول فقط وافعلها».

لكن لم يكن على الأســتاذ أن يفعل شيئا، بعد أن تفوهت بهذا الرد بثانية، شعرْتُ بفيضان من السخونة، دموع مالحة تندفع على وجنتي، أخذْتُ نفَسًـــا عميقًا، جامعًا من الهواء في رئتي بقدر ما أســتطيع، ثم انطلقــت مني صيحة، صرخة من البؤس الخالص الطليق، وهي في طريقها للخروج مني شــعرت ببحة في صوتـــي وغصة في حلقي، وبدأ رأســـي يلف، توقفت عن أخذ نفَس آخر، ثم، وقبل أن أعرف ما يحدث، فقدْتُ الوعي وسقطْتُ على الأرض.

ظللتُ مريضا لوقت طويل، اشتعلت النار في جسمي، والحمى تحـرق أعماقي، بدا أكثرِ وأكثر وكأن عنواني البريدي القادم سـيكون صندوقا خشبيا، قضيتُ الأيام الأولى في منزل مسز ويذرسـبون، ثاويًا في غرفة الضيوف في الـدور العلوي، لكنني لا أتذكر شيئًا من ذلك، ولا أتذكر إعادتي إلى البيت، ولا أي شيء آخر يتعلق بهذه المسـألة حتى مرور عدة أسـابيع. طبقا لما قيل لي، كنت سـأهلك لولا الأم سيو- أو الأم سـيوكس، كما صرت أسميها أخيرًا. كانـت تجلس بجوار سـريري على مدار السـاعة، تغيـر الكمادات وتصب ملاعق السـوائل في حلقي، وثلاث مرات يوميا تنهض من مقعدها وتقوم برقصة حول سريري، تصدر إيقاعًا معينا على طبلة وهي تنشـد ابتهالات «للروح العظيمة»، متوسلة إليها أن تنظر إليَّ بعطف وتجعلني في حالة جيدة مرة أخرى، لا أفترض أنها أضرت بالقضيــة، لأنه لم يتـم حتى اسـتدعاء طبيب محتـرف ليفحصني، ونظرًا إلى أنني تحسـنت وشـفيت تمامًا، فمن المحتمل أن ذلك كان نتيجة لسحرها.

ولم يعطِ أحد قط اسمًا طبيا لعلتي، كان تفكيري أنها نتيجة للساعات التي قضيتها في العاصفة، لكن الأسـتاذ رفض هذا التفسـير لأنه ليس هناك ما يدعمه، قال: إنه «ألم الكينونة»، وكان لابد أن يصيبني آجلا أو عاجلا، كان يجب إزالة السـموم من جسمي قبل أن أتقدم إلى المستوى التالي من تدريبي، وما كان يمكن أن يستمر لستة شهور أو تسعة شهور أخرى (مع مناوشـات لا تحصى بيننا) اختصرته مقابلتنا في ويتشـيتا، قال: إنني استسلمت للخضوع، مهشما بمعرفة أنني لا يمكن أن أنتصر عليه، وكانت هذه الصدمة الذهنية الشرارة التي أطلقت العلة، بعد ذلك، تطهرت من الحقد، وحين اسـتيقظتُ من كابـوس اقترابي من الموت، تحولت الكراهية الملتهبة داخلي إلى حب.

لا أريد أن أعارض رأى الأستاذ، لكن يبدو لي أن تحولي كان أبسط من ذلك بكثير، ربما بدأ بعد شفائي من الحمى مباشرة، حين استيقظتُ ورأيت الأم سيوكس تجلس بجواري وعلى وجهها ابتسامة من تلك الابتسامات المنتشية السعيدة، وقالت: «رائع، عاد وُلْنَتْ[١] الصغير إلى أرض الحياة». وكان في صوتها تلك البهجة، والاهتمام بتحسني، حتى إن شيئًا ما بداخلي بدأ يذوب، قلْتُ وأنا أدرك ما أقول بالكاد: «لا توجد مشكلة، أيتها الأم، ما زلْتُ في غفوة تامة». أغلقْتُ عيني على الفور وغرقت مرة أخرى في سباتي، لكن بالضبط وأنا أنعس شعرْتُ بوضوح بشفتي الأم سيوكس على خدي، وكانت أول قبلة يقبلها لي أحد منذ موت أمي، وقد جلبت ومضة من الدفء والترحيب، أدركْتُ أنني لا أبالي بمصدرها، إذا أرادت تلك المرأة الهندية البدينة أن تمسني بهذه الطريقة، ما كنت لأقف في طريقها.

أظن أنها كانت الخطوة الأولى، لكن كانت هناك حوادث أخرى أيضًا، ليس أقلها شأنًا ما حدث بعد ذلك ببضعة أيام، حين ارتفعت الحمى مرة أخرى، استيقظت بعد الظهر مباشرة لأجد الغرفة خاوية، وكنت على وشك الزحف من سريري محاولاً استخدام قصرية الغرفة[٢]، لكن بمجرد أن رفعت أذني عن الوسادة، سمعْتُ همسًا خارج غرفتي. كان الأستاذ يهودي وأيسوب يقفان في الردهة منهمكين في محادثة بصوت مكتوم، ورغم أنني لم أتبين كل ما يقولان، سمعْتُ ما يكفي لأحدد الخلاصة. كان أيسوب في الخارج يوبخ الأستاذ، يقف في وجه الرجل الكبير ويطلب منه ألا يكون

(١) وُلْنَتْ Walnut: من الواضح أنه تحريف لاسم والتر Walter.

(٢) قصرية الغرفة: إناء كان يوضع تحت السرير ويستخدم باعتباره تواليت أثناء الليل أو المرض.

بكل هذه القسوة معي، لم أصدق ما أسمع، بعد كل ما سببته له من إزعاج ووجهته له من بغض، شعرتُ بخجل من نفسي حين علمْتُ أن أيسوب في صفي، همس: «حطمت روحه، والآن يرقد بالداخل على فراش الموت، ليس عدلاً يا أستاذ، أعرف أنه مزعج ووغد، لكن في قلبه ما يتجاوز التمرد، شعرْتُ بذلك، رأيْتُه بعيني، وحتى لو كنْتُ مخطئًا يبقى أنه لا يستحق هذه المعاملة التي عاملْتَه بها، لا أحد يستحق هذه المعاملة».

بدا رائعًا أن أجد شخصًا يدافع عني بهذه الطريقة، لكن الأكثر روعة أن خطبة أيسوب لم تقع على أذن صماء، في تلك الليلة ذاتها، وأنا أتقلب في الظلام، زحف الأستاذ يهودي بنفسه إلى غرفتي، وجلس على السرير المشبع بالعرق، وأخذ يدي في يده، أبقيْتُ عيني مغلقتين ولم أصدرْ صوتا، متظاهرا بالنوم طوال فترة وجوده، قال برقة كما لو كان يتحدث إلى نفسه: «لا تمتْ يا والت، أنت فتى صغير متين، ولم يحن الوقت لتسلم الروح، لا يزال أمامنا أمور عظيمة، أمور رائعة لا تستطيع حتى أن تتخيلها، قد تظن إنني ضدك، لكنني لسْتُ ضدك؛ إنني فقط أعرف حقيقتك، وأعرف أنك تستطيع أن تتحمل الضغط، أنت موهوب يا بني، وسآخذك أبعد مما ذهب أي شخص من قبل، تسمعني يا والت؟ أطلب منك ألا تموت، أقول لك إني أحتاج إليك ولا ينبغي أن تموت وأنت تحت رعايتي».

سمعْتُه تمامًا، كان صوته يأتيني عاليًا وواضحًا، وكان يغري بأن أرد بشيء ما، لكنني تغلبْتُ على الرغبة الملحة وأمسكْتُ لساني، حل بعد ذلك صمت طويل. جلس الأستاذ يهودي في الظلام يربت على يدي، وبعد برهة، إذا لم أكن مخطئًا، إذا لم أكن قد نعسْتُ وحلمْتُ بما

حدث بعد ذلك، سمعْتُ، أو على الأقل ظننْتُ أنني سمعْتُ، سلسلة من التنهد المتقطع، قعقعة لا يمكن تمييزها غالبا، تخرج من صدر رجل كبير وتخترق هدوء الغرفة- مرة واثنتين وعشر مرات.

لـن يكون من قبيـل المبالغة أن أقول: إنني تخليْتُ عن شـكوكي كلها في الحال، لكن موقفي بدأ يتغير دون شـك، عرفْتُ أن الهروب حماقة، وأنني باق شئْتُ أم أبيْتُ، وقررْتُ تحقيق أقصى استفادة من وضعـي، ربما كان لاقترابي من المـوت علاقة بالأمر، لا أعرف، لكن بمجرد نهوضي من سـرير المرض والوقوف مرة أخرى على قدمي، لم أعد في الوضع السـيئ الذي كنت فيه، سعدْتُ جدا بتحسن حالتـي مرة أخـرى، ولم يعد يزعجنـي أنني أعيش مـع المنبوذين فـي الدنيا، كانوا غرباء، وبغضاء جدًا، لكن رغم تذمري المسـتمر وسلوكي السيئ، تعاطف كل منهم معي بطريقته، وكنت أحمق حين تجاهلـت ذلـك، ربما تبخـر كل ذلك لدرجة أنني اعتـدْتُ عليهم في النهاية، إذا نظرْتَ إلى وجه شخص وقتًا كافيًا، تشعر في النهاية أنك تنظر إلى نفسك.

بكل ما قلت، لا أقصد أن يتضمن أن حياتي صارت أسـهل بحال من الأحوال، على المدى القصير، ثبت أنها ربما أكثر قسوة من قبل، ولمجرد أنني خنقْتُ مقاومتي إلى حد ما، لم يجعلني ذلك أقل غرورًا بحال من الأحوال، صبيا صغيرًا أقل مشاكسـة مما كنت دائما. حل الربيع علينا، وخلال أسـبوع من شفائي خرجْتُ إلى الحقول أحرث الأرض وأغرس البذور، كاسـرًا ظهري مثل ريفي أبله حقير، مقْتُ العمـل اليـدوي، ونظـرًا إلى أنني لـم يكن لي مقدرة عليـه إطلاقًا، تطلعْـتُ إلى تلك الأيـام باعتبارها تكفيـرًا، حكمًا قاسـيًا لا ينتهي، أصابـع اليدين دامية، وأصابـع القدمين مقطوعـة، لكن على الأقل

لم أكن هناك وحدي. عملنا نحن الأربعة معًا لشهر تقريبًا، معلقين كل الأعمال الأخرى ونحن نسرع لنغرس البذور في الوقت المحدد (الذرة، القمح، الشوفان، البرسيم) ونعد التربة لحديقة خضروات الأم سيوكس، مما يحافظ على بطوننا ممتلئة خلال الصيف، كان العمل شاقًا جدا بالنسبةِ لنا بدرجة تحول بيننا وبين التوقف والثرثرة، لكن كان لدي جمهور أبثه شكاوي، ووقتما كنت أندفع جانبيًا إلى أحد تعليقاتي اللاذعة، أنجح دائما في انتزاع الضحكة من شخص ما، كان ذلك اختلافًا كبيرًا بين ما كنت عليه قبل المرض وبعده، لم يتوقف فمي قط عن العمل، لكن بينما كانت تعليقاتي من قبل تأتي لاذعة ووحشية وكريهة، صارت تأتي باعتبارها دعابات، ثرثرة لا تتوقف من بهلوان صغير ماهر.

عمل الأستاذ يهودي بجد مثل ثور، منهمكا في مهامه وكأنه وُلِد للأرض، ولم يفشل قط في إنجاز أكثر مما ينجزه بقيتنا مجتمعين، وكانت الأم سيوكس ثابتة، ومجتهدة، وصامتة، تتقدم في انحناءة مستمرة ومؤخرتها الممتلئة تتجه إلى السماء، إنها تنحدر من جنس صيادين ومحاربين، وكانت الزراعة غريبة عليها بقدر غربتها عليَّ. ومع هذا الشكل السيئ الذي كنت عليه كان وضع أيسوب أسوأ، وأراحني أن أعرف أنه لم يكن أقل حماسا مني بشأن ضياع وقته في ذلك العمل الشاق. كان يريد أن يكون في البيت يقرأ كتبه، ويحلم ويفكر، وبينما لم يواجه الأستاذ قط بشكواه، كان يستجيب بشكل خاص للغوي، مقاطعا نوبات نزواتي بقهقهات تلقائية، وكلما ضحك يبدو وكأنه يزفر «آمين» بصوت مرتفع، يطمئنني بأنني أصبت الهدف بدقة. كنت دائما أرى أيسوب هادما للذة، لذيذا وغير مؤذٍ، لم يخرق القواعد قط، لكن بعد الاستماع لضحكته في تلك

الحقــول بدأت أكوِّن رأيا مختلفا عنه، في تلك العظام المشــوَّهة من الطيب أكثر مما تخيلْتُ، ورغم جديته وأساليبه المغرورة، كان على حافــة المرح مثل أي صبي آخر في الخامســة عشــرة، ما فعلتُه هو أنني قدمت له بعض التنفيس الكوميدي. داعبه لســاني الحاد، حسنتْ وقاحتــي وحيلي من روحه المعنوية، وبمــرور الوقت فهمْتُ أنه لم يعد مزعِجًا أو منافسًا، صار صديقا- أول صديق حقيقي في حياتي.

لا أقصد أن أبالغ في العاطفي، لكنني أتحدث عن طفولتي، بطانة ذكرياتــي الأولــى، ومع ارتباطات قليلة جدا عنــد الحديث عنها بعد سنوات، تســتحق صداقتي مع أيســوب الذكر، بقدر ما فعل الأستاذ يهودي نفسه، أثر في بطرق بدلتني، غيرت سياق حياتي وجوهرها. لا أشــير فقط إلى تعصبي، الســحر القديم عن عدم النظر بتعال إلى لون بشرة شخص، لكن إلى حقيقة الصداقة نفسها، إلى الرابطة التي نشأت بيننا. صار أيسوب رفيقي، مرساتي في بحر السماء الواحدة، ودون تشجيعه، ما كنت لأجد الشجاعة قط على مقاومة العذاب الذي حاصرني على مدى الشــهور الاثني عشر أو الأربعة عشر التالية، بكى الأســتاذ في ظلام غرفتــي أثناء المرض، لكن بمجرد تحســن حالتي مرة أخرى، تحول إلى قائدِ عبدٍ، معرضا روحي لآلام مبرحة لا تحتملهــا روح حية، حين أنظر إلى تلك الأيام الآن، أتعجب لأنني لم أمت، وأنني ما زلت هنا لأتحدث عنها.

بمجــرد انتهاء موســم الغــرس ووضع غذائنا فــي الأرض، بدأ العمــل الحقيقــي، كان ذلك بعد عيد ميلادي العاشــر مباشــرة، ذات صباح رائع في نهاية مايو، دفعني الأستاذ جانبا بعد الفطور وهمس في أذني: «استعد يا ولد، المدهش على وشك أن يبدأ».

قلْتُ: «تقصد أننا لم نكن نفعل شيئا مدهشًا؟ صحح لي إذا كنتُ مخطئا، لكنني اعتقدت أن مجموعة الأربعة إتش[1] كانت على وشك أن تقدم أكثر التجارب إثارة للدهشة منذ آخر مرة لعبْتُ فيها الداما الصينية»[2].

«العمل في الأرض كان أحد الأشياء، مهمة غبية لكنها ضرورية، لكننا سنبدأ الآن نحول تفكيرنا إلى السماء».

«تقصد مثل الطيور كما أخبرتني من قبل؟»

«نعم، يا والت، مثل الطيور بالضبط».

«تقول لي إنك لا تزال جادًا بشأن تلك الخطة؟»

«جادًا تمامًا. إننا على وشك أن نتقدم إلى المرحلة الثالثة عشرة، إذا فعلْتَ ما أطلبه منك، سوف تكون محلقا في الجو بعد عام من الكريسماس القادم».

«المرحلة الثالثة عشرة؟ تقصد أنني مررت باثنتي عشرة مرحلة؟»

«صحيح، مررت باثنتي عشرة. وقد مررْتَ بكل منها بيسر تام».

---

(١) الأربعة إتش: منظمة للشباب في أمريكا مهمتها مساعدة الشباب للوصول إلى أعلى قدرة. ويمثل الاسم المناطق الأربعة التي تركز عليها المنظمة: الرأس head، والقلب heart، واليدان hands، والصحة health.

(٢) الداما الصينية: لعبة يحاول فيها كل لاعب نقل مجموعة من الحجارة مرصوصة في حفر من نقطة على نجمة سداسية إلى النقطة المقابلة.

«حسنا، نزعت لوزتي، ولم أشعر قط، كنت ترفض أن تخبرني، يا ريس».

«أخبرك فقط بما تحتاج إلى أن تعرفه، البقية من اختصاصي».

«اثنتا عشرة مرحلة، يوه؟ وكم تبقى؟»

«كلها ثلاث وثلاثون».

«إذا اجتزْتُ المراحل الاثنتي عشرة التالية بالسهولة التي اجتزْتُ بها سابقتها، فسوف نكون بالفعل في المراحل الأخيرة».

«لن تجتازها بسهولة، أعدك، مهما ظننْتَ أنك عانيْتَ، فهي معاناة لا تمثل شيئا مقارنة بما ينتظرك».

«الطيور لا تعاني، إنها تفرد أجنحتها فقط وتحلق في الفضاء، إذا كنْتُ موهوبا كما تقول، لا أعرف لماذا لا يكون الأمر سهلا».

«لأنك، يا صغيري، لسْتَ طائرا، علينا لنرفعك عن الأرض، أن نشق السماوات نصفين، علينا أن نقلب العالم كله رأسا على عقب».

مرة أخرى، لم أفهم عُشر ما قاله الأستاذ، لكنني أومأْتُ براسي حين دعاني رجلاً، وشعرْتُ بأن تلك الكلمة نبرة جديدة من نبرات التقدير، اعتراف بالأهمية المفترضة لي في عينيه، ووضع يده برقة على كتفي وأخذني إلى الخارج في صباح يوم من أيام مايو، لم أشعر في تلك اللحظة إلا بالثقة تجاهه، ورغم أن وجهه كان يحمل تعبيرًا عميقًا متجهما، لم يمر بخاطري قط أنه قد يكسر تلك الثقة، ربما هذا ما شعر به إسحاق حين أخذه إبراهيم على ذلك الجبل في سفر التكوين، الإصحاح الثاني والعشرين. إذا قال لك رجل:

إنــه أبوك، حتى لو كنــت تعرف أنه ليس أبــاك، تتخلى عن حذرك وتتخلـص من كل الغباء الذي بداخلك. لا تتخيلُ أنه يتآمر ضدك مع الرب، إله الملكوت، لا يعمل دماغ الصبي بهذه السرعة؛ ليس بارعًا بمــا يكفــي لفهم تلك الحيلة، كل ما تعرفــه أن رِجلاً كبيرًا وضع يده على كتفك وضغط عليها بود. إنه يقول لك تعالَ معي، فتسـتدير إلى ذلكِ الاتجاه وتتبعه إلى حيث يمضـي.

خرجنا مِن الزريبة إلى سـقيفة المعـدات، بناية صغيرة متداعية بسـقف متدلٍ وجدران من ألـواح باهتة غير مدهونـة، فتح الأسـتاذ يهـودي البــاب ووقف صامتا لبرهة طويلة، محدقا في كتلة سـوداء من الأشياء المعدنية الموجودة في الداخل، في النهاية مد يده وسحب جاروفا، شيئًا ثقيلاً صدئا لابد أنه يزن خمسة عشر رطلاً أو عشرين، وضع الجاروف في يدي، وشعرْتُ بالزهو لأنني أحمله عنه بمجرد أن بدأنا السـير مـرة أخرى، مررنا على حافة حقـل الذرة القريب، وأتذكـر أنه كان صباحًــا رائعًا، حافلاً بطيور أبــي الحناء المندفعة والعصافير الزرقاء، وشــعرْتُ بتنميل في جلدي مع إحساس غريب بالحيوية، نعمة دفء الشــمس وهي تتدفق عليَّ، وصلنا تدريجيا إلى رقعــة غير محروثة مــن الأرض، بقعة جرداء عنــد ملتقى حقلين، واســتدار الأســتاذ إليَّ وقال: «هنا نضع الحفرة، هل تحب أن تقوم بالحفر أم تتركه لي».

فعلْـتُ أقصى ما أسـتطيع، لكن ذراعيّ لم تكونــا مؤهلتين لذلك العمــل، كنْتُ أصغر من أن أسـتخدم جاروفا بهذا الثقل، وحين رأى الأستاذ أنني أكافح لمجرد أن أخترق التربة، ناهيك عن دس النصل تحتهــا، طلــب مني أن أجلس وأسـتريح، وقال: إنه سـينهي المهمة

بنفســه، شاهدْتُه على مدار الساعتين التاليتين وهو يحول تلك الرقعة مـنِ الأرض إلى تجويف هائل، حفرة باتســاع قبــر ضخم وعمقه، عملَ بســرعة حتى بدا الأمر وكأن الأرض تبتلعه، وبمرور الوقت غاص بحيث لم أعد أرى راسه. كنت أسمع الهمهمة، صوت حركة التنفس الســريع الذي يصاحــب كل ضربة جاروف، ليأتي وابل من التراب غير المتماسك مندفعًا إلى السطح، معلَّقًا لثانية وسط الهواء، ثم يســقط على كومة تكبر حول الحفرة. واصل وكأن هناك عشــرة منه، جيش من الحفارين عازمين على حفر نفق إلى أستراليا، وحين توقــف في النهاية وخرج من الحفـرة، كان ملطخا بالقذارة والعرق حتى إنه بدا مثل رجل من الفحم، ممثل مســرحي منهك على وشــك أن يموت بمكياجه الأسود، لم أر قط أحدًا مصبوغا بهذا الشكل، ولم أشــاهد قط شــخصًا حُرِم من التنفس بهذا الشكل، وحين ارتمى على الأرض لم يتحرك لعشــر دقائق، وشعرت بشكل مؤكد أن قلبه على وشك أن يتوقف.

رُوِّعْتُ بدرجة أخرستني، ركزتُ على القفص الصدري للأستاذ بحثــا عن علامــات الانهيار، متنقــلا بين البهجة والأســى وصدره يصعــد ويهبط، يصعد ويهبــط، ينتفخ ويتقلص أمــام الأفق الأزرق الطويل، في منتصف مراقبتي، تجولت سحابة أمام الشمس وصارت السماء مظلمة بشكل ينذر بسوء، ظننْتُ أن ملاك الموت يمر فوقنا، لكن رئتي الأستاذ يهودي ظلتا تتحركان والهواء يسطع ببطء، وبعد لحظة جلس وابتسم، وأخذ بلهفة ينظف وجهه من التراب.

قال: «حسنا، ما رأيك في حفرتنا؟»

قلْتُ: «إنها حفرة كبيرة، حفرة عميقة ورائعة لا نظير لها».

«يسعدني أنها أعجبتَك، لأنك وتلك الحفرة ستكونان على علاقة وثيقة على مدار الساعات الأربع والعشرين التالية».

«لا أبالي، تبدو لي مكانا رائعا، مادام المطر لا يتساقط، قد يكون من الممتع أن أمكث فيها بعض الوقت».

«لا مبرر للقلق بشأن المطر يا والت».

«هل أنت من رجال الأرصاد أو شيء من هذا القبيل؟ ربما لم تلاحظ، لكن الأحوال هنا تتبدل كل خمس عشرة دقيقة، حين يتعلق الأمر بالطقس، هذا المكان من كانساس متقلب دائما».

«صحيح جدا، لا يمكن التكهن بأحوال السماء في هذه البقاع، لكنني لا أقول إنها لن تمطر، قلْتُ فقط لا تقلق بشأن ذلك».

«بالتأكيد، أعطِني غطاء، أو قطعة البلاستيك، تفكير طيب، لا تخطئُ حين تخطط للأسوأ».

«لا أضعك هناك للمتعة والمزاح، سيكون هناك ثقب تتنفس منه بالطبع، أنبوبة طويلة تحتفظ بها في فمك لتتنفس منها، وباستثناء ذلك ستكون الحفرة رطبة ومزعجة. إنه نوع من الإزعاج المتدرج الوضيع، إذا سامحْتَني على هذا التعبير، أشك في أن تنسى التجربة طوال حياتك».

«أعرف أنني غبي، لكنك إذا لم تكف عن الكلام بالألغاز، سنقضي اليوم كله هنا قبل أن أنزل في حفرتك».

«سأدفنك يا بني».

«ماذا تقول؟»

«سأضعك في هذه الحفرة، وأغطيك بالتراب، وأدفنك حيًا».

«وتتوقع أن أوافق على ذلك؟»

«ليس أمامك من اختيار، تنزل إليها بإرادتك، أو أكتفك بيدي الاثنتين، بطريقة تحيي حياة طويلة مزدهرة؛ وبالطريقة الأخرى، تنهي حياتك في ثلاثين ثانية».

وهكذا تركته يدفنني حيًا- خبرة لا أنصح أحدا بها. تبدو الفكرة بغيضة، والتنفيذ أسوأ بكثير، وبمجرد أن تقضي بعض الوقت في أحشاء حفرة كما فعلْتُ ذلك اليوم، لا يمكن أن يبدو لك العالم كما كان مرة أخرى أبدًا، يصبح أجمل بشكل لا يوصف، لكن ذلك الجمال ينقع في ضوء مؤقت جدا، زائف جدا، لا يتجسد أبدًا، ورغم أنك تراه وتلمسه كما فعلْتَ دائمًا، يفهم جزء منك أنه ليس سوى سراب، الإحساس بالتراب عليك شيء، وضغطه وبرودته، هلع التخشب الذي يشبه الموت، لكن الفزع الحقيقي لا يبدأ إلا حين تخرج من تحت التراب وتقف وتمشي مرة أخرى، منذ تلك اللحظة، يرتبط كل ما يحدث لك على السطح بتلك الساعات التي قضيْتَها تحت الأرض، غُرِستْ بذرة صغيرة من الجنون في رأسك، ورغم أنك كسبْتَ معركةَ النجاة، فإنك فقدْتَ كل شيء آخر تقريبًا. يعيش الموت بداخلك، ينخر في براءتك وأملك، وفي النهاية تُترَك دون أي شيء سوى التراب، صلابة التراب، القوة الدائمة للتراب وانتصاره.

هكذا بدأتْ بدايتي، على مدى الأسابيع والشهور التي تلت ذلك، مررت بتجارب أخرى مماثلة، سيل متواصل من الظلم، كل اختبار

أفظع من سابقه، وإذا تمكنت من ألا أستسلم، فقد كان ذلك نتيجة عناد غريـب تمامًـا، وهو أمر سلبي أحمق بقى في مكان مـا من أعماق روحـي، لم يكن الأمـر يتعلق بالإرادة أو التصميم أو الشـجاعة، لم أكـن أتمتع بأيٍ من هذه الخِصائص، وكلمـا دُفِعْتُ أكثر، قل زهوي بإنجازاتي. جُلِدْتُ بسوط؛ ألقي بي من على حصان يعدو؛ رُبِطْتُ في سقف الزريبة دون طعام أو ماء؛ لطخْتُ بشرتي بعسل ووقفْتُ عاريا في حر أغسـطس ليحتشـد ألف ذبابة ودبور فوقي؛ جلسْتُ في دائرة من النار ليلة كاملة وأصيب جسـمي بقروح؛ غُمِرْتُ بشـكل متكرر لمدة سـت سـاعات في حوض ممتلئ بالخل؛ صُعِقْتُ؛ شـربْتُ بول بقر وأكلْـتُ روث أحصنة؛ تناولْتُ سـكينًا وقطعْتُ المفصل العلوي لخنصري الأيسر؛ عُلِّقْتُ ثلاثة أيام وثلاث ليال في شرنقة من الحبال في عوارض السـندرة. فعلْتُ هذه الأشـياء لأن الأستاذ يهودي طلب مني أن أفعلها، وإذا لم أسـتطع أن أحمل نفسـي على حبه، لم أكرهه أو أسـتاء منه نتيجة المعاناة التـي تحمَّلْتُها، كف عن تهديدي، اتبعْتُ أوامره بطاعة عمياء، ولم أبال بهدفه، طلب أن أقفز، فقفزْتُ، وطلب أن أتوقف عن التنفس، فتوقفت عن التنفس، كان الرجل الذي وعد بأن يجعلني أطير، ورغم أنني لم أصدقه قط، تركته يسـتخدمني وكأنني أصدقـه. كانت بيننا صفقة رغم كل شـيء، الاتفاق الذي أبرمناه في تلك الليلة الأولى في سـانت لويس، ولم أنسَـه قط، إذا لم يفِ بوعده بحلول عيد ميلادي الثالث عشر، قطعْتُ رأسه بفأس، لم يكن في ذلك الترتيب شـيء شـخصي- كان مسألة عدالة ببسـاطة، إذا خذلني ابن العاهرة قتلته، وكان يعرف ذلك مثلما كنت أعرفه.

بينما اسـتمرت هذه المحن، التصق بي أيسـوب والأم سـيوكس كأننـي من لحمهمـا ودمائهما، حبيـب قلبيهما، كانـت هناك فترات

استجمام بين المراحل المختلفة من تطوري، تستمر أيامًا أحيانًا، وأحيانًا أسابيع، حيث كان الأستاذ يهودي يختفي غالبًا، يغادر المزرعة تمامًا وجروحي تندمل وأشفى لأواجه الاعتداء التالي المذهل على شخصي، لا أعرف إلى أين كان يمضي في تلك الوقفات، ولم أسأل الآخرين عنها، حيث إنني كنت أشعر بارتياح دائما حين يغيب. لا أنجو فقط من مزيد من المحاولات، لكنني أتحرر من عبء وجود الأستاذ- صمته الكئيب ونظراته المعذبة، بشاعة الفضاء الذي يحتله- وكان ذلك وحده يطمئنني، ويمنحني الفرصة لأتنفس مرة أخرى، كان المنزل من دونه أكثر سعادة، حيث نعيش نحن الثلاثة في انسجام ملحوظ، الأم سيوكس البدينة وولداها الهزيلان. في تلك الأيام التي صرت أنا وأيسوب رفيقين، وبقدر ما كان ذلك الوقت تعيسا بالنسبة لي، إلا إنني أحتفظ ببعض الذكريات الطيبة عنه، ربما أفضل الذكريات على الإطلاق. كان أيسوب شخصًا رائعًا في حكي القصص، ولم أحب شيئا بقدر حبي إلى الاستماع إلى ذلك الصوت الرخيم وهو يستطرد في حكي الحكايات الغريبة التي تحشو رأسه، كان يعرف المئات منها، ووقتما أطلب منه، وأنا أستلقي على سريري ممتلئا بالكدمات والقروح من المصيبة الأخيرة، يجلس لساعات يروي قصة بعد أخرى. «جاك القاتل العملاق»، «سندباد البحار»، «عوليس الجوال»، «الطفل بيلي»، «لَنسِلوت والملك آرثر»، «بول بَنْيَان»- استمعْتُ إليها كلها، ومع ذلك كان يدخر أجمل القصص للأوقات التي أشعر فيها باكتئاب شديد، كانت عن شخص يحمل اسمي، سير والتر رالي[1]. أتذكر مدى صدمتي حين أخبرني بأن اسمي مشهور، اسم بطل ومغامر حقيقي، وليبرهن على أنه لم يكن يلفقها، ذهب أيسوب إلى رف

(١) سير والتر رالي (١٥٥٤-١٦١٨): شاعر وكاتب ومستكشف ومستعمر بريطاني، حكم عليه بالإعدام.

الكتب وسـحب مجلدًا ضخمًا فيه صورة سير والتر، لم أر قط وجهًا بهـذه الروعة، وبسـرعة اعتـذتُ أن أتأملها عشـر دقائق أو خمس عشرة دقيقة يوميا. أحببْتُ لحيته المدببة وعينيه الحادتين جدا، الحلق اللؤلـؤ المثبت في أذنه اليسـرى، كان وجـه قرصان، فارس أصيل متهـور، ومنذ ذلك اليوم حملت سـير والتر بداخلي ذاتًـا ثانيةً، أخًا خفيًا يقف معي في السـراء والضراء. حكى أيسوب قصص العباءة والوحـل، البحث عن الدورادو، المسـتعمرة الضائعة في روانوك، ثلاثة عشـر عاما في برج لندن، الكلمات الجريئة التي نطق بها عن قطع رأسـه. كان أفضل شعراء عصره؛ كان أديبا، وعالما، ومفكرا حرا؛ كان الحبيب الأول للنساء في إنجلترا كلها. قال أيسوب: «فكرْ فينا معًا أنا وأنت، لتبدأ تكوين فكرة عنه. رجل بأفكاري وأحشـائك، طويل وأنيق أيضًا- ذلك هو السـير والتر رالي، أكمل رجل عرفته الحياة على الإطلاق».

كل يـوم كانت الأم سـيوكس تدخل غرفتـي وتغطيني، وتجلس بجـواري حتـى أنام مهما اسـتغرق الأمـر، بدأتُ أعتمـد على هذا الطقـس، ورغـم أنني كنت أنمو بسـرعة وصلابة فـي كل الأمور الأخرى، كانت تراني طفلا. لم أسمح لنفسي بالبكاء قط أمام الأستاذ يهودي أو أيسوب، لكنني أرقت الدموع مع الأم سيوكس في مواقف لا تحصـى، منتحبًـا بين ذراعيها مثل طفل بائـس بين ذراعي أمه. أتذكرُ أن الأمر وصل بي ذات مرة إلى حد تناول موضوع الطيران، وكان مـا قالته غير متوقـع، كان رزينا جدا في تأكيده، حتى إنه هدَّأ الاضطراب داخلي لأسابيع- ليس لأنني صدقته أنا نفسي، لكن لأنـها صدقته، وكانت أكثر شخص أثق به في العالم.

قلْتُ في إشــارة إلى الأستاذ: «إنه رجل شــرير، وبانتهاء الوقت الذي أقضيه معه، سأكون محنيًا وكسيحًا مثل أيسوب».

«لا يــا بنــي، الأمر ليس كذلك، ســوف ترقص مع الســحب في السماء».

«بقيثارة في يدي وجناحين ينبثقان من ظهري».

«في جلدك، في لحمك وعظامك».

«إنهــا خدعــة أيتهــا الأم ســيوكس، حزمــة مثيــرة للغثيان من الأكاذيــب، إذا كان يســعى إلى تعليمــي ما يقول، فلمــاذا لا يركز، ويفعــل ذلك؟ على مدار عام كامل، عانيْتُ مــن كل أنواع الإهانات التي يعرفها الإنســان؛ دُفِنْتُ، حُرِقْتُ، شُــوِّهت، ومــا زلْتُ ملتصقا بالأرض كما كنْتُ دائما».

«تلــك هــي الخطوات، ينبغــي أن يتم الأمر بهــذه الطريقة، لكن الأسوأ خلفك الآن تقريبًا».

«هكذا خدعك أيضا وجعلك تصدقينه».

«لا أحــد يمكن أن يخدع الأم ســيوكس؛ إنني أكبر وأبدن من أن أبتلــع ما يقوله الناس، الكلمات الزائفة مثل عظام الدجاجة، تقف في حلقي وأبصقها».

«لا يمكــن أن يطيــر الرجال، الأمر بهذه البســاطة، لا يمكن أن يطير الرجال لأن الرب لا يريد أن يطيروا».

«يمكن تحقيق ذلك».

«ربما في عالم آخر، لكن ليس في هذا العالم».

«رأيْتُــه يحــدث، وأنا فتاة صغيرة، رأيتُــه بعيني، وإذا حدث من قبل، يمكن أن يحدث مرة أخرى».

«حلمْتِ به، اعتقدْتِ أنك رأيْتِه، لكنه لم يكن إلا في نومك».

«أبــي يا والت، أبي وأخـــي، رأيْتُهما يتحركان خلال الهواء مثل الأرواح، لــم يكن طيرانًا بالطريقة التــي تتخيلها، ليس مثل الطيور أو الفراشــات، ليس بأجنحة أو شــيء من هذا القبيل، لكنهما ارتفعا فــي الهــواء، وكانا يتحركان، ببطء تام وبشــكل غريب، كما لو كانا يعومان، يشقان طريقهما في الهواء مثل السباحين، مثل أرواح تسير في قاع بحيرة».

«لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟»

«لأنــك ما كنــت لتصدقني من قبل، وهذا مــا يجعلني أخبرك به الآن، لأن الوقت آت، إذا اســتمعْتَ إلى ما يقوله لك الأستاذ، فسوف يأتي بأسرع مما تتخيل».

حين حل الربيع للمرة الثانية، كان العمل في الحقل بمثابة إجازة بالنسبةِ لي، وقد ألقيت بنفسي فيه ببهجة مهوس، مرحبًا بفرصة أن أحيا مثل شخص طبيعي مرة أخرى، بدلاً من التلكؤ والشكوى من أوجاعي وآلامي، اندفعْتُ بأقصى سرعة، مُحمسًا نفسي على الالتزام به، مستمتعا بجهدي، كنْتُ لا أزال ضئيلاً مقارنة بمن في عمري، لكنني كنت أكبرَ وأقوى، وحتى وإن كان مستحيلا، فعلت كل ما أستطيع لأجاري الأستاذ يهودي نفسه، أفترض أنني خرجْتُ لأبرهن على شيء، لأدفعه إلى احترامي، وأجعل الأنظار تلفت إلي. كانت طريقة جديدة للمقاومة، وكلما طلب الأستاذ أن أبطئ، أن أهدأ ولا أندفع بكل هذه الجدية (قد يقول: «ليست بطولة أولمبية، لسنا هنا لننافس على ميداليات يا فتى»)، أشعر وكأنني أحرزُ نصرًا، وكأنني أستعيد السيطرة على روحي تدريجيا.

التأم مفصل خنصري، ما كان يعتبر ذات يوم فوضى رهيبة من نسيج وعظام تحول بشكل لطيف إلى عقب غريب بلا ظفر، كنت أستمتع بالنظر إليه وأمرر إبهامي على الندبة، لامسا جزءًا مني انتهى للأبد. ربما فعلت ذلك خمسين مرة أو مائة مرة في اليوم، وكلما فعلْتُه أستعيد كلمتي «سانت لويس» في رأسي، كنت أكافح لأتشبث بماضي، لكن الكلمات لم تعد إلا كلمات، ممارسة لطقس في الذاكرة، لم تكن تستدعي أية صورة، أو تعيدني إلى حيث كنت، بعد ثمانية عشر شهرًا في سيبولا، تحولت سانت لويس إلى شبحٍ بالنسبة لي، يتلاشى المزيد منها يوميا.

بعد ظهيرة أحد الأيام في ذلك الربيع ارتفعت الحرارة بشكل غير عادي، ووصلت إلى مستويات منتصف الصيف، كنا نحن الأربعة

نعمل في الحقول، وحين خلع الأستاذ قميصه ليشعر بقدر أكبر من الارتياح، رأيْتُ أنه يرتدي شيئا ما حول عنقه: سيرًا جلديا تتدلى منه كرة صغيرة شفافة مثل جوهرة أو حلية، حين اقتربْتُ لأرى بشكل أفضل ـ محض فضول، دون حافز خفي ـ رأيْتُ أنها العقلة المفقودة من خنصري، ملفوفة في حلية مع سائل شفاف، لابد أن الأستاذ لاحظ دهشتي، لأنه نظر إلى صدره بتعبير ينم عن الذعر، وكأنه ظن أن عنكبوتا يزحف عليه، حين عرف الحقيقة، أمسك الكرة بأصابعه وعرضها عليَّ، مبتسما ابتسامة رضا، قائلا: «قطعة صغيرة جميلة، إيه يا والت؟»

قلْتُ: «لا أعرف ما يتعلق بالجمال، لكنها تشبهني بشكل رهيب».

«ينبغي أن تشبهك، كانت تنتمي إليك، كانت جزءا منك في السنوات العشر الأولى من حياتك».

«ولا تزال، مجرد أنها انفصلت عن جسدي لا يعني أنها لم تعد جزءا مني كما كانت من قبل».

«إنها منقوعة في فورملدهايد. محفوظة كما يحفظ جنين ميت في برطمان. لم تعد تنتمي إليك الآن، إنها تنتمي للعلوم».

«نعم، ماذا تفعل إذًا حول رقبتك؟ إذا كانت تنتمي للعلوم، لماذا لا تهبها لمتحف الشمع؟»

«لأن لها معنى خاصا عندي، مختلف، ألبسها لتذكرني بدَيْني لك، مثل سوط الجلاد، هذا الشيء يوقظ ضميري، ولا يمكن أن أتركه يقع في يدي شخص غريب».

«مـــاذا عن يدي إذًا؟ العدل عـــدل، وأنا أريد عقلتي، إذا كان لأي شخص أن يرتدي هذه القلادة، فينبغي أن يكون أنا».

«أعقـد اتفاقا معك، إذا تركتني أحتفظ بها فترة قصيرة، اعتبرْتُها قلادتك، وعد، اسـمك عليهـا، وبمجرد أن أجعلـك تنطلق من على الأرض، يمكن أن تستردها».

«للأبد؟»

«للأبد، بالطبع للأبد».

«وكم تكون هذه 'الفترة القصيرة'؟»

«لن تكون طويلة، تقف على الحافة بالفعل».

«الحافــة الوحيدة التي أقف عليهــا حافة جهنم، وإذا كانت مكاني فهي مكانك أيضًا، أليس كذلك يا أستاذ؟»

«تستوعب الأمر بسرعة يا بني، متحدَين نقف، منقسمَيْن نسقط، أنت لي وأنا لك، ولا أحد يعرف أين نتوقف».

كانت المرة الثانية التي أسـمع فيها أخبارًا مشـجعة عن تقدمي، الأولــى من الأم سـيوكس، والآن من الأسـتاذ نفســه، لا أنكر أنني شـعرت بالزهـو، لكن مـع كل ثقتهما في قدراتي، فشـلْتُ في رؤية اقترابي من النجاح. بعد عصر ذلك اليوم القائظ في مايو، دخلنا فترة مـن الحرارة المرتفعــة، الصيف الأكثر حرارة فــي الذاكرة الحية. كانت الأرض مرجلاً، كلما سرْتَ عليها، تشعر وكأن نعليك يذوبان وينفصلان عن حذائك، صلينا من أجل المطر عند العشــاء كل ليلة، ولثلاثة أشــهر لم تسـقط نقطة واحدة من السـماء، كان الهواء جافًا جــدا، مثيرا للهذيان جدا في جفافه، يمكنك متابعة طنين ذباب الخيل

علـــى بعد مائة ياردة، بدا كل شـــيء مثيـــرًا للأعصاب، مزعجا مثل شـــوكة تحك في سلك شائك، وكانت الرائحة المنبعثة من المرحاض نتنـــة جدا بحيث تحرك الشـــعر في منخاريك. ذبـــل محصول الذرة، وســـقط وجف؛ التـــف الخس إلى أطـــوال خيالية عملاقـــة، واقفًا في الحديقة مثل أبراج متحولة. بحلول منتصف أغســـطس، كان يمكنك أن تســـقط حصاة في بئر وتعد إلى ســـتة قبل أن تسمع طقطقة المياه، لـــم يكن هناك فول أخضر، لم يكن فـــي الكيزان ذرة، ولم تكن هناك طماطـــم بها عصارة مثلما كان في العام الســـابق، اســـتقر بنا الأمر علـــى البيض وفخذ الخنزيـــر المدخن، ورغم أنه كان هناك ما يكفينا في الصيـــف، فإن مخزوننا المتناقص لم يعد يكفي الشـــهور التالية، قد يقول الأســـتاذ على العشاء: «اربطوا أحزمتكم يا أبنائي، اربطوا أحزمتكم وامضغوا حتى يفقد الطعام مذاقه تماما، إذا لم نحافظ على ما لدينا أطول فترة، فسوف نعاني من الجوع في شتاء طويل».

رغم كل المحن التي هاجمتنا أثناء الجفاف، كنْتُ ســـعيدًا، أســـعد بكثيـــر مما بدا ممكنا، توارت معظم الأجزاء الرهيبة لبدايتي، وقفت أمامـــي مراحل كفاحي الذهني، المكاشـــفة بيني وبين نفســـي، لم يعد الأستاذ يهودي عائقًا، كان يصدر أوامره ويختفي من ذهني، يقودني إلى أمكنة باطنية حتى أنســـى نفسي، كانت المراحل الجسدية حربًا، تحديًـــا ضد البشـــاعة التـــي تتولد في جمجمة الأســـتاذ، ولم يبتعد قط عن نظري. كان يراقبني بدقة وهو يتفحص ردود أفعالي، ويشـــاهد وجهي بحثًا عن أية رجفة ميكروســـكوبية من الألم. انتهى ذلك كله، تحول إلى مرشـــد دمث ســـخي، يتحدث بصوت رقيق لغاوٍ يغريني بقبـــول مهمة غريبة بعد أخرى، جعلني أذهب إلى الزريبة وأعد كل قشـــة في طاولة الحصان، جعلني أقف على ســـاق واحدة ليلة كاملة،

ثم أقف على الساق الأخرى الليلة التالية بطولها، ربطني في عمود في شمس منتصف النهار وأمرني بأن أكرر اسمه عشرة آلاف مرة، فرض عليَّ عهدًا من الصمت، ولمدة أربعة وعشرين يوما لم أكلم أحدا، ولم أنبس بصوت حتى وأنا وحدي، جعلني أتدحرج عبر الفناء، جعلني أحجل، جعلني أقفز خلال أطواق، علمني كيف أبكي بإرادتي، ثم علمني كيف أضحك وأبكي في الوقت ذاته، جعلني أتعلم كيف أتلاعب بالأحجار، وبمجرد أن استطعْتُ التلاعب بثلاثة أحجار جعلني أتلاعب بأربعة، عصب عيني أسبوعا، وسد أذني أسبوعًا، وقيد ذراعي وساقي معًا أسبوعًا وجعلني أزحف على بطني مثل دودة.

انكسر الطقس في أوائل سبتمبر، أمطار غزيرة، برق ورعد، رياح عاصفة، إعصار كاد يطيح بالمنزل في طريقه، ارتفعت مستويات المياه مرة أخرى، لكن باستثناء ذلك لم نصبح أحسن حالاً مما كنا، تلفت المحاصيل، ودون أي شيء نضيفه إلى إمداداتنا طويلة المدى، كانت النظرة إلى المستقبل كئيبة، وكنا على حافة الهاوية في أفضل الأحوال. ذكر الأستاذ أن المزارعين في المنطقة كلها تعرضوا لخراب مماثل، وصارت الحالة المزاجية في البلدة بشعة، هبطت الأسعار، وكان الرصيد شحيحًا، وكان الحديث عن حجز البنك على الرهن في الأفق. قال الأستاذ: حين تنضب المحافظ تمتلئ الأدمغة بالغضب والسخام. وواصل: «يمكن لهذه المحافظ أن تتعفن ولا يهمني، لكنهم بعد برهة سيبحثون عن شخص ما يحملونه مسئولية مشاكلهم، وحين يحدث ذلك، نكون نحن الأربعة في حالة أفضل». طوال ذلك الخريف الغريب من العواصف والمستنقعات، بدا الأستاذ يهودي مشتتا نتيجة القلق، كأنه يتأمل كارثة لا توصف،

شـيئا أسود بدرجة تجعله لا يجرؤ على النطق به، بعد تدليلي طوال الصيف، وحتي خلال صرامة تدريباتي الروحية، بدا أنه فقد اهتمامه بي فجأة. تكرر غيابه أكثر، مرة أو اثنتين تلعثم وفاحت رائحة خمر من نفَســه، وتخلى عن كل شـيء إلا جلســاته الدراسية مع أيسوب، زحــف حزن جديد إلــى عينيه، نظرة كآبة ونذير شــرٍّ، بهت معظم ذلك بالنسـبة لي الآن، لكنني أتذكر أنه فــي اللحظات القصيرة التي ينعـم عليَّ فيها بصحبته كان يعمــل بدفــء مدهش، ثمة حادث يبرز من ضباب الذاكرة: ذات مســاء في أوائل أكتوبر وهو يدخل المنزل وتحت ذراعه جريدة وابتســامة عريضة على وجهه، قال لي، وهو يجلــس ويفرد الجريدة على طاولة المطبــخ: «لدي أخبار طيبة لك. فاز فريقك. آمل أن يسعدك هذا، لأنه يقال هنا: إنه لم يصل إلى القمة منذ ثمانية وثلاثين عاما».

قلْتُ: «فريقي؟»

«فريق سانت لويس كاردينال. إنه فريقك، أليس كذلك؟»

«تراهن أنه هو. كنتُ مع فريق ردبيردز حتى النهاية».

«حســنا، فــازوا ببطولة العالم للتــو، طبقا للمنشــور هنا، كانت الجولة السابعة الأكثر إثارة وفتنة».

هكــذا علمْتُ بفوز فريقــي ببطولة ٢٦. قرأ لي الأســتاذ يهودي التعليق على الجولة الســابعة الدرامية، حيــن دخل «جروفر كليفلند ألكســندر» ليرمي ثلاث ضربات إلــى «توني لازيري» ليخرجَ من الملعــب والقواعــد معبأة[١]. فــي الدقائق القليلة الأولــى اعتقدْتُ أنه

(١) جروفــر كليفلنــد ألكســندر (١٨٨٧-١٩٥٠)، توني لازيــري» (١٩٠٣-١٩٤٦): لاعبــا بيســبول أمريكيــان. القواعد معبــأة: تكون القواعــد معبأة في البيسبول حين يوجد عداء في كل قاعدة.

يفبرك الأمر، كان آخر ما سمعْتُه أن ألكسندر لاعب بارز في فريق «فيلي»، وكان لازيرى اسـمًا لا يعني لي شيئا. بدا الأمر مثل كومة مـن المكرونة بصلصة ثوم، لكن الأسـتاذ أخبرنـي أنه لاعب جديد وأن جروفـر انتقـل إلى نـادى كاردينال في منتصف الموسـم. وقد لعب تسع جولات في اليوم السابق مباشرة، مانعًا فريق «يانك» من إحـراز البطولة وكل منهما لا يـزال له ثلاث مباريات، وكان هناك روجرز هورنسـبي[١] يناديه من منطقة الإحماء لينهي السباق تمامًا على الخط. والرجل الكبير يتباطأ، سـكرانًا كظربان من مرح الليلة السـابقة، متنقـلا إلى اللاعب الشـاب لنادي نيويـورك، إذا لم تبتعد بوصتيـن، ربما كانت قصة أخرى، فـي منطقة الرمية قبل الضربة الثالثـة، دفع لازيري ضربة إلى مقاعـد الناحية اليمنى من الملعب، ضربة كبرى مؤكدة من ضربة جزاء في الثانية الأخيرة. كانت كافية لتصيبك بسـكتة دماغية. ثابر ألكسندر في الجولتين الثامنة والتاسعة ليؤكد الفوز، ويحسـم الأمر، وانتهت المبـاراة والبطولة حين طُرِد بيـب روث[٢] السـلطان الوحيـد للضرب العنيف، وهـو يحاول أن يسـرق القاعدة الثانية، لم يكن هناك قط شـيء من هذا القبيل. كانت المباراة الأكثر جنونا واشـتعالاً في التاريخ، وكان فريقي ريدبيردز الأبطال، أفضل فريق في العالم.

كان ذلـك خطًـا فاصلا بالنسـبةِ لـي، حدثًا فارقًا فـي صغري، وباستثناء ذلك كان الخريف امتدادًا كئيبًا، فصلاً إضافيا من الضجر والهـدوء. بمرور بعـض الوقت، صرت قلقًا جدا حتى إنني سـألْتُ

(١) روجرز هورنسبي (١٨٩٦-١٩٦٣): لاعب بيسبول أمريكي.
(٢) بيـب روث (١٨٩٥-١٩٤٨): لاعـب بيسـبول أمريكـي، يلقب بسـلطان الضرب العنيف.

أيسـوب إن لـم يكن لديه مانـع: من يعلمني القراءة؟ كان متحمسـا، لكن كان عليه أن يناقش الأمر مع الأستاذ يهودي أولاً، وحين وافق الأسـتاذ، اعترف بأننـي تأذيت قليلاً، كان يقول دائمًـا: إنه يريد أن يبقيني غبيا- كم كان الغباء مزية فيَّ بتدريبي- والآن مضى بسرور وغيَّر رأيه دون أي تفسـير، لبعض الوقت اعتقدْتُ أن ذلك يعني أنه تخلـى عني، ودب اليأس في قلبي، أسـى مروِّع نسـف كل أحلامي السـاطعة وحولها إلى تراب، سألتُ نفسـي أي خطأ ارتكبْتُ ولماذا تخلى عني، وأنا في أشد الاحتياج إليه؟

وهكذا تعلمْتُ الحروف والأرقام بمسـاعدة أيسوب، وبمجرد أن بـدأتُ، تعلمتها بسـرعة جعلتني أندهش من كل الضجـة التي تثار حولهـا، لـو لم أطر، يمكن على الأقل أن أقنع الأسـتاذ بأنني لسـت غبيـا، لكننـي لم أبـذل إلا مجهـودًا ضئيلاً جدا وبسـرعة بدا الأمر مثـل انتصار أجـوف. توثبت الأرواح حول المنـزل لبعض الوقت فـي نوفمبـر حين انتهى مخزوننـا من الطعام فجـأة، دون أن يخبر الأسـتاذ أحدا أين وجد النقود ليفعل هذا الشـيء، رتب الأمر سـرًا لجلب بضائع معلبة، بدا حدوث الأمر وكأنه معجزة، صاعقة مطلقة من السـماء. وصلت شاحنة إلى بابنا ذات صباح وبدأ رجلان قويان إنزال الكراتين من على ظهرها، كانت هناك مئات الصناديق، وكل صندوق به دستتان من علب الطعام: خضروات من كل نوع، لحوم وحسـاء، حلوى، مشـمش وخوخ محفوظ، كميات لا يمكن تخيلها، استغرق الأمر من الرجلين أكثر من ساعة لنقل الشحنة إلى المنزل، وطوال الوقت اكتفى الأستاذ بالوقوف هناك وذراعاه مطويتان على صدره، مبتسـما ابتسـامة عريضة مثل بومة عجوز ماكرة. حدقت ببلاهـة أنا وأيسـوب، وبعد برهة دعانا إليه ووضـع يدًا على كتفي كل منا، وقال: «لا يمكن أن يكون بجودة طبخ الأم سـيوكس، لكنها

أفضل قليلا من الهريســة، إيه يا ولدي؟ في الأوقات العصيبة نتذكر فقط من نعتمد عليه، مهما يكن ســواد المشــاكل التي نواجهها، أجد دائمًا طريقة للخروج».

انتهــت الأزمة بصرف النظر عن الطريقة التي تغلب بها عليها، امتلأ مخزننا مرة أخرى، ولم نعد نتوقف عن تناول الوجبات ونحن نشــتهي المزيد، ولم نعد نئن مــن صوصوة بطوننا، قد تعتقد أن هذا التحــول نال امتناننا الأبدي، لكن الحقيقــة أننا تعلمنا أن نعتبره أمرا مســلّمًا به، في عشــرة أيام، بدا عاديًا تمامًا أن نــأكل جيدًا، وبنهاية الشــهر كان مــن الصعب أن نتذكــر الأيام التي لم نــأكل فيها جيدا، وهــذا مــا يحدث عادة مع ما نريــد، مادمت تفتقد الشــيء تتوق إليه دون توقف، وتقولٍ لنفسك: لو أنني أستطيع فقط أن أحصل على هذا الشيء فسوف تُحَلّ كل مشاكلي، لكن بمجرد أن تحصل عليه، بمجرد أن يندفــع الشــيء المرغوب إلــى يديك، يفقد فتنتــه. تؤكد الحاجات الأخرى نفســها، تظهر رغبات أخرى، وخطوة خطوة تكتشــف أنك تعــود من حيث بــدأتَ. وهذا مــا كان مع قراءة دروســي؛ وهذا ما كان مــع الوفرة الجديدة التي رصت فــي خزانات المطبخ، اعتقدْتُ أن تلك الأشــياء ســتجعل الأمر مختلفًا، لكنها فــي النهاية لم تكن إلا ظلالاً، رغبات بديلة للشــيء الوحيد الذي أريده أكثر- وهو بدقة ما لا أســتطيع الحصول عليه، أريد أن يحبني الأستاذ مرة أخرى. هذا ما آلت إليه قصة تلك الشهور، كنت جائعا لمشاعر الأستاذ، ولم تكن هنــاك كمية من الطعام يمكن أن تشــبعني، بعد عاميــن، عرفْتُ أن كل ما كنْتُه ينبعث مباشــرة منه، جعلني في خياله، ولم يعد موجودًا بالنسبة لي، لأسباب لم أستطع فهمها شعرْتُ بأنني فقدْتُه إلى الأبد.

لم أفكر قط في مسز ويذرسبون، حتى حين سقط من الأم سيوكس تلميح ذات ليلة بشأن «السيدة الأرملة» صاحبة الأستاذ في ويتشيتا لم أفهم شيئا، كنت متخلفًا بذلك الشأن، في الحادية عشرة أدعي معرفة كل شـــيء ولا أفهم شـــيئًا عما يجري بين المرأة والرجل. افترضْتُ أنها تشـــنجات جسدية متقطعة لشهوة عنيدة، وحين حكى لي أيسوب عن غرس قضيبه في مهبل دافئ وجميل (كان قد بلغ السابعة عشرة للتـــو)، فكـــرْتُ على الفور في العاهرات اللائي عرفتُهن في ســـانت لويس، والنســـاء البدينات البارعات اللائـــي يتبخترن في الأزقة في الثانية صباحًا، يبتذلن أجســـادهن مقابل عملة باردة وجامدة، لم أكن أعـــرف القذارة في حـــب الكبار أو الزواج أو أي شـــيء مما يعرف بالمشـــاعر النبيلة. الزوجان الوحيدان اللذان رأيتهما كانا الخال سليم وزوجتـــه بيـــج، وكان الأمر بينهما يشـــبه اتحادًا وحشـــيًا، مثل نوبة من البصق واللعن والصخب، ربما يولد إحساســـا كنت أجهله تماما. حين كان الأســـتاذ يبتعد، كنت أتصور أنـــه يلعب بوكر في مكان ما أو يتجـــرع زجاجـــة من الخمـــر الرديئة في حانة ســـيبولا. لم يخطر ببالـــي أنه في ويتشـــيتا يغازل ســـيدة من الطبقة العليـــا مثل ماريون ويذرسبون- وتدريجيا يتحطم قلبه في هذه العملية، رأيتها أنا نفسي، لكنني كنت مريضًا ومحمومًا في ذلك الوقت بدرجة تجعلني أتذكرها بالكاد، كانت هلوســـة، شـــيئا مختلقًا وُلِد في آلام الموت، ورغم ذلك كان وجهـــها يومـــض فـــي أعماقي مـــن وقت لآخر، لـــم أصدق أنها حقيقـــة، ظننْتُ أنها أمـــي إذا كانت حقيقة- لكنني كنت مصابًا بالهلع، مروَّعًا لأنني لا أستطيع التعرف على شبح أمي.

تطلب الأمر كارثتين تقريبا ليســـتقيم حالي، في أوائل ديســـمبر، جرح أيســـوب إصبعه وهو يفتح علبة خوخ. بدا وكأنه لا شـــيء في

البداية، خدش بسيط يندمل على الفور، لكن بدلاً من أن يكوِّن قشرة كالمعتاد، تورم وصار انتفاخا مرعبا من الصديد لا يندمل، وفي اليوم الثالث كان أيسوب المسكين يتلوى في السرير وحرارته مرتفعة. ولحسن الحظ أن الأستاذ يهودي عاد إلى البيت، لأنه، بالإضافة إلى مواهبه الأخرى، لديه معرفة كافية بالطب، وحين صعد إلى غرفة أيسوب في صباح اليوم التالي ليرى كيف تسير حالة المريض، خرج بعد دقيقتين وهو يهز رأسه ويزرف دموعا غزيرة. وقال لي: «ليس هناك وقت نضيعه، بدأت الغرغرينة، وإذا لم نتخلص من هذا الإصبع الآن، فمن المحتمل أن تمتد إلى يده وتصل إلى ذراعه. اخرجْ بسرعة واطلب من الأم سيوكس أن تترك ما تفعله وتغلي قدرين من المياه، وسأنزل إلى المطبخ وأسنُّ السكاكين، علينا أن نجري العملية خلال ساعة».

فعلْتُ ما طلب، وبمجرد أن وصلتُ إلى الأم سيوكس في الساحة، عدْتُ إلى المنزل، وصعدت إلى الدور الثاني، وقبعْتُ بجوار صديقي، بدا أيسوب مروِّعًا، تحول بريق سواد بشرته إلى رمادي طباشيري منقط، وكنت أسمع صوت البلغم في صدره ورأسه لا يكف عن الحركة على الوسادة.

قلْتُ: «تماسك يا رفيق، لم يعد إلا القليل، سيعالجك الأستاذ، وبسرعة تكون في الدور الأرضي مرة أخرى عند البيانو، تعبث بإحدى مقطوعاتك الحمقاء».

قال: «والت؟ هل أنت يا والت؟» فتح عينيه المحتقنتين ونظر باتجاه صوتي، وكانت حدقتاه ساكنتين بدرجة جعلتني غير متأكد من أنه يستطيع رؤيتي.

أجبْـتُ: «بالطبع أنا، أي شـخص آخر تظن أنه قد يجلس هنا في مثل هذا الوقت؟».

«سـيقطع إصبعي يا والت، سـأكون مشـوها طول العمر، ولن ترغب في أية فتاة أبدًا».

«أنت مشـوه بالفعل طول الحياة، ولن يمنعك ذلك من الاشـتياق للمهبـل، أليـس كذلك؟ لن يقطـع قضيبك يا أيسـوب. مجرد إصبع، إصبع في يدك اليسـرى، ومادام لم يقطع حمامتك، يمكنك أن تعربد حتى قيام الساعة».

أنَّ: «لا أريـد أن أفقد إصبعـي، إذا فقدْتُ إصبعي فإن ذلك يعني أنه لا يوجد عدل، يعني أن الرب أدار ظهره لي».

«أنا نفسـي ليس لدي إلا تسـع أصابع ونصف، ولا يسـبب ذلك مشـكلة كبيرة لي إطلاقا، بمجرد أن تفقد إصبعك نكون مثل توأمين بالضبط، نكون عضوين مخلصين في نادي الأصابع التسع، أخوين حتى آخر يوم في حياتنا- بالضبط كما يقول الأستاذ باستمرار».

فعلْتُ ما أستطيع لأطمئنه، لكن بمجرد بدء العملية، أُزِحْتُ جانبا ونُسِـيتُ، وقفْتُ في المدخل ويداي على وجهي، ناظرا عبر الشقوق من حين لآخر والأسـتاذ والأم سـيوكس يعملان، لم يكن هناك إثير أو مخدر، وصرخ أيسـوب وصرخ، مصدرًا صخبًا مفزعًا ورهيبًا لـم يهدأ مـن البداية إلـى النهاية، وبقدر أسـفي عليـه دمرتني هذه الصرخات تقريبا، كانت غير إنسانية، وكان الهلع الذي عبرتْ عنه عميقًا جدا وممتدًا، وكان كل ما أسـتطيع ألا أبدأ الصراخ أنا أيضا، واصل الأسـتاذ يهودي مهمته بهدوء طبيب مدرَّب، لكن الصرخات أثرت على الأم سـيوكس بالسـوء الـذي أثرت به علـيَّ. وكان هذا آخـر ما أتوقعه منهـا. اعتقدْتُ دائما أن الهنود يخبئون مشـاعرهم،

وأنهم أكثر شجاعة ورزانة من البيض، لكن الحقيقة أن الأم سيوكس كانت مرتبكة والدم يتدفق وألم أيسوب يتزايد، لهثت ونشجتْ وكأن سكِّينًا شقت لحمها، طلب منها الأستاذ يهودي أن تسيطر على نفسها. اعتذرتْ، لكنها بدأت النشيج مرة أخرى بعد خمس عشرة ثانية، كانت ممرضة مثيرة للشفقة، وبعد برهة أربكتْ توقفاتُها الباكيةُ الأستاذَ فأخرجها من الغرفة، وقال: «نحتاج إلى وعاء آخر من الماء المغلي، أسرعي يا امرأة، جريًا «كان مجرد مبرر للتخلص منها، وهي تندفع بجواري إلى الردهة، دفنت وجهها في يديها وبكت وهي تسير بتهور إلى قمة السلم، رأيت كل ما حدث بعد ذلك بوضوح: الطريقة التي تعثرت بها قدمها في الدرجة الأولى، الطريقة التي التوت بها ركبتها وهي تحاول تصحيح توازنها، ثم السقطة الطائشة على السلم- مسار السقوط المدوي لجسدها الضخم وهي تصطدم بالقاع، سقطت على الأرض بضربة هزت المنزل كله. بعد لحظة انطلقت منها صرخة، ثم قبضت على ساقها اليسرى وبدأتْ تتلوى على الأرضية، قالت لنفسها: «أنت كلبة عجوز غبية. أنت كلبة عجوز غبية فاسقة، انظري الآن ماذا فعلْتِ، سقطْتِ من فوق السلم وكسرْتِ ساقك اللعينة».

خلال الأسبوعين التاليين، كان المنزل كئيبا مثل مستشفى، كان هناك اثنان معتلان يجب تقديم الرعاية لهما، وقضيْتُ أنا والأستاذ أيامنا نندفع على السلم صعودا وهبوطا، نقدم لهما الطعام، ونفرغ قصريتيهما، ونفعل كل شيء لتجفيف فخذيهما طريحي الفراش. كان أيسوب في ذعر من الشفقة على نفسه والغم، والأم سيوكس تمطر نفسها باللعنات من الصباح إلى الليل، ومع الحيوانات التي يجب رعايتها في الزريبة والغرف التي يجب تنظيفها والأسرة التي

يجب ترتيبها والأطباق التي يجب غسلها والموقد لإعداد الطعام، لم تكن هناك دقيقة أمام الأستاذ أو أمامي لننجز عملنا، كان الكريسماس يقترب، الوقت الذي يفترض أن أحلق فيه بعيدًا عن الأرض، وما زلت خاضعا لقوانين الجاذبية كما كنْتُ دائمًا، كانت أسوأ لحظة مررت بها طوال سنة، تحولت إلى مواطن عادي يقوم بمهامه ويعرف القراءة والكتابة، وإذا استمر الأمر أكثر، ربما انتهى الأمر إلى أخذ دروس في الخطابة والانضمام إلى منظمة بوى سكوت[١].

ذات صباح، استيقظْتُ مبكرا بعض الشيء عن المعتاد، ألقيْتُ نظرة على أيسوب والأم سيوكس، ورأيْتُ أنهما لا يزالان نائمين، ونزلت السلم على أطراف أصابعي، لأثير دهشة الأستاذ باستيقاظي قبل الفجر، وكان من المعتاد أن يكون في المطبخ في تلك الساعة، يعد الإفطار ويستعد ليبدأ اليوم، لكن لم تكن هناك رائحة للقهوة تنطلق من الموقد، أو صوت للحم خنزير يطقطق في المقلاة، ومن المؤكد تمامًا أن المكان كان خاويًا حين دخلْتُه، قلْتُ لنفسي إنه في الزريبة يجمع البيض أو يحلب إحدى البقرات، لكنني أدركْتُ أن الموقد لم يوقد، كان البدء بإشعال النار أولى المهام في صباح الشتاء، وكان الجو في الدور الأرضي قارسا، باردًا بما يكفي لأطلق دفعة من البخار كلما زفرْتُ، واصلت الحديث إلى نفسي: حسنا، ربما شعر الرجل العجوز بالملل والتعب وواصل نومه الجميل. وكان ذلك يضفي لمسة جديدة على الأمور بالتأكيد، أليس كذلك؟ كان عليَّ أن أوقظه بدل أن يوقظني، وهكذا صعدت السلم مرة أخرى وطرقْتُ باب غرفة نومه، وحين لم يأتِ ردٌّ بعد عدة محاولات، فتحْتُ الباب وعبرت العتبة بحذر شديد، لم يكن الأستاذ يهودي في أي مكان، لم

(١) بوي سكوت: منظمة عالمية للشباب تأسست في إنجلترا سنة ١٩٠٨.

يكن في السرير، بل إن السرير كان مرتبا أيضا، وليس هناك ما يدل على أن أحدًا نام فيه في تلك الليلة، قلْتُ لنفسي: هرب دون سابق إنذار، استعد وفرَّ، ولن نراه مرة أخرى أبدًا.

خلال الساعة التالية، انشغل عقلي تماما بأفكار يائسة، انتقلت فجأة من الحزن إلى الغضب، من الغيظ إلى الضحك، من الأسى الشديد إلى سخرية مُرَّةٍ من الذات، تبخر العالم، وتُرِكْتُ قابعا بين الرماد، وحيدًا إلى الأبد بين خرائب محترقة من الخداع.

كان أيسوب والأم سيوكس نائمين في سريريهما، غافلين عن انفعالاتي ودموعي، بشكل أو آخر (لا أتذكر كيف وصلْتُ إلى هناك) كنْتُ في المطبخ مرة أخرى، راقدًا على بطني ووجهي مضغوط على الأرضية، أفرك أنفي في الألواح الخشبية القذرة، لم تتبق دموع لتنهمر مني- ليس إلا جيشانًا جافا وخانقا، من أثر الفواق والأنفاس الخانقة الحارقة. سكنْتُ بسرعة، هدئتُ تقريبًا، وتدريجيا انتشر في داخلي إحساس بالهدوء، وانطلق بين عضلاتي وتسرب باتجاه أصابع يدي ورجلي، لم يعد في رأسي أفكار، ولم يعد في قلبي مشاعر، كنْتُ بلا وزن داخل جسمي، طافيًا في موجة صافية من العدم، انفصلْتُ تماما عن العالم من حولي ولم أعد أبالي به، وكانت المرة الأولى التي فعلْتُ فيها ذلك- دون سابق إنذار، دون أدنى فكرة عن أنها على وشك الحدوث، ببطء شديد، شعرْتُ بجسمي يرتفع من فوق الأرض، كانت الحركة طبيعية تمامًا، رائعة جدا في رقتها، ولم أدرك إلا بعد أن فتحت عيني أن ساقي لا تلامسان إلا الهواء، لم أكن بعيدًا جدا عن الأرض - على مسافة لا تزيد عن بوصة أو اثنتين- لكنني كنت معلقا هناك دون أي جهد، معلقًا مثل القمر في سماء الليل، ساكنًا وطائرًا، لا أشعر إلا بالهواء يدخل رئتي ويخرج

منهما، لا أستطيع أن أحدد كم من الوقت بقيت مرفرفًا بهذا الشكل، لكن في لحظة معينة، بالبطء والرقة نفسيهما عدت إلى الأرض. خرج مني كل شيء، وكانت عيناي مغلقتين بالفعل، ودون أي فهم لما حدث لي غلبني النوم، نوم بلا أحلام، غطسْتُ مثل حجر في قاع العالم.

استيقظت على أصوات، زحف أحذية على أرضية خشبية عارية. حين فتحْتُ عيني كنت أنظر مباشرة إلى سواد الرجل اليسرى لبنطلون الأستاذ يهودي، وقال وهو يدفعني بقدمه: «تحياتي يا بني، إغفاءة على الأرضية الباردة في المطبخ، ليس مكانا مناسبا لغفوة إذا أردت أن تبقى سليما».

حاولْتُ الوقوف، لكن جسمي بدا فاترا ومنتفخا، بذلت كل قوتي لأنهض على كوعي، كان رأسي كتلة مرتجفة من خيوط العنكبوت، ومهما فركت عيني وفتحتهما وأغمضتهما لم أستطع أن أركز على أي شيء بشكل سليم.

واصل الأستاذ: «ما المشكلة يا والت، أنت لا تمشي وأنت نائم، أليس كذلك؟».

«لا يا سيدي، لا شيء من هذا القبيل».

«إذًا لماذا أنت كئيب؟ تبدو وكأنك عائد من جنازة».

جرفني إحساس هائل بالأسى حين قال ذلك، وشعرت فجأة أنني على وشك البكاء، قلْتُ وأنا أمسك ساقه بذراعي وأضغط خدي على قصبة ساقه: «أوه يا أستاذ، أوه يا أستاذ، اعتقدْتُ أنك تركتني ولن تعود أبدًا».

حيـن خرجت هذه الكلمات من شـفتي، فهمْـتُ أنني أخطأت. لم يكن الأسـتاذ هو الذي سبب لي هذا الشـعور بالهشاشة واليأس، بل مـا فعلْتُه قبل أن يغلبني النوم مباشـرة، اسـتعدْتُ هـذا كله في دفعة قوية مثيرة للغثيان: اللحظات التي قضيْتُها بعيدًا عن الأرض، اليقين الذي فعلْتُ به ما لا أسـتطيع أن أفعله بكل تاكيد، بدلاً من أن يملأني بالنشـوة والسعادة، جعل هذا التقدمُ المفاجئُ الفزعَ يستبد بي، لم أعد أعرف نفسـي، كنْتُ مسـكونا بشيء ليس أنا، وكان شيئًا مفزعًا جدا وغريبًا جدا في جدته، لم أستطعْ الحديث عنه، استسلمْتُ للبكاء بدلاً مـن ذلك، تركْتُ الدموع تنهمر، وبمجرد أن بدأْتُ لم أكن متأكدا من أنني أستطيع التوقف.

قال الأستاذ: «ولدي العزيز، ولدي العزيز، ولدي الجميل». نزل إلـى الأرض وأخذني في ذراعيه، وربت على ظهري وضمني إليه وأنا أواصل البكاء. ثم بعد وقفة، سمعْتُه يتحدث مرة أخرى- لكنه لم يعـد يوجه كلماته إليَّ، للمرة الأولى منذ اسـتعدْتُ الوعي، أدرك أن شخصا آخر في المكان.

قال الأسـتاذ: «إنه أشـجع فتى على الإطلاق، يعمل بجدية، يفني نفسـه، جسـد يمكن أن يحمل الكثير جدا، وأخشـى أن يكون الرفيق الصغير مُجهدًا تمامًا».

نظرْتُ أخيرًا، رفعْتُ رأسـي من حجر الأسـتاذ يهودي، ودرْتُ بعيني لحظة، وكانت هناك مسز ويذرسبون، تقف في ضوء المدخل، أتذكـر أنها كانت ترتـدي معطفًا قرمزيا وقبعة من الفراء الأسـود، ووجنتاها لا تزالان متوردتين من برودة الشتاء، ابتسمتْ حين التقت عيوننا.

قالتْ: «أهلا والت».

قلت وأنا أرتشف آخر دموعي: «أهلا بك مدام».

قال الأستاذ: «قابلْ أمك الروحية الجميلة، جاءت مسز ويذرسبون لتنقذنا، وستمكث في المنزل لبعض الوقت، حتى تعود الأمور إلى طبيعتها».

قلْتُ مدركا السبب الذي جعل وجهها يبدو أليفا بالنسبة لي: «أنت سيدة ويتشيتا، أليس كذلك؟».

قالت: «صحيح، وأنت الفتى الصغير الذي تاه في العاصفة».

قلت، مُخلصًا نفسي من يدي الأستاذ وواقفا في النهاية: «كان ذلك منذ وقت طويل، لا أتذكر الكثير عنه».

قالت: «ربما لا تتذكر، لكنني أتذكر».

قال الأستاذ: «مسز ويذرسبون ليست فقط صديقة للأسرة، إنها نصيرتنا الأولى وشريكة في العمل، عليك فقط أن تعرف النتيجة يا والت، أود أن تضع ذلك في ذهنك وهي هنا معنا، الطعام الذي يغذيك، والملابس التي تسترك، والنار التي تدفئك- كل ذلك جاء تلطفًا من مسز ويذرسبون، وسيكون يومًا حزينا إذا نسيتَ ذلك».

قلت، وقد شعرت للتو ببعض النشاط في روحي مرة أخرى: «لا تقلق، لست غبيا، حين تدخل سيدة أنيقة منزلي، أعرف كيف يتصرف جنتلمان».

وبثقة تامة، حولْتُ عيني باتجاه مسز ويذرسبون، وبكل ما أستطيع من اتزان وبراعة، غمزت لها أكثر غمزة يمكن أن تشاهدها

امـرأة جاذبيــة وتجــاوزا للمعقول، لثقتها بنفســها، لم تخجل مســز ويذرســبون ولم ترتبك. رادةً المعروفَ، أطلقت ضحكة قصيرة، ثم بهدوء وسكينة مثل قوادة عجوز ردت لي غمزة لعوبا، كنت لا أزال مدللاً، وحين حدث ذلك، عرفْتُ أننا سنكون صديقين.

لـم تكن لدي فكرة عـن طبيعة ما رتبه الأسـتاذ معها، وفي ذلك الوقت لم أفكر في الأمر كثيرًا. ما كان يهمني أن مسـز ويذرسـبون هنــاك وأن وجودهــا يعفيني مــن مهام من قبيــل التمريض وأعمال وضيعة، تولت الأمور في ذلك الصباح الأول، وفي الأسابيع الثلاثة التالية دارت أمور المنزل بسلاســة تامة، وللأمانة لم أكن أعتقد أنها تستطيع القيام بذلك، على الأقل حين رأيتها في ذلك المعطف الرائع وذلك القفاز الغالي، بدت امرأة اعتادت على وجود خدم في خدمتها، ورغم أنها كانت جميلة جدا، كانت بشـرتها شــاحبة جدًا في رأيي، وعلــى عظامهــا قدر ضئيل جدا مــن اللحم. اســتغرق الأمر بعض الوقــت لأعتــاد عليها، حيث إنها لــم تكن تتوافق مع أيــة فئة أنثوية عرفْتُهــا. كانــت تراعى العرف ولم تكن مؤذية، لــم تكن ربة منزلٍ خنوعًا، ولم تكن متزمتة أو مشاكســة- لكنها بطريقة ما كانت خليطًا مــن هذا كله، مما يعني أنك لا تســتطيع إطلاقًــا أن تتنبأ بتصرفاتها أو تتوقع الخطوة التالية لها، الشــيء الوحيد الذي شعرت أنني متأكد منــه أن الأســتاذ يحبها. كان يهــدأ تمامًا ويتحدث برقــة حين تدخل الغرفة، وأكثر من مرة رأيته يحدق فيها بنظرة طويلة من عينيه حين تلتفت إلى الناحية الأخرى برأسها، وحيث إنهما كانا ينامان معًا في الســرير نفسه كل ليلة، وحيث إنني ســمعْتُ الفراش يطقطق ويهتز بانتظام معين، اعتبرْتُ من المســلم به أنها تحمل المشاعر نفسها له،

ما لم أكن أعرفه أنها رفضت الزواج منه ثلاث مرات- لكن حتى لو كنت أعرف، أشك في أن ذلك كان يمكن أن يغير من الأمر شيئًا. كانت في ذهني أمور أخرى، أكثر أهمية بالنسبة لي من تقلبات الحياة العاطفية للأستاذ.

بقيت مع نفسي بقدر المستطاع في تلك الأسابيع، مختبئا في غرفتي، وأنا أستكشف أسرار موهبتي الجديدة وأهوالها، فعلْتُ كل ما أستطيع لترويضها، لأتأقلم معها، لأدرس أبعادها الحقيقية وأقبلها جزءًا أساسيا من نفسي، كان ذلك هو الكفاح: ليسَ فقط أن أتمكن من المهارة، لكن أن أمتص نتائجها الرهيبة والمدمرة، أن أعرف خباياها، فرضتْ على مصيرًا خاصًا، وقد تبعدني عن الآخرين بقيّة حياتي، تخيل أنك تستيقظ ذات صباح لتكتشف أن لك وجهًا جديدًا، ثم تخيل الساعات التي تقضيها أمام المرآة قبل أن تعتاد عليه، قبل أن تبدأ الشعور بالراحة مع نفسك من جديد، يوما بعد يوم، كنت أغلق على نفسي في غرفتي، أتمدد على الأرض، وأتمنى أن يكون جسمي في الهواء. تدربت كثيرًا بحيث لا يمر وقت طويل قبل أن أتمكن من أن أرتفع في الهواء بإرادتي، أرتفع عن الأرض في ثوان. بعد أسبوعين، عرفْتُ أنه ليس من الضروري أن أستلقي على الأرض، إذا وضعْتُ نفسي في نشوة حقيقية، أكون قادرًا على أن أفعل ذلك واقفًا، وأن أحلق ست بوصات في الهواء من وضع رأسي. بعد ثلاثة أيام، عرفْتُ أنني أستطيع أن أبدأ الصعود وعيناي مفتوحتان، أستطيع بالفعل أن أنظر إلى أسفل وأرى ساقي ترتفعان عن الأرضية، ولا ينكسر السحر.

وأثناء ذلك، كانت حياة الآخرين تدوِّم حولي، حل أيسوب أربطته، وبدأت الأم سيوكس بمساعدة عصا تعرج مرة أخرى،

والأستاذ ومسز ويذرسبون يهزان سوست السرير كل ليلة، ويملآن المنـزل بتأوهاتهما. مع هذا القـدر الكبير من الصخب الذي يتجاوز قدرتي على التعامل معه، لم يكن من السهل دائما العثور على مبرر لغلق غرفتي على نفسـي، شـعرت مرتين بشـكل مؤكد أن الأستاذ ينظـر إليَّ مباشـرة، ويفهم ازدواجيتي ويتسـاهل فقـط لأنه لا يريد أن يفكـر فيَّ، في أية لحظة أخـرى، كان يمكن أن تأكلني الغيرة إذا تجنبني بهذا الشكل، إذا عرفت أنه يفضل صحبة امرأة على وجودي الأصيـل الحميم، لكننـي كنت طائرًا، وبدأ الأسـتاذ يهودي يفقد في نظري خصائصه شـبه الإلهية، ولم أعد أشعر بأنني تحت سيطرته. رأيْتُه رجلاً، رجلاً ليس أفضل من الرجال الآخرين أو أسـوأ منهم، وإذا أراد أن يقضي وقته في اللهو مع فتاة نحيفة من ويتشيتا، فالأمر يخصه، له مشـاغله ولي مشـاغلي، وهكذا سـارت الأمور منذ تلك اللحظة، لم أكن مدينًا بالفضل إلا لنفسي، وكما تبين، انتقلت فقط إلى المرحلة التالية من تطوري. وكان الأستاذ، مراوغًا وبارعًا كما كان دائمًا، يسـبقني بكثير، وأمامـي طريق طويل عليَّ أن أقطعه قبل أن أصبح اللاعب البارع الذي ظننْتُ أنني أصبحته.

غرق أيسوب في حالته بالأصابع التسع، ظلا فاترًا لما كان عليه سـابقًا، ورغم أنني قضيت معه وقتا بقدر ما أستطيع، كنت مشغولاً جدا بتجاربي بشـكل لا يسـمح لي بأن أهتم به الاهتمام الذي يحتاج إليه. أخذ يسـألني عن سـبب قضائي سـاعات طويلة جدًا وحيدًا في غرفتي، وذات صباح (لابد أنه كان صباح الخامس عشر أو السادس عشـر من ديسـمبر) كذبت عليـه كذبة صغيرة لأهدئ من شـكوكه بشـأني، لـم أكن أريد أن يظـن أنني لم أعد أهتم بـه، وفي ظل هذه الظروف بدا من الأفضل أن أكذب بدلاً من الصمت.

قلْـتُ: «إنها طبيعة الدهشـــة، إذا وعدْتَ بألا تنبــس بكلمة عنـها، فسوف أقدم لك فكرة عنـها».

نظر إلىَّ أيســوب بشك: «أنت على وشك القيام بحيلة أخرى من حيلك، أليس كذلك؟».

«أقســم لك ليســت هناك حيل، ما أقوله صدق، الحقيقة كاملة من صاحب الشأن».

«ليس عليك أن تلف وتدور، إذا كان لديك ما تقول قلْ».

«سأفعل، لكن عِدْني أولاً».

«لا أفضل ذلك، لا أحب أن أعطى كلمة دون سبب كما تعرف».

«أوه، حسنا، يمكنك أن تثق بي في ذلك».

قال وقد بدأ يفقد صبره: «حسنًا، ما الأمر يا أخي الصغير؟»

«ارفعْ يدك اليمنى وأقسمْ بأنك لن تبوح بذلك أبدًا، أقسمْ بقبر أمك. أقسمْ ببياض حدقتيك، أقسمْ بفرج كل عاهرة في أحياء الزنوج».

تنـهد أيسوب، أمسك خصيتيه بيده اليسرى- وكانت الطريقة التي نقسم بها القسم المقدس- ورفع يده اليمنى في الهواء، وقال «أعدك»، ثم كرر ما طلبت منه أن يكرره.

قلت، مرتجلاً وأنا أواصل: «حســنا، يبدو الأمر على هذا النحو. يحل الكريســماس الأســبوع القادم، ومع وجود مسز ويذرسبون في المنــزل، ســمعْتُ كلاما عن الاحتفال في الخامس والعشــرين، ديك رومي وحلوى وهدايا، وربما شــجرة تنوب عليها حلى وفشــار. إذا جاءت هذه الحفلة كما أظن، لا أريد أن أفاجَأ. تعرف كيف يمكن أن

يكون ذلك، ليس لطيفا أن تتلقى هدية لا تستطيع ردها، لهذا السبب أبقى في غرفتي طوال هذه الأيام، أعد هدية، مخترعا أكبر دهشة وأفضل دهشة يستطيع عقلي الصغير البائس أن يفكر فيها، سأكشف لك عنها خلال بضعة أيام يا أخي الكبير، وأتمنى ألا تُصاب بخيبة أمل».

كان كل ما قلْتُ عن حفلة الكريسماس صحيحا، سمعْتُ عبر الجدران الأستاذ وسيدته يتحدثان عنها، لكن حتى ذلك الوقت لم يحدث أن قدمت لأحد هدية، وقد غرسْتُ الفكرة في رأسي، رأيْتُها فرصة ذهبية، الفرصة التي انتظرْتُها طويلا، إذا كان هناك عشاء في الكريسماس (وفي الليلة نفسها أعلن الأستاذ أنه سيكون هناك عشاء)، يمكن أن أستغل المناسبة لعرض موهبتي الجديدة، يمكن أن تكون هديتي لهما، يمكن أن أقف وأرتفع في الهواء أمام عيونهم، وفي النهاية يعرف العالم سري.

قضيت بعد ذلك أسبوعًا ونصفا في قلق رهيب، كان القيام بأعمالي المثيرة في السر أمرا، لكن كيف يمكن أن أتأكد من أنني لن أسقط على وجهي حين أخرج أمامهم؟ إذا لم أنجح فسوف أتحول إلى أضحوكة، هدف لكل النكت على مدار الأعوام السبعة والعشرين التالية، وهكذا بدأ اليوم الأطول والأكثر تعذيبا في حياتي، من أية زاوية يمكن أن تنظر إليه، كانت ضربة موسم عيد الميلاد انتصارا، مأدبة حقيقية من الضحك والمرح، لكنني لم أستمتع إطلاقًا، كنت بالكاد أمضغ لحم الديك الرومي خوفًا من أن يقف في حلقي، وكان طعم اللفت المهروس يشبه طعم خليط من عجين من النشا والطين،

وحيــن انتقلنا إلى الردهة لنغني بعض الأغاني ونتبادل الهدايا، كنت على وشــك أن أفقد الوعي. بدأتْ مسز ويذرسبون بإعطائي سويتر أزرق عليــه من الأمام رنة[١] حمراء. تبعتها الأم ســيوكس بجورب علــى شــكلٍ معيَّنٍ صنعته بيدها، ثم أعطاني الأســتاذ كرة بيســبول جديدة بيضاء رائعة، وأخيرا أعطاني أيســوب صورة لســير والتر رالي، قطعها من كتاب ووضعها في إطار أنيق من الأبنوس، كانت كلها هدايا تنم عن سخاء، لكن كلما فككْتُ واحدة، لم أستطع أن أفعل أكثر من أن أهمهم بشــكر مقيت غير مسموع، كانت كل هدية تعني أنني أقترب أكثر من لحظة الحقيقة، وكانت كل هدية تســحب جزءا من روحي، غطســت في مقعدي وحيــن فتحت آخر هدية، كان لدي كل شيء إلا العزم على إلغاء العرض، قلت لنفسي لستُ مستعدًا ولا أزال أحتاج إلى مزيد من التدريب، وبمجرد أن بدأت في هذا الجدل، لم تكن لدي مشكلة في إقناع نفسي بالعدول عنه. ثم وأنا أحاول لصق مؤخرتي في المقعد إلى الأبد، تبرع أيســوب بالإدلاء برأيه وســقط السقف عليَّ.

قــال بكل براءة معتقدا أنني عنــد كلمتي: «الآن جاء دور والت، في جعبته شيء، ولا أستطيع أن أنتظر حتى يفاجئنا به».

قــال الأســتاذ، متحولاً إليَّ بواحــدة من نظراته الثاقبة الكاشــفة: «صحيح، لم نسمع مستر رولي الشاب بعد».

فوجئْــتُ، لم تكــن معي هدية أخرى، وإذا توانيت أكثر، فســوف يرونــي الجاحد الأنانــي الذي كنْتُه حقًا. وهكــذا وقفْتُ من مقعدي،

---

(١) رنة: نوع من الأيائل.

وعظــام ركبتي تصطك معًا، وقلت بصوت واه جدا: «أحاول الآن، سـيداتي ســادتي، إذا لم تنجح، لا يمكنكم أن تنسبوا ذلك إلى الرغبة في المحاولة».

كان الأربعة ينظرون إليَّ بفضول شديد، بنشوة الحيرة والانتباه، حتــى إننــي أغلقْتُ عيني حتى لا أراهم، أخذْتُ نفســا طويلا وبطيئا وزفرته، وفردْتُ ذراعي باسـترخاء، وتــراخ وهي طريقة تدربت عليها ســاعات طويلة، ودخلْتُ في نشــوتي، بدأْتُ أرتفع على الفور تقريبًــا، أرتفع عن الأرض ارتفاعًا سلسًــا وتدريجيا، وحين وصلْتُ إلى ارتفاع ست بوصات أو سبع - أقصى ما كنت أصل إليه في تلك الشــهور الأولى- فتحْتُ عيني ونظرْتُ إلى جمهوري. كان أيســوب والســيدتان مأخوذين في دهشة، كانت أفواه الثلاثة على شكل حرف "o" صغير، لكن الأســتاذ كان يبتسم، يبتســم والدموع تنهمر على وجنتيــه، وحتى وأنا أرفــرف أمامه، رأيْتُ أنه يمد يــده بالفعل إلى الطــوق الجلدي خلــف ياقته، وحين نزلْتُ إلــى الأرض مرة أخرى كان قد سحب القلادة من على رأسه وقدمها لي بكف ممتد، لم ينطق أحد بكلمة، بدأْتُ الســير باتجاهه، عابرًا الغرفة وعيناي مثبتتان في عينيــه، لا أجــرؤ على النظر إلى اي مكان آخــر، حين وصلْتُ إلى المــكان الذي يجلس فيه الأســتاذ يهودي، أخــذْتُ عقلة إصبعي منه ونزلت على ركبتي، ودفنت وجهي في حجره، بقيت كذلك ما يقرب من دقيقة، وحين واتتني الشجاعة على الوقوف مرة أخرى، جريت مــن الغرفة، مندفعًا إلى المطبخ ثم خرجــت إلى هواء الليل البارد - متلهفا للتنفس، متلهفا للحياة تحت كثافة نجوم الشتاء.

ودعنا مسز ويذرسبون بعد ذلك بثلاثة أيام، ولوحنا لها من باب المطبخ وهي تنطلق في سيارتها "الكريسلر" الخضراء الفاتحة، وحل عام ١٩٢٧، وخلال الشهور الستة الأولى من ذلك العام كنت أعمل بتركيز رهيب، مندفعا بعض الشيء كل أسبوع، أوضح الأستاذ يهودي أن الارتفاع ليس إلا بداية، كان إنجازا رائعا بالطبع، لكنه لم يكن شيئا يذهل العالم، أعداد من امتلكوا القدرة على الارتفاع عن الأرض، وحتى بعد استبعاد الدراويش الهنود ورهبان التبت والأطباء السحرة في الكونغو، هناك أمثلة عديدة مما يسمى بالقوميات المتحضرة، بلاد البيض في أوروبا وأمريكا الشمالية، قال الأستاذ: في المجر وحدها كان هناك في بداية القرن خمسة من النشيطين الذين يحلقون في الجو، ثلاثة منهم في مسقط رأسه، بودابست، كانت مهارة مدهشة، لكن الجمهور ملها بسرعة، وإذا لم تفعل أكثر من مجرد التحليق بضع بوصات فوق الأرض، فلن تكون هناك فرصة لتحويل الأمر إلى مهنة مربحة. إن فن التحليق لطخه المحتالون والدجالون، الصبية الذين يستعينون بالدخان والمرآة لشتيت انتباه الناس بحثًا عن نجاح سريع، وحتى أكسح السحرة وأكثرهم بهرجة في جولة مسرحية يمكن أن يجعل فتاة تطفو في الجو: مفاجأة مذهلة في ملابس قليلة متألقة وسط الهواء وحولها طوق (انظر: ليست هناك حبال أو سلوك) وتتحرك بطول جسمها الممدد. كان إجراء معياريا، وجزءًا راسخًا من الذخيرة، وأدى إلى إبعاد المحلقين الحقيقيين عن المهنة، يعرف الجميع أنه زائف، وشاع الزيف حتى إن الجمهور حين يرى تحليقًا حقيقيا يصر على الاعتقاد بأنه خدعة.

قال الأستاذ: "هناك طريقتان فقط لجذب الانتباه، وأية منهما تجعلنا نعيش حياة طيبة، لكنك إذا نجحت في الجمع بين الاثنتين في عمل واحد، ولا نعرف إلى أي مدى قد نذهب، لن يستطيع بنك في العالم أن يحتفظ بالأموال التي نحققها".

قلْتُ: "طريقتان، هل هما جزء من الدرجات الثلاث والثلاثين، أم أننا تجاوزنا ذلك الآن؟"

"تجاوزناها. لقد وصلْتَ إلى ما وصلْتُ إليه، وأنا في مثل عمرك، وبعد هذه النقطة ندخل مقاطعة جديدة، قارات لم يدخلها أحد من قبل، يمكن أن أساعدك بالنصيحة والتعليمات، يمكن أن تنحرف عن المسار، لكن الأشياء الجوهرية كلها عليك أن تكتشفها بنفسك، وصلنا إلى مفترق الطرق، وكل شيء من الآن فصاعدا يرجع لك".

"حدثْني عن الطريقتين. أعطِني حقائق الأمر كله، وسوف نرى؛ إن كنت أتقنه أم لا".

"الارتفاع والحركة- هاتان هما الطريقتان؛ بالارتفاع أعني الارتفاع في الجو، ليس نصف قدم فقط، لكن ثلاثة أقدام، ستة أقدام، عشرين قدمًا، كلما ارتفعْتَ أكثر، تكون النتائج أكثر روعة، ثلاثة أقدام رائعة، لكنها لن تكون كافية لإثارة دهشة الجماهير، تضعك فقط أعلى قليلاً من مستوى عيون معظم البالغين، ولا يمكن أن تمارس الحيلة كثيرًا، عند ستة أقدام تحلق فوق رؤوسهم، وبمجرد أن تدفعهم إلى النظر إلى أعلى، تخلق الانطباع الذي نريده، عند عشرة أقدام، يكون التأثير فائقًا، عند عشرين قدمًا، تكون عاليًا هناك بين الملائكة، والت الشيء المدهش الذي عليك أن تدركه، أن شبحًا

من النور والجمال يشـــع متعة في قلب كل رجل وامرأة وطفل يرفع وجهه إليك".

"تصيبني بقشـعريرة يا أستاذ، حين تتحدث بهذا الشكل، ترتجف عظامي كلها".

"الارتفـاع نصف الأمر فقط يا بنى، قبل أن تنطلق، توقف وفكر في الحركة، بذلك أعني أن تتحرك في الجو، إلى الأمام وإلى الخلف، حسـب الظروف، لا أهمية للسـرعة، لكـن المدة حيويـة، الجوهر الحقيقي للمسـألة، تخيل منظر الانزلاق في الجو لعشر ثوانٍ، يلهث الناس، ويشـيرون إليك غير مصدقين، لكن قبل أن يدركوا حقيقة ما يشـاهدون، تنتهي المعجزة. الآن مد الأداء إلـى ثلاثين ثانية أو إلى دقيقـة، يكون أفضل، أليس كذلك؟ تتمدد الروح، ويتدفق الدم بشـكل أجمـل في عروقك، والآن مـد الوقت إلى خمس دقائق، إلى عشـر دقائـق، وتخيل نفسـك تلف على شـكل رقم 8 وترقـص في دوائر وأنـت تتحرك، حـرًا لا تتعب ولا تكل، وخمسـون ألـف زوج من العيون تصبو إليك وأنت تحلق فوق العشـب في "حدائق بولو" في مدينة نيويورك، تخيل ذلك يا والت لترى ما كنت أراه طول كل تلك الشهور والسنوات".

"باسم الرب، يا أستاذ يهودي، لا أظن أنني أحتمل ذلك".

"لكـن انتظرْ يا والت، انتظرْ ثانيـة أخرى، افترضْ فقط، جدلاً، افترضْ فقط أنك بضربة حظ اسـتطعت القيـام بالأمرين في الوقت ذاته".

"الارتفاع والحركة معًا؟"

"نعم يا والت، الارتفاع والحركة معًا، ماذا بعد؟"

"أطير، أليس كذلك؟ أطير في الجو مثل طائر".

"ليس مثل طائر، يا صغيري، مثل رب، ستكون أعجوبة العجائب يا والت، قدس الأقداس. مادام بقى الرجال يسيرون على الأرض، سيؤلهونك بوصفك الرجل الأعظم بينهم".

قضيت معظم الشتاء أعمل وحدي في الزريبة، كانت الحيوانات هناك لكنها لم تلتفت إليَّ، راقبت مآثري ضد الجاذبية بلامبالاة تامة، من حين إلى آخر، قد يتوقف الأستاذ هناك ليرى كيف تسير الأمور، لكنه لم يكن يتفوه بأكثر من بضع كلمات لتشجيعي، تبين أن يناير كان أصعب الشهور، ولم أحرز أي تقدم، صار التحليق سهلاً مثل التنفس بالنسبة لي، لكنني كنت أتوقف عند الارتفاع نفسه، عند ست بوصات، ولم تخطر فكرة الحركة في الجو على بالي، لم تكن المسألة أنني لا أستطيع أن أتعلق بتلك الأشياء، لا أستطيع حتى أن أتصورها، وأعمل كما كنت أعمل لأطوِّع جسدي للتعبير عنها، لم أعثر على طريقة لأبدأ، ولم يكن الأستاذ يساعدني، كان يقول: "المحاولة والخطأ، المحاولة والخطأ، هكذا يمكن تلخيص الأمر، وصلْتَ الآن إلى الجزء الصعب، ولا تتوقع أن تصل إلى السماوات في ليلة".

في أوائل فبراير، ترك أيسوب والأستاذ المزرعة ليتجولا بين الكليات والجامعات في الشرق. كانا يرغبان في حسم المكان الذي يلتحق به أيسوب في سبتمبر، ويخططان للابتعاد شهرًا. ولا أحتاج إلى إضافة أنني توسلت للذهاب معهما. سيزوران مُدنا مثل بوسطن ونيويورك، حواضر ضخمة بها اتحاد كبير لأندية البيسبول وبها ترولـلي، وكانت فكرة البقاء في الريف أصعب من أن أقبلها، لو تقدمت بعض الشيء في الارتفاع والحركة، ربما لم يكن تركهما لي بهذه البشاعة، لكنني لم أحرز أي تقدم، وأخبرْتُ الأستاذ أنني أحتاج

إلى تغيير المشهد لتسير الأمور مرة أخرى. ضحك بطريقته اللطيفة وقال: "زمنك آت، يا بطل، لكن الدور على أيسـوب الآن، لم يضع الفتى المسـكين عينيه على رصيف أو إشـارة مرور لسبع سنوات، ومـن واجبي أن أفرجه على جزء صغير مـن العالم، يمكن للكتب، رغم كل شـيء، أن تأخـذك بعيدًا فقط. حان الوقـت ليختبر الأمور على حقيقتها".

قلْـتُ، مبتلعا خيبة أملي: "تتحدث عن الحقيقـة، تأكدْ من رعاية الصديق الصغير لأيسـوب. إذا كانت هناك خبـرة يتوق إليها، فهي الفرصة ليضعها في موضع آخر غير يديه".

"اطمئـن يا والـت. يرجـع الأمر إلـى الأجندة. أعطتني مسـز ويذرسبون مزيدًا من المال لهذا الغرض بالتحديد".

"كان ذلك أمرًا طيبا منها، ربما سـتفعل الشـيء ذاته بالنسبة لي ذات يوم".

"أنـا متأكـد من أنهـا سـتفعل، لكنني أشـك في أن تحتـاج إلى مساعدتها".

"سنرى. طبقا لما تسير عليه الأمور الآن، لسْتُ مهتما إطلاقا".

"وهناك سبب آخر للبقاء في كانساس والقيام بعملك. إذا واصلت العمل، ربما تكون هناك مفاجأة أو اثنتان لي حين أعود".

وهكذا قضيْتُ شهر فبراير وحيدًا مع الأم سيوكس، أشاهد تساقط الجليد وأستمع إلى عصف الرياح عبر البراري، في أول أسبوعين، كان الطقس شـديد البرودة فلم أستطع الخروج إلى الزريبة، قضيت معظـم وقتي أتسـكع في المنزل، مكتئبًا بدرجـة جعلتني لا أفكر في ممارسـة أعمالي، وحتى مع وجود اثنين فقط واصلت الأم سيوكس

مهامهـا، ومع الجهد الإضافي نتيجة سـاقها المصابة، كانت تشـعر بالتعـب سـريعا، وكنت أضايقهـا وأربكها، محـاولاً الوصول إليها للتحدث معها، وهي تقوم بعملها، لسنتين لم أفكر إلا في نفسي، متقبلاً الناس بدرجة ما كما يبدون ظاهريا. لم أبال قط بمعرفة ماضيهم، لم أهتم حقا بمعرفة حقيقتهم قبل أن أدخل حيواتهم، الآن فجأة، سـيطر علـيَّ دافع قهري بأن أعرف كل ما أسـتطيع عن كل منهم. أظن أن هذه الرغبة بدأت لأني افتقدتُهما كثيرًا جدا- الأستاذ وأيسوب، لكنني افتقدْتُ أيضا مسـز ويذرسـبون، تمنيت أن تكون معنا في المنزل، وكان المـكان أكثـر كآبة بكثير بعد أن تركته، وكان طرح الأسـئلة وسـيلة لاسـتحضارهم، وكلما تحدثت الأم سـيوكس عنهم أكثر قل إحساسي بالوحدة.

رغـم كل إصراري وإلحاحي لم أحصل منها على الكثير نهارًا، حكايـة عارضـة، نتـف ضئيلـة متفرقة، إشـارات موحيـة، كانت الأمسـيات ملائمة أكثـر للحديث، ومهما ضغطْـتُ عليها، كان من النادر أن تبدأ قبل أن نجلس للعشـاء، كانت الأم سـيوكس شـخصية كتومة، لا تستسـلم لثرثرة فارغة أو تتكلم في أمور غير مهمة، لكن بمجرد أن تسـتقر في حالة مزاجية مناسـبة، تكون رائعة في رواية القصـص. كانت تحكي بيسـر، ولا تغرق في الكثيـر من التفاصيل المثيرة، وكانت تتمتع بموهبة التوقف كثيرا وسط الجملة أو الفكرة، وكانت تلك الوقفات القصيرة في القص تنتج تأثيرات مذهلة إلى حد مـا. تمنحك فرصـة للتفكير، للتحليق مع القصة بنفسـك، وحين تبدأ مرة أخرى، تكتشـف أن رأسك امتلأ بكل أنواع الصور الجلية التي لم تكن موجودة من قبل.

ذات ليلة، لسبب لم أفهمه، أخذتني إلى غرفتها في الدور الثاني، طلبت مني أن أجلس على السرير، وبمجرد أن أخذتُ وضعًا مريحًا، فتحتْ غطاء صندوق قديم بال في الركن. اعتقدْتُ دائما أنه مكان لتخزين ملاءاتها وبطاطينها، لكن تبين أنه ممتلئ بأشياء من ماضيها: صور فوتوغرافية وخرز، وأحذية دون كعب وفساتين من جلد خام، نصال، قصاصات من الصحف، وزهور مضغوطة، حملت هذه الذكريات واحدةً واحدة إلى السرير، وجلستْ بجواري، وشرحت لي ما تعنيه. واكتشفْتُ أنها عملت بالفعل مع "بفلو بل"، وكان الشيء الذي لفت انتباهي حين نظرت إلى صورها القديمة جمالها- كانت أنيقة وممشوقة، بمجموعة كاملة من الأسنان البيضاء وجديلتين طويلتين جميلتين، كانت أميرة هندية معتادة، امرأةً حلمًا مثل فتيات الأفلام، وكان من الصعب أن تربط بين الفتاة الصغيرة الرائعة والمرأة القصيرة الممتلئة العرجاء التي ترعى لنا البيت، وتقبل حقيقة أنهما شخص واحد. قالت: إن الأمر بدأ وهي في السادسة عشرة في قمة جنون رقصة الشبح[1] التي اجتاحت أرض الهنود في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر. كانت أوقاتا سيئة، سنوات نهاية العالم، واعتقد الهنود الحمر أن السحر هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذهم من الفناء، كان سلاح الفرسان يزحف من كل جانب، يحشدونهم من البراري في معسكرات صغيرة، وكان لدى الضباط ذوي المعاطف الزرقاء رجال كثيرون جدا بدرجة تجعل الهجوم المضاد غير محتمل. كان رقص رقصة الشبح آخر خطوط المقاومة: أن تهتز وترتج بجنون، أن تثب وتتمايل مثل 'الأسطوانات المقدسة'[2] والكرات اللولبية تتحرك في الألسن، كان

(١) رقصة الشبح: رقصة ترتبط بحركة دينية بين الشعوب الأمريكية الأصلية.
(٢) الأسطوانات المقدسة: أعضاء طوائف دينية تعبر عن حماسها الروحي بالصراخ والحركات العنيفة.

يمكن أن تطير من جسمك، ورصاصات الرجل الأبيض لم تمسسك بعد، ولم تقتلك بعد، ولم تفرغ دمك من عروقك بعد. انتشرت الرقصة في كل مكان، وفي النهاية ألقى سيتنج بل[١] بنفسه مع الراقصين، ارتعب جيش الولايات المتحدة، خائفا من أن يكون التمرد في طريقه، وطلبوا من العم الأكبر للأم سيوكس أن يتوقف. لكن الولد العجوز طلب منهم اقتحامها، وكان يستطيع أن يرقص في بيته[٢] إذا أراد، ومن هم ليتدخلوا في شئونه الخاصة؟ وهكذا استدعى الجنرال ذو المعطف الأزرق (أظن أن اسمه مايلز أو نايلز) بافلو بل لاجتماع مع الرئيس. كانا رفيقين في الماضي حين كان سيتنج بُل يعمل في عرض «وايلد ويست»، وكان 'كودي' الأبيض الوحيد الذي يثق فيه. وهكذا قطع بِل رحلة شاقة إلى المعسكر في داكوتا الجنوبية[٣] مثل جندي أصيل، لكن بمجرد وصوله إلى هناك، غير الجنرال رأيه ولم يسمح له بمقابلة سيتنج بُل، خُدِع بِل بشكل مفهوم، لكن بالضبط وهو على وشك أن ينفجر، وقع بصره على الأم سيوكس الشابة (وكان اسمها «من تبتسم مثل الشمس») وأشار إليها بوصفها واحدة من جماعته، على الأقل لم تنته الرحلة بلا طائل. بالنسبة للأم سيوكس ربما كان ذلك يعني الفرق بين الحياة والموت، بعد بضعة أيام من دخولها عالم الاستعراض، قُتِل سيتنج بُل في عراك مع بعض الجنود الذين كانوا يسجنونه، وبعد ذلك بوقتٍ قصير، تعرض ثلاثمائة امرأة وطفل ومسن لمذبحة على أيدي فوج من

---

(١) سيتنج بل (١٨٣٤-١٨٩٠): قائد الهنكبابا سيوكس قاد شعبه للانتصار على الجنرال جورج كاستر في معركة سنة ١٨٧٦.

(٢) في الأصل، تيبي: بيت محمول عند بعض الشعوب الأمريكية الأصلية.

(٣) داكوتا الجنوبية: ولاية في شمال وسط الولايات المتحدة.

سـلاح الفرسـان فيما يعرف بمعركـة «وندد نـى»،[١] التي لم تكن معركة بقدر ما كانت غدرًا، مذبحة جماعية للأبرياء».

كانت هناك دموع في عيني الأم سـيوكس وهي تخوض في هذا الحديث، همهمت: «انتقام كاستر[٢]، كنت في الثانية من عمري حين ملأ كريزي هورس[٣] جسمه بالسهام، وحين بلغْتُ السادسة عشرة، لم يبق شيء».

قلْتُ: «شرح لي أيسوب ذلك ذات مرة، لكن الأمر غامض بعض الشـيء الآن، لكننـي أتذكره وهو يصف كيـف كان يمكن ألا يكون هناك عبيد سـود مـن أفريقيا إذا لم تطلق الشـعوب البيض يدها مع الهنـود، قال إنهم كانوا يريدون تحويل الهنود الحمر إلى عبيد، لكن الرئيس الكاثوليكي في البلاد القديمة منع ذلك، هكذا ذهب القراصنة إلى أفريقيا بدلاً من ذلك وجمعوا أعدادا كبيرة من السود وساقوهم في سلاسـل. هكذا قال لي أيسـوب، وأعرف أنه لا يكذب، كان يفترض أن يُعامَـل الهنـود معاملة حسـنة. مثل مقولة «عـش ودع الآخرين يعيشون» التي يرددها الأستاذ كثيرًا».

ردت الأم سـيوكس: «يفتـرض ذلك، لكن الأمور لا تسـير كما يفترض».

---

(١) وندد ني: مذبحة حدثت في ٢٩ ديسـمبر ١٩٨٠، بالقرب من مجرى مائي معروف بهذا الاسم.

(٢) كاسـتر (١٨٣٩-١٨٧٦): ضابط أمريكي، قاد بعض المعارك في الحرب الأهلية والحروب ضد الهنود.

(٣) كريـزي هـورس (١٧٤٩-١٨٧٧): قائد من السـيوكس، اسـمه الحقيقي Tashunca-Uitco، قاوم انتهاكات البيض في الهضاب السـوداء وانضم إلى سيتنج بُل في هزيمة كاستر في معركة Little Bighorn (١٨٧٦).

«حققت هدفًا هناك يا أمي، إذا لم تدعمي ما تؤمنين به، يمكنك أن تقدمي وعودًا كما تشائين، ولن يغير ذلك من الأمر شيئًا».

سَحبتْ مزيدا من الصور بعد ذلك، ثم بدأتْ في برامج المسرح، وفواتير الملصقات، وقصاصات الصحف، زارت الأم سيوكس كل مكان، ليس فقط في أمريكا وكندا، بل وفي الناحية الأخرى من المحيط أيضًا. مثلت أمام ملك إنجلترا وملكتها، وقعت أوتوجرافها من قيصر روسيا، وشربت شمبانيا مع سارا برنار[1]. بعد خمس سنوات أو ست من التجول مع «بافلو بل»، تزوجت من أيرلندي اسمه «تيد»، فارس صغير قطع سباق الحواجز عبر الجزر البريطانية. كان لديهما بنت اسمها «دافوديل»، وكوخ حجري يتألق فيه صباح صاف وزهور قرنفلية متسلقة في الحديقة، ولسبع سنوات لم تعرف سعادتها حدودًا. ثم داهمتها الكارثة. قتل تيد ودافوديل في تحطم قطار، وعادت الأم سيوكس إلى أمريكا محطمة القلب. تزوجت من مصلح أنابيب اسمه تيد أيضا، لكن على العكس من تيد الأول، كان تيد الثاني سكيرًا وفظا، وتدريجيا بدأت الأم سيوكس نفسها تشرب، وتأسى بشدة حين تقارن حياتها الجديدة بالقديمة، وانتهى بهما الأمر إلى العيش معًا في كوخ من ورق مغطى بالقار في ضواحي ممفيس بولاية تينيسي، ولولا الظهور المفاجئ للأستاذ يهودي بالصدفة تمامًا في طريقهما ذات يوم في صيف ١٩١٢، ربما صارت الأم سيوكس جثة قبل الأوان. كان يسير وأيسوب الصغير في ذراعيه (بعد أن أنقذه بيومين فقط مع حقل القطن) حين سمع صراخًا وعويلاً ينبعثان من كوخ مهدم تسميه الأم سيوكس منزلها. كان تيد الثاني قد بدأ للتو يضربها بقبضتيه المكسوتين بالشعر، محطما ستا أو

(١) سارا برنار (١٨٤٤-١٩٢٣): ممثلة فرنسية.

سبعا من أسنانها مع الضربات الأولى، ودخل الأستاذ يهودي، ولم يكن قط شخصا يبتعد عن المشاكل، دخل الكوخ، وبرقة وضع طفله المعوق على الأرضية، وأنهى الصخب بالتسلل خلف تيد الثاني، غارسا إبهامه ووسطاه في عنق الحثالة، وضغط بما يكفي لشحنه إلى أرض الأحلام. ثم غسل الأستاذ الدم من لثتي الأم سيوكس وشفتيها، وساعدها في الوقوف على قدميها، وألقى نظرة على قذارة المكان، ولم يحتج إلى أكثر من اثنتي عشرة ثانية ليصل إلى قرار، قال للمرأة المحطمة: «عندي اقتراح للتنفيذ، اتركي هذه القملة على الأرضية وتعالي معي، معي ولد مصاب بالكساح في حاجة إلى أم، وإذا وافقتِ على رعايته، أوافق على رعايتك، لا أمكث في أي مكان وقتا طويلا، عليك أن تستعدي للسفر، وأقسم بروح أبي أنني لن أعرضك أنت والطفل للجوع».

كان الأستاذ في التاسعة والعشرين حينذاك، نموذجًا مُشعًا من الرجولة بشارب مفتول وربطة عنق مربوطة بأناقة تامة. انضمت الأم سيوكس إلى القوة معه في ذلك الصباح، وفي السنوات الخمس عشرة التالية لازمته في كل منعطفات مساره، وربت أيسوب كأنه ابنها، لا أتذكر كل الأمكنة التي تحدثت عنها، لكن بدا أن أفضل القصص كانت تتركز دائما حول شيكاجو، البلدة التي ترددوا عليها كثيرًا. ومنها تنحدر مسز ويذرسبون، وبمجرد دخول الأم سيوكس في هذا الموضوع يبدأ رأسي يلف، قدمت الخطوط العريضة فقط، لكن الحقائق المجردة كانت مثيرة جا للفضول، مسرحية غريبة جا، ولم يمض وقت طويل حتى جسدتها في دراما مكتملة. تزوجت ماريون ويذرسبون من زوجها الراحل وهي في العشرين أو الحادية والعشرين. وكان هو نفسه قد تربى في كانساس، وكان من عائلة

ثرية من ويتشـيتا، فر إلى المدينة الكبيـرة حين ورث، وصفته الأم سـيوكس بأنه وسـيم ومرح، واحد من أولئك السـاحرين الخجولين الذيـن يمكـن أن يفتنوا المرأة في ثوانٍ. عاش الزوجان الشـابان في نعيم ورخاء ثلاثة أعوام أو أربعة، لكن مستر ويذرسبون كان ضعيفا تجـاه الجيـاد، ناهيك عن الولـع بهواية لعب الكوتشـينة وديًا خمس عشـرة ليلة أو عشرين ليلة في الشـهر، وحيث إنه كان يبرهن على حمـاس أكثـر مما يبرهن على مهارة في رذائلـه المفضلة، تقلصت ثروتـه التي كانت هائلـة ذات يوم إلى قدر ضئيـل. وقرب النهاية، صار الوضع محبطًا جدا حتى بدا وكأن عليه هو وزوجته أن يعودا إلـى بيـت العائلة في ويتشـيتا، وكان عليه، تشـارلي ويذرسـبون، المنغمـس في لعـب البولو ولاعب الجوكر في «نورث سـايد»، أن يبحث عن وظيفة من التاسـعة صباحًا إلى الخامسة مساءً في شركة تأمين موحشـة. وكان ذلك حيث دخل الأسـتاذ يهودي الصورة- في الغرفة الخلفية من قاعة بول في شـارع روش[1] في الرابعة صباحًا مع مسـتر ويذرسـبون واثنين آخرين أو ثلاثة مجهولين، يجلسـون جميعًـا حـول طاولة خضـراء وفي أيديهـم ورق كوتشـينة، وكما يقولون في الصحف المسـلية، لم تكن ليلة شارلي، وكان على وشك أن يفشل، كان معه ثلاثة أولاد وشايبان ولم يكن معه يلعب بها. كان الأسـتاذ يهودي الوحيد المتبقي في اللعبة، وحيث إنها بوضوح آخر فرصة جيدة لشـارلي يمكن أن تسـنح له، قرر أن يغامر بكل شيء. رهـن في البداية كل ممتلكاته في سـيبولا بولاية كانسـاس (وكانت ذات يوم مزرعة جـده)، موقّعًا على المنزل والأرض في قصاصة

(١) بول: لعبة من لعب الحظ تشـبه اليانصيب حيث توضع النقود في صندوق ويحصل عليها الفائز. شارع روش Rush Street: شارع في شيكاجو.

من الورق، وحين استمر الأستاذ يهودي وزاد عليه، وقع الجنتلمان قصاصة أخرى من الورق تخلي فيها عن كل الحقوق في زوجته. كان الأستاذ يهودي معه أربع سبعات، وحيث إن أربع ورقات من نوع واحد تفوز على ثلاثة أوراق من نوع وورقتين من نوع، بصرف النظر عن نوع الورق، كسب المزرعة والمرأة، وتهادى شارلي ويذرسبون المسكين المهزوم إلى بيته، منهزمًا تمامًا، في الفجر، ودخل البيت وزوجته نائمة، وانتزع مسدسا من الطاولة المجاورة للسرير، حيث أطلق النار على رأسه وتطاير دماغه على السرير.

هكذا نصب مستر يهودي خيمته في كانساس. بعد سنوات من التجوال وجد أخيرًا مكانًا يسميه مكانه، ورغم أنه لم يكن بالضرورة المكان الذي كان في عقله، لم يكن على وشك أن يزدري ما منحته إياه تلك السبعات الأربع. ما أربكني كيف عالج الأستاذ يهودي الأمر. إذا كان زوجها قد مات، من أين قدم لها ما يلزم ليعيش في راحة تامة في قصرها في ويتشيتا، لتشبع نفسها بملابس رائعة وسيارات فخمة ويتبقى لديها ما يكفي لتمول مشروعات الأستاذ يهودي؟ وكانت عند الأم سيوكس إجابة جاهزة على هذا السؤال. لأنها بارعة. بدأت مسز ويذرسبون بمجرد أن استوعبت الطرق الخليعة لزوجها، بدأت تجري تعديلات في الدفاتر، تضع جزءًا من دخلهما الشهري في استثمارات ذات عائد مرتفع، البورصة، وأسهم شركات، ومعاملات مالية أخرى. وحين صارت أرملة، حققت أنشطتها أرباحا طائلة إلى حد ما، مضاعفة المبلغ الأولى أربع مرات، وبهذه الثروة الصغيرة المنظمة في حوزتها، كانت تستطيع بسهولة أن تأكل وتشرب وتمرح. سألتُ: لكن ماذا عن الأستاذ يهودي؟ كسب جمالها وانهمك في لعبة البوكر، وإذا كانت

مسـز ويذرسـبون تخصه، لماذا لم يتزوجا؟ لماذا لا تكون هنا معنا ترتق جوربه وتطهي طعامه وتحمل أطفاله في رحمها؟

هزت الأم سيوكس رأسها ببطء إلى الخلف وإلى الأمام، وقالت: «إنه عالم جديد نعيش فيه، لم يعد لأحد أن يمتلك أحدًا، المرأة ليست سـلعة يبيعها الرجال ويشـترونها، وخاصة النساء الجديدات اللائي على شـاكلة سيدة الأسـتاذ. إنهن يحببن ويكرهن، يمتلكن ويغازلن، يرغبـن ولا يرغبن، وبمرور الوقت يغصن عميقًا تحت جلد الآخر، إنه عرض حقيقي، يتحد لعب الأطفال والحماقة والتهريج معًا، ومن المؤكد أن الوضع سيبقى على هذا النحو حتى الموت».

منحتني هذه القصص الكثير مما يشغل تفكيري في الساعات التي أقضيهـا وحيـدا، لكنني كلما أمعنت التفكير فيما قالته الأم سـيوكس صار أكثر التواء والتباسا، تعب رأسي من محاولة استيعاب مداخل هـذه الأفعال المعقدة ومخارجهـا، وعند نقطة معينـة توقفْتُ، قائلا لنفســي سـأتلف وصلات دماغي إذا واصلت التفكير بهذا الشـكل، الكبار كائنات لا يمكن فهمهم، وإذا كبرت أنا نفســي، أعد بأن أكتب خطابا لذاتي القديمة أشـرح فيه كيف سارت الأمور بتلك الطريقة - لكنني كان لدي ما يكفي، كان من المريح أن أتصرف بهذا الشـكل، لكـن بمجـرد أن تخليت عن هذه الأفـكار، وقعت في ضجر عميق، مرهق جدا في تشـابهه السـقيم، فعدْتُ في النهايـة إلى العمل، ليس لأنــي أردْتُ ذلك، لكن لأنني لم يخطر على بالي طريقة أخرى أملأ بها وقتي.

أغلقْـتُ على نفســي في غرفتي مرة أخـرى، وبعد ثلاثة أيام من العمـل غيـر المثمر، اكتشـفْتُ أنني كنت أعمل بشـكل خطأ، كانت المشـكلة كلهـا تكمن فــي الطريقة، وضعت في عقلي بشـكل ما أن

الارتفـاع والحركـة يمكـن أن تتحققا فقط في عمليـة من خطوتين، الأولى أن أرتفع بقدر ما أسـتطيع، ثم أندفع وأتحرك، دربت نفسـي على القيام بشـيء واحد، وتصورت أنني أسـتطيع أن أنجز الشيء الثاني بلصقه مع الأول، لكن الحقيقة أن الشـيء الثاني كان يلغي ما جاء قبله، مرارا وتكـرارا، أرتفع في الهواء بالطريقة القديمة، لكن بمجرد التفكير في السير إلى الأمام، أعود ثانية إلى الأرض، تلامس قدماي الأرض مرة أخرى قبل أن أتحرك، فشـلْتُ مرة، فشلت ألف مرة، وبمرور الوقت شـعرْتُ باشمئزاز شديد، عذبني العجز بشدة، حتى انتابتني نوبات غضب وضربت الأرض بقبضتي، في النهاية، في حالـة تامة من الغضب والهزيمة، ارتفعت وقفزت مباشـرة في الحائط، على أمل أن أسقط فاقدا الوعي. قفزْتُ وفي جزء من الثانية، قبل أن يصطدم كتفي بالجص، شـعرْتُ بأنني أطفو- حتى وأنا أندفع إلى الأمام، فقدت التماس مع الجاذبية، منطلقًا إلى أعلى باندفاع مبهج مألـوف وأنا أحلق في الجو، قبـل أن أدرك ما يحدث، اندفعت بعيدًا عن الحائط وسقطت على الأرض متألما، ارتجف جانبي الأيسر كله من الارتطام، لكنني لم أبال، نهضت على قدمي ورقصت قليلاً حول الغرفة، وأنا أضحك سـاخرًا في الدقائق العشـرين التالية. اكتشـفت السر، فهمْتُ قلت لنفسي: انسَ الزوايا القائمة، فكرْ على شكل قوس، فكرْ على شـكل منحنى، لم تكن المسألة الصعود ثم الانطلاق، كانت المسألة الصعود والانطلاق في الوقت ذاته، أن أثب في إيماءة سلسلة متصلة إلى ذراعي العدم العظيم الذي يكتنف كل شيء.

عملـت مثل كلـب في الأيام الثمانية عشـر أو العشـرين التالية، تدربـتُ على التقنية الجديدة حتى تجسـدت في عضلاتي وعظامي، وصارت فعلاً انعكاسيا لم يعد يحتاج إلى تفكير. كانت الحركة مهارة

يمكن تحسينها لتصل إلى درجة الكمال، مشية في الهواء تشبه الحلم لا تختلف جوهريا عن السير على الأرض، وبالضبط كما يتعثر الطفل ويسقط في خطواته الأولى، تعثرت كثيرا وسقطت وأنا أبدأ فرد جناحي، كانت المدة قضية دائمة بالنسبة لي في ذلك الوقت، مسألة المدة التي يمكن أن أسير فيها والمسافة التي أقطعها، اختلفت النتائج الأولى بشدة، تراوحت من ثلاث ثوانٍ إلى خمس عشرة ثانية، وحيث إنني كنت أتحرك ببطء مؤلم، كانت أفضل مسافة قطعتها سبعة أقدام أو ثمانية، ليست حتى المسافة من جدار إلى آخر في الغرفة. لم أكن أسير بخطوات قوية بارعة، كانت مشية شبحية ثقيلة، بالطريقة التي يتقدم بها بهلوان على سلك مرتفع، ومع ذلك واصلْتُ العمل بثقة، لم أعد عرضة لغيبوبة اليأس كما كنت من قبل. كنت أنطلق إلى الأمام، ولم يكن لشيء أن يوقفني، حتى لو لم أرتفع أعلى من البوصات الست أو السبع المعتادة، تصورت أن من الأفضل أن أركز على الحركة في ذلك الوقت، بمجرد أن أنجز بعض البراعة في تلك المنطقة، يمكنني أن أعود إلى الارتفاع وأعالج تلك المشكلة أيضا، أدركت أنني لن أتزحزح عن هذه الخطة حتى إذا كان عليَّ أن أفعل ذلك كله مرة أخرى، كيف كان يمكن أن أعرف أن ذلك الوقت يمر بسرعة، وبقيت أيام أقل مما تخيل أي منا؟

بعد عودة الأستاذ يهودي وأيسوب، دبت الروح في المنزل كما لم يحدث من قبل، كانت نهاية عصر، وكنا جميعًا نتطلع إلى المستقبل، متوقعين الحياة الجديدة التي تنتظرنا بعيدًا عن حدود المزرعة، سيكون أيسوب أول المبتعدين- إلى «ييل» في سبتمبر ـ وإذا جرت الأمور طبقا للجدول، فإن بقيتنا سيتبعونه بحلول نهاية السنة، مررت إلى المرحلة التالية من تدريبي، ويتوقع الأستاذ أن

أكـون جاهـزًا لـلأداء أمام الجمهور خلال تسـعة أشـهر تقريبا. لا يزال الطريق طويلاً بالنسـبة لشـخص في عمري، لكنه تحدث عنه بوصفه شـيئا حقيقيا، وكان اسـتخدامه لكلمات مثـل «حجوزات»، «المواقع»، و«صافي حصيلة شـباك التذاكر»، يبقيني في حالة من الإثـارة الدائمة. لـم أعد والت رولي، النكـرة التافه المعدم، صرت والـت الولد العجيب، المتهور الصغير الذي تحدي قوانين الجاذبية، الأول والوحيـد في الجو، بمجرد أن نشـق الطريق ويرى العالم ما أفعله، سـتثار حولي ضجـة، وأصبح أكثر شـخصية يدور الحديث عنها في أمريكا.

وبالنسبة لأيسوب، كللت رحلته إلى الشرق بنجاح مطلق، أجروا له اختبارات خاصة، عقدوا مقابلة معه، فحصوا محتويات جمجمته المبهمة، وطبقا لكلام الأستاذ، أذهل عددا كبيرًا منهم. لم ترفضه أية كلية، لكن ييل عرضتْ عليه منحة دراسية لأربع سنوات- بالإضافة إلى الطعام والمسـكن ومبلغ صغير للمعيشة- مما رجح كفتهم؛ بولا بـولا[1]، يـا أصحاب العزيمة فـي العالم اتحدوا، وحيـن أتذكر هذه الحقائق الآن، أفهم الإنجاز الذي حققه صبي أسود علم نفسه ليتسلق أسوار تلك المعاهد التي لا تعرف التعاطف. لم أكن أعرف شيئا عن الكتب، ولم يكن لدي مقياس لأقيس قدرات صديقي مقابل قدرات أي شخص آخر، لكنني آمنت إيمانا أعمى بأنه عبقري، واستقبلت فكرة أن مجموعة من المتجهميـن والمغرورين في كلية ييل يرغبون في أن يكون طالبًا بها بوصفها فكرة طبيعية، أنسب شيء في العالم.

إذا كنـت غبيًـا جدا بحيـث لا أدرك أهمية انتصار أيسـوب، فقد أذهلتنـي أكثر الملابس الجديـدة التي عاد بها مـن الرحلة، عاد في

---

(١) بولا بولا: أغنية جامعة ييل.

معطـف من الجلد الطبيعي وقبعـة باللونين الأزرق والأبيض، وبدا غريبًـا جدا في ذلك المظهر حتى إنني لـم أقاوم الضحك حين دخل من الباب. أعد له الأستاذ بدلتين بنيتين من التويد في بوسطن، وحين عاد إلى البيت، اعتاد أن يرتديهما في المنزل بدلاً من ملابس الحقل القديمة، وكانت تكتمل بقميص أبيض، وياقة منشـاة، وربطة عنق، وحذاء لامع ملون. كان بهذا الشـكل مؤثرًا تمامًا- وكأنه صار أكثر انتصابًـا، وأكثر تبجيلاً، وأكثر إدراكا لأهميته. بدأ يحلق كل صباح رغـم ذلـك لم يكن عليه أن يفعل ذلـك، وكان عليَّ أن أبقى بصحبته في المطبخ وهو يملأ كوبه برغوة الصابون ويغمس موسـه مستقيم الحد في الدلو البارد، ممسـكا له بمـرآة صغيرة وهو يحكي لي عما رأى وفعـل في المدن الكبيرة على سـاحل الأطلنطي. فعل الأسـتاذ أكثـر مـن مجرد إلحاقه بكليـة، فرَّجَه على عصره، وكان أيسـوب يتذكـر كل الدقائق: البقع العالية، البقع المنخفضة، وكل ما بينها من بقع، تحدث عن ناطحات السـحاب، المتاحف، العروض المتنوعة، المطاعم، المكتبات، الأرصفة المكتظة بالبشـر من كل لون وشكل. قال ذات صباح وهو يكشط في لحيته غير المرئية: «كانساس وهم، مكان للتوقف في الطريق إلى الحقيقة».

قلْـتُ: «ليس عليك أن تخبرنـي بذلك، هذا الثقـب متخلف جدا، جفت الولاية قبل أن يسمعوا حتى عن الحظر[1] في بقية البلاد».

«شربت بيرة في مدينة نيويورك يا والت».

«حسنا، تصورت أنك فعلْتَ بالضرورة».

(١) الحظر: فترة من ١٩٢٠-١٩٣٣ تم فيها حظر تصنيع المشروبات الكحولية وبيعها في الولايات المتحدة.

«في حانة. منشأة غير قانونية في شارع ماك دوجال، في قلب قرية جرينيتش مباشرة، تمنيت أن تكون معي».

«لا أحتمل مذاق البيرة يا أيسوب. لكن أعطني ويسكي 'بوربون' قويا، وسوف أشرب أكثر من أي رجل».

«لا أقول إن طعمها جيد، لكن المثير أن أكون وسط كل أولئك البشر، أتجرع شرابي في مكان مزدحم بهذا الشكل».

«أراهن أنه ليس الأمر الوحيد المثير الذي فعلته».

«لم يكن الوحيد، ليس بحال من الأحوال، كان مجرد أمر من كثير».

«أراهن على أن حمامتك قامت ببعض التدريبات الطيبة أيضا، إنني أخمن بطيش فقط، بالطبع، وصحح لي إن كنْتُ مخطئًا».

توقف أيسوب والموس في الجو، استغرق لحظة في التفكير، وبدأ يبتسم ابتسامة عريضة في المرآة: «لنقل فقط إنها لم تُهمَلْ، يا أخي الصغير، ونترك الأمر عند هذا الحد».

«هل يمكن أن تخبرني باسمها؟ لا أقصد أن أكون ملحًا، لكن لدي فضول في معرفة من كانت تلك الفتاة المحظوظة».

«حسنا، إذا كانَ من الضروري أن تعرف، اسمها (مابل)».

«مابل. ليس سيئًا، كل الأمور في الاعتبار، تبدو مثل دمية ببعض اللحم على عظامها، كبيرة أم صغيرة؟»

«ليست كبيرة، وليست صغيرة، لكنك أصبت مباشرة بشأن اللحم. مابل أبدن النساء التي تأمل أن تغرس أسنانك فيهن

وأسـودهن، إنهـا ضخمة جدًا، لم أعرف أين تبـدأ وأين تنتهي، كان الأمر مثل مصارعة مع فرس النهر يا والت، لكن بمجرد أن تنهمك فـي الأمر، تتكفـل الطبيعة ببقية الأمر، تزحف إلى سـريرها ولدا، وبعد نصف ساعة تخرج رجلا».

وقد وصل أيسـوب إلى الرجولة قرر أن اللحظة حانت للجلوس وكتابـة سـيرته الذاتية، وهـذا ما خطط أن يقضي فيه تلك الشـهور قبـل مغـادرة البيـت - أن يحكـي قصـة حياتـه حتى ذلـك الوقت، مـن ولادتـه في كوخ ريفـي في جورجيا إلى انتشـاله فـي ماخور هارلـم[١]، ملفوفـا في الذراعيـن المترهلتين لمابـل العاهرة، بدأت الكلمـات تتدفق، لكن العنـوان حيره، وأتذكر كم تردد بشـأنه. ذات يوم يسـميه «اعترافات لقيط زنجي»؛ وفي اليـوم التالي يغيره إلى «مغامـرات أيسـوب: التاريـخ الحقيقـي والآراء الصريحة لصبي ضائع»؛ وفي اليوم الذي بعده يصبح «الطريق إلى ييل: حياة طالب زنجـي من أصوله الوضيعـة إلى الحاضر»، هذه العناوين ليسـت إلا بعضهـا، وطوال عمله في الكتاب، اسـتمر يحـاول العثور على عناويـن مختلفة، يراوغ أفكاره ويراوغها ثانية حتى شـيد كوما من صفحـات العنوان بطول المخطوطة نفسـها. لابد أنه كان يكد ثماني سـاعات أو عشـرًا يوميا فـي التأليف، وأتذكر اختـلاس النظر من الباب وهو يجلس محنيًا إلى مكتبه، متعجبا كيف لشـخص أن يجلس سـاكنًا كل هذا الوقت، منهمكا فقط في توجيه سـن قلمه على ورقة فولسـكاب بيضاء. كانت خبرتـي الأولى بتأليف الكتب، وحتى حين يدعوني أيسـوب إلـى غرفته ليقرأ عليَّ فقرات مـن كتابه، أجد من الصعـب أن يقضـي المـرء كل هذا الصمـت والتركيز مع قصص

---

(١) جورجيا: ولاية في جنوب شـرق الولايات المتحدة. هارلم: حي في مدينة نيويورك.

تأتي مندفعة من شـفتيه، كنا جميعًا في الكتاب- الأستاذ يهودي والأم سـيوكس وأنا - وبالنسبة لأذني الخرقاء الساذجة، كان العمل مؤهلاً تمامًـا ليكون تحفـة فنية، ضحكت من بعض الأجـزاء، وبكيت من أخرى، وماذا يريد المرء من كتاب أكثر من أن يشـعر بذلك الوخز من البهجة والأسى؟ والآن أكتب كتابي الخاص، لا يمر يوم دون أن أفكر في أيسوب هناك في غرفته. كان ذلك منذ خمسة وستين عاما، وما زلت أراه يجلس إلى مكتبه يخربش ذكريات شبابه والنور يتدفق عبر النافذة، مبصرًا جزيئات الغبار تتراقص حوله، وإذا ركزت بما فيه الكفاية، ما زلت أسمع نفسه يدخل رئتيه ويخرج، ما زلت أسمع سن قلمه يخربش على الورق.

بينما كان أيسـوب يكتب داخل البيت، كنت أنا والأسـتاذ يهودي نقضي أيامنا في الحقول، نكد ساعات لا تعد في عملنا، في نوبة من التفاؤل بعد عودته أعلن على العشاء أنه لن يكون هناك غرس في تلك السنة. قال: «لتذهب المحاصيل إلى الجحيم. لدينا من الطعام ما يكفي للشتاء، وبحلول الربيع مرة أخرى، سنكون قد رحلنا عن هذا المكان منذ فترة طويلة، ورأيي أنه إثم أن نزرع أشياء لن نحتاج إليها أبدًا». كانت هناك بهجة عامة بشأن هذه السياسة الجديدة، ولمرة واحدة كانت بدايـة الربيع خالية من العمل المضني والحرث، أسـابيع لا متناهية مـن انحناء الظهور والخوض في الوحل، تحول تقدمي المفاجئ في الحركة إلى فرصة مناسبة، وكان الأستاذ يهودي واثقا جدا حتى أنه أهمل الحقل. كان القرار الوحيد المعقول الذي يمكن أن يتخذه رجل، قضينا مدتنا جميعًا، ولماذا نأكل النفايات ونحن بعد قليل سنعد للذهاب؟

وذلـك لا يعني أننا لم نكد هناك - وخاصة أنا - لكنني اسـتمتعت بالعمل ومهما دفعني الأسـتاذ لم أرغب فـي التوقف قط، بمجرد أن

صار الطقس دافئا، كنا نخرج باستمرار حتى بعد أن يحل الظلام، نعمل على ضوء الكشاف في المروج البعيدة والقمر يرتفع في السماء، لم أعرف التعب، غرقت في سعادة غمرتني من تحد إلى التحدي التالي، بحلول أول مايو كنت أسير بشكل روتيني من عشر ياردات إلى اثنتي عشرة ياردة، وبحلول الخامس من مايو، وصلت إلى عشرين ياردة، وفي أقل من أسبوع وصلت إلى أربعين: مائة وعشرون قدمًا حركة في الجو، عشر دقائق تقريبا متواصلة من السحر الخالص، وحين خطرت للأستاذ فكرة أن أتدرب فوق الماء، كانت هناك بركة في الركن الشمالي الشرقي من الممتلكات، ومن ذلك الوقت بدأنا العمل هناك، منطلقين في عربة كل صباح بعد الإفطار إلى نقطة لا نرى من عندها المنزل - وحدنا معًا في الحقول الصامتة، من النادر أن نتبادل كلمة لساعات طوال، في البداية أرعبني الماء، وحيث إنني لا أعرف السباحة، لم يكن هزلاً أن أختبر براعتي على تلك المادة. لابد أن عرض البركة كان ستين قدما، ومستوى المياه في نصفها على الأقل أعلى من رأسي، سقطت فيها ست عشرة مرة أو عشرين مرة في اليوم الأول، وفي أربع من هذه السقطات كان على الأستاذ أن يقفز ليلتقطني، وبعد ذلك، كنا نذهب مزودين بفوط وملابس للغيار، لكن بحلول نهاية الأسبوع لم تعد ضرورية، لم أكن أنظر إلى أسفل، اكتشفت أنني أستطيع أن أندفع على السطح دون أن أبتل، كان الأمر بهذه البساطة، وفي الأيام الأخيرة من مايو ١٩٢٧، كنت أسير على المياه بالمهارة التي كان يسير بها المسيح نفسه.

في وقت ما من منتصف هذه الفترة، قام ليندبيرج[1] برحلته

---

(١) ليندبيرج (١٩٠٢-١٩٧٤): طيار امريكي، أول من عبر الأطلنطي بمفرده في ٢٠-٢١ مايو ١٩٢٧.

الفردية عبر الأطلنطي، مسافرًا دون توقف من مدينة نيويورك إلى باريس في ثلاث وثلاثين ساعة. سمعنا عن الرحلة من مسز ويذرسبون، التي انطلقت ذات يوم من ويتشيتا بحزمة من الجرائد في المقعد الخلفي لسيارتها، كان الحقل منفصلاً تمامًا عن العالم، حتى الأخبار الرئيسية التي من قبيل هذا الخبر تمر دون أن يلاحظها أحد، إذا لم ترغب في قطع كل تلك المسافة ما كنا سمعنا أي شيء عن ذلك. استغربت دائما من تزامن عمل ليندبيرج تماما مع جهودي، في اللحظة ذاتها التي شق فيها طريقه عبر المحيط اجتزت بحيرتي الصغيرة في كانساس- نحن الاثنان في الجو معًا، كل منا ينجز عمله الفذ في الوقت ذاته، بدا الأمر وكأن السماء انفتحت فجأة للإنسان، وكنا أول رائدين، كولومبس وماجلان الطيران البشري، لم أعرف «النسر الوحيد» من ثقب في الحائط، لكنني شعرت بالارتباط معه بعد ذلك، كما لو كنا نشترك في رابطة أخوية خفية. لا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة أن يكون اسم طائرته «روح سانت لويس». إنها بلدتي، أيضا، بلد الأبطال، أبطال القرن العشرين، ودون حتى أن يعرف، سمى ليندبيرج طائرته على شرفي.

بقيت مسز ويذرسبون معنا يومين وليلتين، وبعد أن تركتنا، عدتُ أنا والأستاذ إلى العمل، وحولنا بؤرة الاهتمام من الحركة إلى الارتفاع، فعلت ما أستطيع مع الانتقال على المستوى الأفقي؛ وحان الوقت لأحاول مع الانتقال على المستوى الرأسي. كان ليندبيرج ملهمي، أؤمن بذلك تمامًا، لكنني أردت أن أتفوق عليه: أن أفعل بجسمي ما فعله بآلة. ربما على مستوى أقل، لكنه أكثر إثارة للإعجاب بشكل مطلق، شيء يقزم شهرته في ليلة، لكنني حاولت ولم أتقدم بوصة، لأسبوع ونصف، كافحت أنا والأستاذ

قرب البركة، مروعين بالقدر نفسه بالمهمة التي حددناها لأنفسنا، وفي نهاية ذلك الوقت لم أصل إلى ارتفاع أعلى مما وصلْتُ إليه من قبل، وفي مساء الخامس من يونيو، قدم الأستاذ يهودي اقتراحا جعل الأمور تتحسن فجأة.

قال: «أفكرُ فقط، يبدو لي أن الأمر قد يكون له علاقة بقلادتك، لا تزن أكثر من أوقية أو اثنتين، لكنه وزن قد يكون كبيرًا بالنظر إلى حسابات ما تحاوله. بالنسبة لكل مليمتر ترتفعه في الهواء يزيد وزن الشيء بتناسب هندسي مع الارتفاع- مما يعني أنك، بمجرد أن تكون على بعد ست بوصات من الأرض، تحمل ما يعادل أربعين رطلاً إضافيًا، وهو ما يساوي نصف وزنك الإجمالي، إذا كانت حساباتي صحيحة، فلا غرابة في أن تكون قد مررت بذلك الوقت الصعب».

قلْتُ: «ألبس تلك القلادة منذ الكريسماس، إنها تعويذة حظي، ولا أستطيع أن أفعل شيئا دونها».

«تستطيع يا والت، حين ارتفعت عن الأرض أول مرة، كانت حول رقبتي، هل تتذكر؟ لا أقول إنك لا ترتبط بها عاطفيا، لكننا هنا نقتحم مسائل روحية عميقة، وربما لا تستطيع أن تنهمك تمامًا في أن تفعل ما عليك، وعليك أن تتخلى عن جزء من نفسك قبل أن تحقق كل ما تؤهلك له موهبتك».

«لا معنى لهذا الكلام، إنني أرتدي ملابس، أليس كذلك؟ أنتعل حذاء وجوربا، أليس كذلك؟ إذا أخذتني القلادة إلى أسفل، أخذتني الأشياء أيضا، وأنا متأكد تماما من إنني لن أعرض أعمالي دون ملابس».

«لن يؤذيك أن تحاول، لن تخسر شيئا يا والت، ويمكن أن تكسب كل شـــيء. إذا كنت مخطئا، ليكن، وإن لم أكن مخطئا فسـيكون من البشاعة ألا تواتينا الفرصة أبدًا لنكتشف ذلك».

وضعني في هذا الموقف، وبكثير من الشك والتردد خلعت تعويذة الحظ الطيب ووضعتها في يد الأستاذ. قلت: «حسنا، نجرب، لكن إذا تبين أن الأمر ليس كما تقول، فستكون آخر مرة نتحدث في هذا الموضوع».

في السـاعة التالية تمكنت من مضاعفة رقمي السابق، وصعدت إلى ما بين اثنتي عشرة بوصة وأربع عشرة بوصة، وبحلول الليل، ارتفعْتُ قدمين ونصف عن الأرض، مبرهنا على أن حدس الأسـتاذ يهـودي كان صحيحًـا، بصيـرة نبوية في أسـباب فنـون الارتفاع ونتائجها، كانت الإثارة مدهشة- أن أشعر بنفسي محلقًا على مثل تلك المسافة من الأرض، أن أكون بكل معنى الكلمة على حافة الطيران ـ لكن أعلى من قدمين كان من الصعب أن أحفظ وضعي الأفقي دون أن أترنح وأدوخ، كان كل شيء بالنسبة لي جديدًا في الأعلى، لم أشعر بتوازني الطبيعي، شـعرت بأنني أطول من المعتاد، وكأنني مركب من قطع ولسـت قطعة متصلة، يسـتجيب الـرأس والكتفان بطريقة بينما تستجيب القصبتان والكاحلان بطريقة أخرى. وحتى لا أنقلب، كنت أسـترخى في وضـع الانبطاح حين أصعـد، وعرفت غريزيا أن تمدد جسـمي كله علـى الأرض أكثر أمانا وراحــة من الوقوف علــى أخمصي القدمين فقـط. كنت لا أزال قلقـا بدرجة تحول دون التفكير في الحركة إلى الأمام في ذلك الوضع، لكن في وقت متأخر مـن تلك الليلة، بالضبط قبل التوقف عـن العمل والذهاب إلى البيت للنوم، طويت رأســي تحت صدري ونجحت في القيام بشقلبة بطيئة فـي الجو، مكملا دائـرة كاملة متصلــة دون أن أمس الأرض مرة.

عدت أنا والأستاذ إلى المنزل في تلك الليلة منتشيين بالمتعة، بدا لنا كل شـيء ممكنا: تحقيق الارتفاع والحركة، الصعود في طيران فعلي، حلم الأحلام، أظن أنها أعظم لحظاتنا معًا، اللحظة التي تجسد فيها أخيرًا مستقبلنا كله، لكن في السادس من يونيو، بعد ليلة فقط من الوصول إلى القمة، تعرض تدريبنا لتوقف فجائي لا يمكن معالجته، حدث أخيرًا ما أفزع الأسـتاذ يهودي منذ فترة طويلة، وحين حدث، حدث بعنف شديد، أحدث فوضى واضطرابا في قلبينا، بحيث لم يعد أي منا كما كان إلى الأبد.

سـارت معي الأمور بشـكل جيد طوال اليوم، وكما كانت عادتنا فـي ذلك الربيع العجيب، قررنا أن نواصل حتى الليل، في السـابعة والنصف، تناولنا عشـاء من سندوتشات أعدتها لنا الأم سيوكس في ذلـك الصباح ثم واصلنا عملنا والظلام يحـل بالحقول المحيطة بنا، لابد أن الوقت اقترب من العاشرة حين سمعنا صوت أحصنة. كانت مجرد دمدمة شاحبة في البداية، اضطراب في الأرض جعلني أفكر فـي رعد بعيـد، وكأن عاصفة رعديـة تتخمر في مـكان ما في بلد مجاورة. أكملت شقلبتين فقط على حافة البركة وكنت أنتظر تعليقات الأسـتاذ، لكـن بـدل أن يتكلم بصوته الهـادئ المعتـاد، قبض على ذراعـي فجأة، فـي إيماءة كلها هلع، وقال: «أنصـتْ»، ثم قال مرة أخرى: «أنصتْ إلى ذلك. إنهـم قادمون. أبناء العاهرات قادمون». أنصت بدقـة، وتأكدت من أن الصوت يرتفع، مرت ثانيتان وفهمْتُ أنه صوت جياد، قعقعة حوافر قطيع تتدفق باتجاهنا.

قال الأستاذ: «لا تتحركْ، ابق مكانك ولا تحرك عضلة حتى أعود».

ثـم ودون أن ينطـق بـأي تفسـير، بدأ يجـري باتجـاه المنزل، منطلقـا بيـن الحقـول مثل عـدَّاء، تجاهلْـتُ أمره وانطلقـت خلفه، بأقصـى مـا يمكـن أن تحملني بها سـاقاي، كنا على بعـد ربع ميل مـن المنـزل، لكن قبل أن نقطـع مائة ياردة، رأينـا النيران بالفعل، موجة متوهجة من الأحمر والأصفر تندفع باتجاه السـماء المظلمة، سـمعنا صيحات وأغاني حرب، ووابلاً من طلقات تدوي، ثم سمعنا صوتًا واضحًا لصرخات بشـرية. استمر الأستاذ في الجري، لتتسع المسافة بيننا باسـتمرار، لكنه توقف بمجرد أن وصل إلى مجموعة من أشـجار السـنديان على الجانب البعيد من الزريبة، اندفعْتُ إلى حافة الأشجار، لأواصل الطريق كله إلى المنزل، لكن الأستاذ رآني بطـرف عينه وأوقعنـي على الأرض قبل أن أسـير خطوة أخرى، قال: «فات الميعاد. إذا دخلنا الآن فسوف نُقتَل، إنهم اثنا عشر ونحن اثنـان، ومعهم جميعًا بنادق ومسدسـات، صلِّ للـرب ألا يجدونا يا والت، لكن لا شيء يمكن أن نفعله للآخرين».

وهكذا وقفنا في يأس خلف الأشجار، نراقب منظمة «كو كلوكس كلان»[1] تقوم بعملها. اثنا عشـر رجلا واثنا عشـر حصانا يقفزون حـول الفنـاء، مجموعـة من القتلـة الصائحين بأغطيـة بيض على رؤوسهم، وكنا عاجزين عن مقاومتهم. سحبوا أيسوب والأم سيوكس من المنزل المحترق، ووضعوا حبالاً حول رقبتيهما وربطوهما في شـجرة دردار على جانـب الطريق، كل منهما فـي غصن. صرخ

(١) كو كلوكس كلان: منظمة سـرية تأسست في الجنوب عقب الحرب الأهلية لإعـادة تأكيد تفوق البيض عن طريق الأعمال الإرهابية. وهناك جمعية أخرى تأسست للهدف نفسه في جورجيا سنة ١٩١٥.

أيسوب، ولم تنطق الأم سيوكس بشيء، وفي دقائق كانا ميتين، قتل أفضل صديقين لي أمام عيني، وكل ما استطعت القيام به أن أشاهد، وأقاوم دموعي والأستاذ يهودي يثبت راحته على فمي، بمجرد انتهاء عملية القتل، غرس رجلان من المنظمة صليبا خشبيا في الأرض، وسكبا عليه جازولين وأشعلا النيران فيه. احترق الصليب والمنزل يحترق، صاح الرجال أكثر، وأطلقوا مجموعات من الطلقات في الهواء، ثم امتطوا جيادهم جميعًا وانطلقوا في اتجاه سيبولا، كان المنزل متوهجًا، قذيفة من الحرارة والأخشاب التي تطقطق، وبرحيل آخر رجل، سقط السقف بالفعل، وانهار على الأرض في وابل من الشرر والشهب. بدا الأمر وكأنني رأيت الشمس تنفجر. بدا وكأنني شاهدت نهاية العالم.

II

دفناهما فــي المزرعة في تلك الليلة، أنزلنا جسـديهما في قبريــن دون علامات بجــوار الزريبة، كان علينا أن نتلو بعض الأدعية، لكن رئاتنا كانت مليئة بالحزن فلم نسـتطع، وهكـذا غطيناهمــا بالتراب ولم نقل شــيئًا، ونحــن نعمل في صمت والماء المالح ينسـاب على وجناتنا. ثـم، ودون أن نعود إلى المنزل المحتـرق، دون أن نهتـم حتى بمعرفة إن كانت بعــض متعلقاتنا لا تزال سـليمة، ربطنا الفرس في العربة وانطلقنا في الظلام، تاركين سيبولا خلفنا إلى الأبد.

اسـتغرق الأمر الليلــة بطولها ومنتصف الصبــاح التالي لنصل إلى منزل مســز ويذرسـبون في ويتشـيتا، وبقية ذلك الصيف كان أســى الأسـتاذ سـيئًا جدا حتى ظننت أنه قد يتعرض لخطر الموت هو نفســه، نادرًا ما يتحرك من السـرير، ونادرًا ما يأكل، ونادرًا ما يتحدث؛ باستثناء الدموع التي تنهمر من عينيه كل ثلاث ساعات أو أربع، لم تكن هناك وسـيلة لتعرف إن كنت تنظر إلى رجل أو كتلة مــن الحجارة. كان الرفيق الكبير منهكًا تمامًا، يُدمره الأســى واتهام الــذات، ومهما تمنيــت أن يقلع عن هذا، كانت حالته تسـوء بمرور الأسـابيع، وكان يهمهم أحيانا لنفسه: "رأيت المصيبة قادمة، رأيتها قادمــة، ولم أرفع إصبعا لأوقفها، إنها غلطتــي؛ موتهما غلطتي، لم أفعـل شـيئًا طيبًــا إذا كنت قد قتلتهمــا بيدي، والرجل الــذي يَقتُل لا يستحق الرحمة، لا يستحق الحياة".

ارتجفـت لرؤيته بهذه الحالة، خاملاً لا يفعل شـيئًا مفيدًا، وعلى المــدى البعيد أرعبني ذلك بقدر ما أرعبني ما حدث لأيســوب والأم

سـيوكس ــــ وربما أكثـر، لا أقصد أن أبدو بارد القلب بشــأن ذلك، لكن علينا أن نعيش الحياة، ومصدومًا بمذبحة صديقي، وأنا لا أزال طفـلاً، يرقة صغيرة، متوترًا ومتراخيًا، لم أكن أريد أن أسـتمر في البكاء والحداد لفتـرة طويلة، زرفْتُ دموعي، لعنت الرب، ضربت رأســي في الأرضية، لكن بعد الاستمرار في ذلك لبضعة أيام، كنت علــى استعداد لتـرك ذلك ورائــي والانهماك في أمــور أخرى، لا أفترض أن الكلام مسـتحب جدًا بالنســبةِ لي شخصيًا، لكن لا معنى للتظاهر بأنني أشعر بما لا أشعر به. افتقدْتُ أيسوب والأم سيوكس، تقــت لأن أكون معهما مــرة أخرى- لكنهما رحــلاَ، ولن يعودا بأي قدر من التوســل، كنت أشـعر بأن الوقت حان لنتحرك ونعمل، كان رأسي لا يزال مكتظًا بالأحلام بشأن مهنتي الجديدة، وشَرِهًا بقدر ما قد تكون تلك الأحلام، لم أسـتطع الانتظار لأبدأ، لأنطلق إلى السماء وأذهل العالم بعظمتي.

تخيـل إحباطــي، حينذاك، وأنا أشــاهد يونيو ينتهــي ويوليو يبدأ والأستاذ يهودي لا يزال فاترًا؛ تخيل انهيار روحي المعنوية ويوليو يصبح أغسـطس، ولم يكشــف عن علامة للنهوض من المأســاة. لم يعطــل ذلك خططي فقط، لكنني شــعرْتُ بخيبة الأمــل، بالارتباك، والترنح، تكشــف لي عيبًا جوهريًا في شخصية الأستاذ، وامتعضت منه لافتقاره للصلابة الداخلية، رفضه لمواجهة قذارة الحياة، اعتمدْتُ عليه ســنوات طويلة جدا، وسحبت قوة كبيرة جدًا من قوته، وصار يتصــرف مثل أي متفائل أحمق، صار واحدًا آخر من الرجال الذين يرحبون بالخير حين يأتي ولا يقبلون الشــر، شــعرت بالغثيان حين رأيته يسـقط على هذا النحو، واستمر أســاه، ولم أستطع إلا أن أفقد

بعض إيماني به. ولولا مسز ويذرسبون، كانت هناك فرصة لأن أقبل الهزيمة وأنشق، قالت لي ذات صباح: "أستاذك رجل عظيم؛ ومشاعر الرجال العظماء عظيمة، إنهم يشعرون أكثر من الرجال الآخرين- يستمتعون أكثر، ويغضبون أكثر، ويحزنون أكثر، إنه يتألم الآن، وسيستمر الأمر أطول مما يستمر مع شخص آخر. لا تدع ذلك يفزعك يا والت، سوف يتغلب على ذلك في النهاية، ينبغي أن تصبر".

هذا ما قالت، لكن في أعماقي لا أثق أنها كانت تؤمن بتلك الكلمات. وبمرور الوقت، شعرْتُ أنها بدأت تستاء منه مثلي تمامًا، وأحببْتُ اتفاقنا في تلك المسألة المهمة. كانت مسز ويذرسبون امرأة لاذعة، أعيش في منزلها وأقضي كل يوم في صحبتها، فهمْتُ أن بيننا صفات مشتركة أكثر بكثير مما توقعْتُ، كانت تتصرف بأفضل ما تستطيع حين تزور المزرعة، بكل ذوق وتحفظ حتى لا تزعج أيسوب والأم سيوكس، لكنها الآن على أرضها، حرة في التخلي عن ذلك والكشف عن طبيعتها الحقيقية، في أول أسبوعين، أدهشني تقريبًا كل ما يتعلق بتلك الطبيعة، تتبدى في عادات سيئة ونوبات اندفاعية من الانغماس في الملذات. لا أتحدث فقط عن ولعها بالخمر (ليس أقل من ست كؤوس جن بالصودا أو سبع يوميا)، أو شغفها بالسجائر (تنفث ماركات عتيقة مثل "بكيوني" و"سويت كابورال" من الصباح إلى الليل)، لكن عن انحلال عام مُؤكد، كما لو كان يكمن خلف مظهرها المتأنق روح طليقة لمومس تكافح لتتحرر. كان فمها كلمة السر، وبمجرد أن تتناول دورة أو اثنتين من مشروبها المفضل، تنزلق إلى أكثر اللغات التي سمعتها على الإطلاق من

شـفتي امرأة فظاظة وسـوقية، مطلقة النكت اللاذعة بالسرعة التي تتجشأ بها بندقيةٌ آليةٌ الطلقاتِ، بعد كل الحياة النظيفة التي قضيتها في المزرعة، وجدْتُ من المنعش أن أختلط بسـيدة لا تتقيد بهدف خلقي سـام، كل هدفها في الحياة أن تسـتمتع وتكسـب من المال أقصى ما تستطيع. صرنا صديقين، وتركنا الأستاذ يهودي في كربه وانتظرنا بشـغف نهاية الأيام شديدة الحرارة وسأم الصيف الحار في ويتشيتا.

كنت أعرف إعجابها بي، لكنني لا أريد أن أبالغ في عمق المشاعر، على الأقل في تلك المرحلة المبكرة. كان لدى مسز ويذرسبون سبب محدد لإسـعادي، وبينما كنت أحب أن أشـبع غروري بأنها وجدت في هـذا الصاحب الأصيل، ذلك الرفيق الذكـي المتهور، فقد كانت الحقيقة أنها تفكر في مسـتقبل حسـابها المصرفي، لأي سـبب آخر يمكن لامرأة في نباهتها وجاذبيتها الجنسية أن تهتم بقضاء الوقت مع طفل غر مثلي؟ رأتني فرصة تجارية، دولارًا في شكل ولد، وكانت تعرف أن مهنتي لو وجدت الرعاية الحقيقية والفطنة، فسوف تجعلها أغنى امرأة في البلاد، لا أقول: إننا لم تكن لنا بعض أوقات اللهو معًا، لكنها كانـت دائما في خدمة اهتماماتها، وكانت تتملقني وتشـجعني لإبقائي في الحظيرة، لتتأكد من أنني لن أفر قبل أن تستغل موهبتي.

هكـذا علينـا أن نتقبـل الأمـور، لا ألومها على التصـرف بهذا الشـكل، وإذا كنت مكانها، ربما فعلت الشـيء نفسـه، لا أنكر أنني أحيانًـا أنزعـج من رؤيـة ضآلة تأثير سـحري عليها، طـوال تلك الأسـابيع والشهور الموحشـة واصلت التدريب بشكل روتيني ما لا يقـل عـن سـاعة أو اثنتين يوميًا، وحتـى لا أروّع مـن يمر بجوار المنزل، أبقى في الداخل، أعمل في البهو العلوي والسـتائر منسدلة.

لا يقتصر الأمر على أن مسـز ويذرسبون لم تبال إلا نادرًا بمشاهدة هذه الجلسـات، لكنها أيضا في المـرات القليلة التي دخلت عليَّ فيها صدفة، شـاهدت مشـهد ارتفاعـي دون مبـالاة، وتفحصتني بنظرة خاويـة لجـزار يفحص قطعة مـن اللحم. مهما كانـت الأعمال التي أقـوم بها فذة، تقبلتها بوصفها جزءًا من النظام طبيعي، ليسـت أكثر غرابة أو أصعب تفسـيرًا من سطوع القمر أو صخب الرياح، ربما كانت تسـكر بدرجة تجعلها لا تلاحظ الاختلاف بين معجزة وحدث يومـي معتـاد، أو ربما كان غموضه لا يؤثـر فيها، لكن حين يتعلق الأمر بالتسـلية، تندفع خلال عاصفة ممطـرة لترى معرض صور مـن الدرجة الثالثة أسـرع ممـا تندفع لتراني أطفـو فوق الطاولات والمقاعد في غرفة معيشـتها، لم يكن عملي إلا وسـيلة لغاية بالنسبة لها، ومادامت كانت الغاية مؤكدة، لم تكن لتهتم بالوسيلة.

لكنهـا كانت طيبة معي، وما كنـت لأحرمها من ذلك، مهما تكن دوافعهـا، لـم تبخل علـى اللهو، ولم تتـردد مرة فـي أن تدفع نقودًا لأجلي، بعد يومين من وصولي، أخذتني للتسـوق في وسط ويتشيتا، وزودتنـي بمجموعة جديدة كاملة من الملابس. بعد ذلك كانت هناك قاعـة الآيس كريم، ومحل الحلـوى، وماكينات التسـلية التي تعمل بالنقود، كانت تسبقني بخطوة دائمًا، وحتى قبل أن أعرف أنني أريد شيئًا تعرضه عليَّ بالفعل، وتدفعه في يدي بغمزة وربتة رقيقة على الـرأس، بعـد كل الأوقات الصعبة التي مررْتُ بها، لا أسـتطيع أن أقـول: إنني كنت أرفـض أن أقضي أيامًا في كنـف الرفاهية. كنت أنام في سـرير ناعم بملاءات مزخرفة ووسـائد مـن الريش، وآكل وجبات ضخمة طهتها لنا نيلِّي بوجز الخادمة الملونة، وكنت من قبل

لا ألبس سـروالاً داخليًا يومين متتاليين. كنا في معظم الأيام نهرب عصـرًا من الحر باللف في الريف في السيارة الزمرد، نتجول في الطـرق الخالية والنوافذ مفتوحة والهواء يندفع إلينـا من الجانبين، كانت مسز ويذرسبون تحب السرعة، وأظن أنني لم أرها أسعد مما كانت وهي تضغط قدمها على دواسـة الوقود: ضاحكة بين جرعات من قارورتها الفضية، وشـعرها الأحمـر المعقود يرفرف طليقًا، لم يكن لدى المرأة مخاوف، أو إحساس بأن سيارة تسير بسرعة سبعين ميـلاً أو ثمانين في السـاعة يمكـن أن تقتل فعليًا شـخصًا ما، فعلْتُ أقصى ما في وسـعى لأبقى هادئًا وهـي تنطلق بها على هذا النحو، لكن بمجرد أن نصل إلى خمسـة وسـتين أو سـبعين لم أكن أسيطر علـى نفسـي. كان الفزع المتفجـر داخلي يؤثر علـى معدتي، وبعد وقت قصير تخرج مني ضرطة بعد أخرى، سلسلة كاملة من القنابل يصاحبها موسـيقى صاخبة متقطعة. ولا أحتاج إلى أن أضيف أنني كنت أموت تقريبًا من الخجل، لأن مسز ويذرسبون لم تكن شخصية تـدع حماقة من هذا النـوع تمر دون تعليق، عندمـا حدث ذلك أول مرة، أطلقت ضحكة قوية جدا حتى إنني ظننْتُ أن رأسها طار بعيدًا عن كتفيها. ثم دون سـابق إنذار، داسـت بقوة على الفرامل وأوقفت السيارة، وهي تتدحرج وترتجف مثل قلب.

قالت: "بضع روائع أخرى من هذا النوع، ويكون علينا أن نسير بالسيارة ونحن نضع أقنعة غاز".

قلت مقدمًا الرد الوحيد الممكن: "لا أشم شيئا".

استنشقت مسز ويذرسبون بصوت مرتفع، ثم لوت أنفها وعبرت عن اشـمئزازها: "شـم ثانية، يـا رفيق؛ إن فرقة كاملـة من الفتيان تسافر معنا، تنتزع أحلامًا وردية من مؤخرتك".

قلـت، مغيـرًا التكتيك بمهـارة: "مجرد قليل من الغـاز، وإذا لم أخطئ، لن تسير السيارة إلا إذا ملأتها بالغاز".

"يعتمد الأمر على "الأوكتان" يا حبيبي، التجربة الكيميائية التي نناقشها هنا، يمكن أن تفجرنا".

"أجـل، حسـنا، إنها علـى الأقل طريقـة للموت أفضـل من أن نصطدم بشجرة".

قالت: "لا تقلق يا سكر"، خافضة نبرتها بشكل غير متوقع، مدت يدها ولمست رأسي، وبرقة مشت بأناملها بين شعري: "إنني سائقة رائعة جدا. مهما كانت السـرعة التي نسـير بها، أنت آمن دائما مع ليدي ماريون".

قلْتُ، مسـتمتعا بضغط يدها على فروة رأسي: "يبدو ذلك طيبًا، لكنني سأشعر بأنني أفضل بكثير إذا كتبت ذلك".

أطلقتْ قهقهة قصيرة من حنجرتها وابتسمت، وقالت: "هذه فكرة للمستقبل، إذا كنت تعتقد أنني أسير بسرعة كبيرة جدا، أغلقْ عينيك فقط وصِخ، كلما صخْتَ أعلى سيكون الأمر أكثر بهجة بالنسبة لكلينا".

وهذا مـا فعلْتُ، أو على الأقل ما حاولْتُ أن أفعله. في الرحلات اللاحقة كنت أسـعى دائما إلى غلق عيني حين يصل مؤشر السرعة إلى خمسـة وسـبعين، لكن في مرات قليلة كانت الضرطات تتسـلل عنـد السـبعين، وتسـللت ذات مـرة عند خمسـة وسـتين (حين بدا الأمـر وكأننـا على وشـك الاصطدام بشـاحنة قادمـة وابتعدت في الثانيـة الأخيـرة). لم تؤثر هذه الزلات على تقديـري لذاتي، لكن لم يكن هناك أسـوأ مـن الصدمة التي حدثت في أوائل أغسـطس حين

تسـرب كل شـيء وانتهى بي الأمر إلى التبرز في سـروالي، كان يوما حارا بشـكل بشع، لم تسقط أمطار لأسبوعين، وكل ورقة على كل شـجرة في الريف المنبسـط مغطاة بالغبار، ومسـز ويذرسبون أكثر سُكرًا بقليل من المعتاد، على ما أظن، وحين خرجنا من حدود المدينة دخلت في حالة من حالات الإثارة البشعة، دفعتْ عربتها فوق الخمسـين في الطلعة الأولى، وبعد ذلك لم يكن هناك ما يوقفها. كان الغبار يتطاير في كل مـكان، تدفق على الزجاج الأمامي، يتراقص في ملابسنا، يضرب أسناننا، ولم تفعل شيئا سوى الضحك، ضاغطة على دواسة البنزين كما كانت تسعى إلى كسر رقم "موكي دجوي". أغلقت عيني وصرخت كما ينبغي، متشبثا بلوحة العدادات والسيارة تنطلق وتهدر عبر الشـارع الجاف المغطى بالحصى، بعد عشـرين ثانية أو ثلاثين من تصاعد الهلع أدركت أن قتلى وشـيك، سـأموت علـى ذلـك الطريق الغبي، وتلـك لحظاتي الأخيـرة على الأرض، وحين ذلك انزلق البراز من الشـرخ: اندفع سـيجار رخو وزلق إلى السـروال الداخلـي ببلل دافئ مقزز، وبدأ ينزلق إلى سـاقي، وحين أدركْتُ ما حدث، لم أسـتطع التفكير في استجابة أفضل من الانفجار في البكاء.

وأثناء ذلك استمرت في قيادة السيارة، وحين توقفت السيارة بعد عشـر دقائق أو اثنتي عشـرة دقيقة، كنت قد نُقِعْتُ تماما- في العرق والبراز والدموع، غرقت في كتلة من السوائل والبؤس.

أعلنت مسز ويذرسبون، وهي تشعل سيجارة لتستمتع بانتصارها: "حسـنا، يا راعـي البقر- فعلناهـا- حطمنا علامة القـرن، أراهنك علـى أننـي أول امرأة فعلت ذلك على الإطـلاق في كل هذه الولاية المتزمتة، ما رأيك؟ جيد جدا لعجوز مثلي، أليس كذلك؟"

قلْتُ: "لسْتِ عجوزًا يا مدام".

"آه، رائع أقدر ذلك؛ تتعامل برقة مع السيدات، يا فتى، ستصرعهن خلال بضع سنوات بهذا النوع من الحديث".

كنت أرغب في الاستمرار في الحديث معها على هذا النحو، بهدوء تام ويسر وكأن شيئا لم يحدث، لكن وقد توقفت السيارة، يمكن ملاحظة الرائحة المنبعثة من سروالي، وكنت أعرف أنها مسألة ثوان وينكشف سري. لسعني الخزي مرة أخرى، وقبل أن أنطق بكلمة أخرى، كنت أبكي في يدىَّ بجوارها.

سمعتها تقول: "يسوع، يا والت، يا يسوع العظيم؛ فعلتها هذه المرة، أليس كذلك؟"

قلت، دون أن أجرؤ على النظر إليها: "آسف، لم تكن لي حيلة في الأمر".

"ربما نتيجة كل تلك الحلوى التي أطعمتك إياها، بطنك ليست معتادة عليها".

"ربما، أو ربما فقط أفتقر إلى الشجاعة".

"لا تكن غبيًا يا فتى، تعرضت عموما لحدث تافه، يحدث للجميع".

"بالتأكيد، يحدث مادام كان المرء يضع حفاضة، لم أرتبك هذا الارتباك قط في حياتي كلها".

"انسَ، ليس هذا وقت الأسف على نفسك، علينا أن ننظف تلك المؤخرة الصغيرة قبل أن ينز منها أي براز على المقعد، هل تسمعني يا والت؟ لا أبالي بحركات أمعائك البشعة، أريد فقط ألا

تحمل سـيارتي هـذا البلاء، خلف هذه الشـجرة بركـة، وإلى هناك آخذك الآن، ننظف الخردل والبهارات، وتعود في حالة جيدة وكأنك شخص جديد".

لم يكن أمامي إلا الذهاب معها، كان أمرًا بشـعًا تمامًا أن أنهض وأسـير، ماذا عما يحدث في سـروالي الداخلي من حركة وانزلاق، وحيث إنني لم أقمع بكائي، واستمر صدري في الارتفاع والارتجاف، مُطلقًا أصواتًا غريبة شـبه مكتومة. سارت مسز ويذرسبون أمامي، متجهة إلى البركة، كانت تبعد عن الطريق بمائة قدم تقريبا، معزولة عمـا يحيط بها بحاجـز من الأشـجار والشـجيرات الهزيلة، واحة صغيـرة وسـط البراري، حين وصلنـا إلى حافة الميـاه، طلبت أن أخلع ملابسـي، وهي تحثني بنبرة حازمـة، لم أكن أرغب في ذلك، علـى الأقل وهي تنظر إليَّ، لكن بمجرد أن أدركت أنها لن تعطيني ظهرها، ثبتُّ عيني على الأرض وأذعنت للمحنة، في البداية خلعت لـي حذائي ونزعت جوربـي؛ ثم ودون أي توقـف، فكت حزامي، وأزرار بنطلوني وشـدته، سـقطت الملابس الداخلية إلى كاحلي في شدة واحدة، وهناك كنت أقف وعضوي مكشوف أمام امرأة ناضجة، وسـاقاي البيضاويان ملوثتان بعصيدة بنية وفتحة الشرج تفوح منها رائحة كريهة وكأنها زبالة عفنة. كانت بالتأكيد من اللحظات السـيئة في حياتي، لكن مسـز ويذرسبون بأريحية (وهو فضل لم أنسه قط) لـم تصدر صوتا، لم تصدر أنَّةَ اشـمئزاز، ولم تلهث. بكل عطف أم تحمِّي رضيعها، غمست يديها في الماء وبدأتْ تنظيفي، ترش وتحك جلدي العاري حتى محت كل آثار العار.

قالت وهي تنشفني بمنديل سحبته من حقيبتها الحمراء المرصعة بالخرز: "البعيد عن العين بعيد عن العقل".

قلت: "حسنا، لكن ماذا نفعل بهذه الملابس الداخلية القذرة؟"

"نتركهـا للطيـور، هذا ما يجـب، وينطبق الأمر علـى النباتات أيضا".

"وتتوقعين أن أعود إلى البيت بهذا الشـكل؟ دون أية هدمة على مؤخرتي؟"

"لماذا لا؟ ذيـل قميصك يصل إلى ركبتيك، وعلى أية حال ليس هناك الكثير مما تحتاج إلى إخفائه. إننا نتحدث عن أمور ضئيلة جدا يا بني، جواهر تاج بلاد الأقزام".

«لا تطْعنـــي فيما يخصني يا مــدام، ربما تكون تافهة في نظرك، لكنني أزهو بها بالقدر نفسه».

«تزهـو بها بالطبع، والعصفور الجميل يزهو بها يا والت، بتلك البندقتيـن وبالوركين الناعميـن لبيبي دُلّ. لديك كل ما يؤهلك لتكون رجلا»- وهنا، مما أذهلني بشكل هائل، أمسكت بالكتلة كلها في كفها وهزتها برفـق- «لكنك لم تصبح رجلا بعد، وبالإضافة إلى ذلك لن يراك أحد في السيارة. لن نذهب إلى قاعة الآيس كريم اليوم وسنعود مباشـرة إلى البيت، وإذا كان ذلك يجعلك أفضل، سـأدخلك المنزل مـن الباب الخلفي، ما رأيك في ذلـك؟ أنا الوحيدة التي أعرف ذلك، ويمكنك أن تكون على يقين تام من أنني لن أقول لأحد أبدًا».

«ولا حتى الأستاذ؟»

«وخاصـة الأسـتاذ، ما حدث هنا اليوم سـر بيني وبينك بشـكلٍ قاطع».

يمكن أن تكون هذه المرأة شخصية جيدة، وإذا وضعنا هذا الأمر في الاعتبار، كانت الأفضل، في أوقات أخرى، رغم ذلك، لم أعرف رأسها من ذيلها، بمجرد أن تعتقد أنها الصدر الحنون، تنقلب وتفعل شيئا غير متوقع- تضايقك، مثلا، أو تزجرك، أو تتجاهلك- ويتحول العالم الصغير الجميل الذي تعيش فيه فجأة إلى عالم بغيض؛ كانت هناك أشياء كثيرة لا أفهمها، أشياء تتعلق بعالم الكبار تتجاوز إدراكي، لكنني بدأتُ تدريجيًا أفهم أنها كانت تتوق للأستاذ يهودي، كانت تنغمس في الكآبة وهي تنتظر قدومه، وإذا استمرت الأمور فترة أطول بكثير، ما كنت أشك في أن تنفجر غضبًا.

جاءت نقطة التحول بعد ليلتين من حادث التبرز، كنا نجلس على كراسي الحديقة في الفناء الخلفي، نشاهد اليراع يندفع إلى الشجيرات ويخرج منها ونستمع إلى صرار الليل يغني أغانيه الرنانة. كان ذلك بمثابة تسلية هائلة في تلك الأيام، حتى فيما يعرف بالعشرينيات الصاخبة، أكره فضح زيف الأساطير الشعبية، لكن لم ينتشر الكثير منها في ويتشيتا، وبعد شهرين من ترك ذلك الحصن الهادئ من أجل الصخب واللهو، استنفدنا الموارد المتاحة، شاهدنا كل الصور المتحركة، أكلنا كل أنواع الآيس كريم، لعبنا بكل ماكينات البنبول، وأخذنا دورة في كل مدن الملاهي، لم يعد الأمر يستحق جهد الخروج، ومرت ليال عديدة ونحن نجلس فقط، تاركين الخدر ينتشر في عظامنا مثل مرض قاتل، كنت أشفط كأسا من عصير الليمون الفاتر في تلك الليلة، على ما أتذكر، ومسز ويذرسبون في نوبة أخرى من نوبات سُكرها، ولم يكسر أحدنا الصمت لأكثر من أربعين دقيقة.

قالت أخيرًا، متتبعة مسارًا غامضًا من مسارات التفكير: «اعتدْتُ أن أعتقد، اعتدت أن أعتقد أنه أجرا جوادا يمكن أن يخرج من الإسطبل».

أخذت رشفة من مشروبي، وتطلعت إلى النجوم في سماء الليل، وتثاءبْتُ، قائلا: «من؟»، ولم أبال بالتخلص من ضجري.

«من تظن يا سكير؟» كان كلامها متلعثمًا ومن الصعب فهمه، لو لم أكن أعرفها بشكل جيد لاعتبرتها حمقاء غبية.

«أوه»، قلْتُ، مدركًا فجأة إلى أين تتجه المحادثة.

«أجل، ذلك الشخص، مستر بيردمان، ذلك هو الشخص الذي أتحدث عنه».

«حسنا، إنه في حالة سيئة يا مدام، تعرفين ذلك، وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نتمنى لروحه أن تبرأ قبل فوات الأوان».

«لا أتحدث عن روحه يا مغفل، أتحدث عن قضيبه، إنه لا يزال لديه واحد، أليس كذلك؟»

«أظن ذلك، لم أعتد أن أسأله عنه».

«حسنا، على الرجل أن يقوم بمهمته، لا يمكن أن يترك فتاة في وضع صعب لشهرين ويتوقع أن يفلت من العقاب، لا تسير الأمور بهذا الشكل، المرأة تحتاج إلى الحب، تحتاج إلى أن تدلل وتطعم، بالضبط مثل أي حيوان آخر».

حتى في الظلام وليس هناك من يرى، شعرْتُ بالخجل: «هل أنت متأكدة من أنك ترغبين في أن تحدثيني عن ذلك يا مسز ويذرسبون؟»

«ليس هناك شــخص آخــر يا حبيبي، وبالإضافــة إلى ذلك، أنك كبيــر بما يكفي لأن تعرف هذه الأمــور، ألا تريد أن تمارس الحياة مثل كل أولئك الأغبياء الآخرين، أليس كذلك؟».

«تصورت دائما أنني سأترك الطبيعة ترعى نفسها».

«أنت مخطئ، على الرجل أن يرعى جرة عســله، عليه أن يتأكد من أن الســدادة محكمة وأنها لن تسمح بتسرب العصارة. هل تسمع ما أقول؟».

«أظن ذلك».

«تظن ذلك؟ أية إجابة غبية هذه؟»

«أجل، أسمعك».

«ليس لأنه لا تتوفر لي عروض أخرى، تعرف، أنني فتاة صغيرة بصحة جيدة، وأنا معتلة ومرهقة من الانتظار على هذا النحو، كنت أخدع نفسي طوال الصيف، ولن يحتمل أكثر، لا أستطيع أن أوضح الأمر أكثر من ذلك، أليس كذلك؟».

«مــا ســمعته؛ أنك بالفعــل رفضْتِ الــزواج من الأســتاذ ثلاث مرات».

«حسنا، تغيرت الأمور، أليس كذلك يا مستر مُدِّع؟»

«ربما تغيرت، وربما لا؛ لا أعرف».

كانت على وشــك التحول إلى البشــاعة، ولم أرغب في أي شيء من ذلك ـ أن أجلس وأســتمع إلى حماقتها عن خيبة أمل فرجها، لم

أكن مستعدا للتعامل مع هذا النوع من المواضيع، ومنزعجًا كما لو كنت الأستاذ نفسه، لم يكن لدي قلب لأنضم إليها في الهجوم على رجولته. كان يمكن أن أنهض وأنصرف، على ما أظن، لكنها كانت ستبدأ الصراخ في وجهي، وبعد تسع دقائق يكون كل رجال شرطة ويتشيتا معنا في الفناء، يسحبوننا إلى السجن بتهمة تعكير الهدوء.

وقد كان، لم أكن في حاجة إلى القلق، قبل أن تنطق بكلمة أخرى، انفجر صوت عال فجأة من داخل المنزل، أظن أنه كان صوت دوى أكثر مما هو صوت انهيار، انفجار طويل أجوف تبعه على الفور عدة ضربات مدوية: صفع، صفع، صفع، وكأن الجدران على وشك الانهيار. لسبب ما رأت مسز ويذرسبون ذلك ممتعا، ألقت برأسها إلى الخلف في نوبة ضحك، وفي الثواني الخمس عشرة التالية اندفع الهواء من حنجرتها مثل سرب من الجنادب الطائرة. لم أسمع ضحكة بهذا الشكل من قبل. بدت مثل واحدة من الأوبئة العشرة[1]، مثل مائتي جن، مثل أربعمائة ضبع تجوب شوارع «كريزي تاون»، ومع استمرار الضربات، بدأت تصيح بأعلى صوتها. صرخت: «هل تسمع؟ هل تسمع، يا والت! إنها أنا! إنه صوت أفكاري، صوت الأفكار تثب في دماغي! مثل الفشار بالضبط يا والت! جمجمتي تكاد تنفلق إلى اثنتين! ها، ها! رأسي كله يكاد ينفجر إلى أشلاء!»

حينذاك بالضبط، حل مكان الضربات صخب تكسير زجاج، انكسر أول شيء ثم الثاني: أكواب، مرايا، قنينات، وابل صم الأذن،

---

(١) الأوبئة العشرة: الإشارة إلى الأوبئة العشرة التي اجتاحت مصر كما وردت في العهد القديم، أو ما يعرف بالأوبئة التوراتية، وقد ورد ذكرها في سفر الخروج من الإصحاح السابع إلى الثاني عشر.

كان من الصعب معرفة ما يحدث، لكن كل شـيء كان يتحطم بشكل مختلف، واستمر الأمر لوقت طويل، قد أقول لأكثر من دقيقة، وبعد الثوانـي القليلـة الأولى كانت الجلبـة في كل مـكان، كان الليل كله يصرخ بصـوت الزجاج المحطم. دون حتـى أن أفكر، قفزْتُ على قدمي وعدوت باتجاه المنزل، حاولت مسـز ويذرسبون أن تتبعني، لكنها كانت سكرانة بدرجة لا تجعلها تتحرك مسافة كبيرة، كان آخر مـا يمكن أن أتذكـره أن أنظر خلفي وأرى عثرتهـا- انبطحت على وجهها، بالضبط مثل مدمن في الرسوم الهزلية، أطلقت صرخة، ثم - مدركة أنه لا جدوى من محاولة النهوض- بدأت في نوبة أخرى من القهقهـة، تركتها على هذا النحـو: تتدحرج على الأرض وتضحك، مفرغة أحشاءها المسكينة الممتلئة بالخمور على كل أرجاء الحديقة.

الفكرة الوحيدة التي ومضت في رأسـي أن شخصًا اقتحم المنزل وهجم على الأسـتاذ يهـودي؛ لكنني حين دخلت مـن الباب الخلفي وبدأت أتسـلق السـلالم، سـاد الهدوء مرة أخرى. بدا ذلـك غريبًا، والأكثـر غرابـة ما حـدث بعد ذلك. سـرْتُ في الردهـة إلى غرفة الأسـتاذ، وطرقت الباب بتردد، وسـمعته ينادينـي بصوت طبيعي واضـح تمامًا: «ادخل». وهكذا دخلت، وكان هناك الأسـتاذ يهودي نفسـه، يقف في روب الحمام وشبشـب في وسـط الغرفة، ويداه في جيوبـه وعلـى وجهه ابتسـامة ضئيلة تنم عن فضـول، كان كل ما حولـه محطما، السـرير عشـر قطع، والجـدران مثقوبـة، ومليون ريشة بيضاء تسبح في الهواء، أطر لصور محطمة، زجاج محطم، مقاعـد محطمـة، أجزاء محطمـة من أشـياء غير معروفـة- كلها مُلقـاة على الأرض مثل الأنقاض. سـمح لي بثانيتين لأسـتوعب ما أرى، ثـم تكلـم، يخاطبني بهـدوء رجل خرج للتو مـن حمام دافئ،

قال: «مســاء الخير يــا والت. ماذا أتى بك إلى هنا في هذه الســاعة المتأخرة؟»

قلت: «الأستاذ يهودي، هل أنت بخير؟»

«بخير؟ بالطبع إنني بخير، ألا أبدو بخير؟»

قلت مُشـيرًا على الدمار تحت قدمي: «لا أعرف، أجل، حســنا، ربمــا تبــدو بخير، لكن هــذا، ماذا هــذا؟ لا أســتوعب، المكان يعج بالفوضى، إنه محطم تماما».

«تمرين في التطهر يا بني».

«تمرين في ماذا؟»

«لا بأس، إنه نوع من طب القلوب، بلسم للأرواح المعتلة».

«هل تعني أنك تخبرني بأنك فعلت كل هذا بنفسك؟»

«كان ينبغي أن يحدث؛ آســف على الفوضى، لكن كان ينبغي أن يحدث ذلك عاجلا أو آجلا».

من الطريقة التي نظر بها إليَّ، شــعرْتُ أنه عاد إلى ذاته القديمة المفعمة بالحيوية، اســتعاد صوته نبرته المتغطرسة، وبدا أنه يخلط العطــف والتهكم بالبراعة القديمة المألوفــة، قلت وأنا لا أجرؤ على التمنــي: «هل يعني ذلك، هل يعني ذلك أن الأمور ســتكون مختلفة الآن؟»

«إننــا مضطرون إلى تذكر الموتى؛ إنه قانــون جوهري، إذا لم نتذكرهم، فســوف نفقد الحق في أن نصف أنفســنا بالإنســانية، هل توافقني يا والت؟»

«نعم، يا سير، أوافقك، لا يمر يوم لا أتذكر فيه حبيبينا العزيزين وما حدث لهما؛ إن ذلك مجرد..».

«مجرد ماذا يا والت؟»

«لكن ذلك الوقت يضيع، ومن الظلم ألا نفكر في أنفسنا أيضا».

«لك عقل ذكي يا بني، ربما لا يزال هناك أمل بالنسبة لك».

«لا يتعلق الأمر بي فقط، تفهم؛ هناك مسز ويذرسبون أيضا، تصرفت في الأسبوعين الأخيرين بشكل هستيري تمامًا. إذا لم تخدعني عيناي الآن، أعتقد أنها فقدت الوعي في الحديقة، وأنها تغط في بركة من قيئها».

«لن أعتذر عن أمور ليست في حاجة إلى اعتذار، فعلت ما ينبغي عليَّ، واستغرق ما استغرق، الآن يبدأ فصل جديد. فرت العفاريت، وانقشعت ظلمة ليل الروح»، سحب نفَسًا عميقًا، وأخرج يديه من جيوبه، وقبض على كتفي بقوة: «ماذا تقول أيها الفتى؟ هل أنت مستعد لتفرجهم على أعمالك؟»

«مستعد يا ريس، تأكد من أنني مستعد، جهز مكانا فقط لي وأنا أفعلها، وأنا ولدك إلى أن يفرق الموت بيننا».

قدمت أول عرض عام في ٢٥ أغسطس ١٩٢٧، وظهرت باسـم والـت الولد العجيب لحجز لعـرض واحد في معرض مقاطعة باوني في لارند بولاية كانســاس، كان من الصعب أن أتخيـل ظهـورًا أول أكثر تواضعًا، لكن كمـا تبين، كاد أن يكون عرضي الأخير. لم يكن ذلك لأني أديت العرض بشكل سيئ، بل لأن الجمهور كان فظًا جدا ووضيعًا، مليئًا بالسكارى والصائحين، ولولا تصرف الأستاذ بذكاء ربما لم أعش لأرى يومًا آخر.

أحاطوا بالحبال حقلاً على الجانب الآخر من معارض البساتين، بجوار الأكشــاك ومعهم كيزان ذرة ضخمة وبقرة برأسين وخنزير وزنه سـتمائة رطل، وأتذكر أننا سرنا ما يقرب من نصف ميل قبل الوصـول إلى بركة صغيرة بها مــاء أخضر قاتم وزبد أبيض يطفو على السطح، أذهلتني بشاعة المكان لتقديم هذا الحدث التاريخي، لكن الأستاذ أراد أن أبدأ صغيرًا، بأقل قدر ممكن من الضجة والصخب. قال لي ونحن ننزل من سـيارة مسز ويذرسبون: «حتى تي كوب[١] لعـب فــي دوري الأحراش. عليك أن تؤدي بعـض العروض تحت المسـتوى الذي تراهن عليه. أدِّ بشكل جيد هنا، وسنبدأ الحديث عن ازدهار عظيم خلال بضعة أشهر».

ولســوء الحظ لم يكن هناك مــدرج للمتفرجين، مما أدى إلى قدر كبيــر من إرهاق السـيقان والشــكاوي بالتأكيد، ومع تذاكر بعشــرة سـنتات، كان الجمهور يشــعر بالخداع قبل أن أدخل، لم يكن هناك أكثــر من ســتين أو ســبعين مــن مجموعــة من الأجــلاف الأغبياء

---

(١) تــي كوب (١٨٨٦-١٩٦١): لاعب بيســبول أمريكي شــهير، حقق أرقامًا قياسية في عدة بطولات كبرى.

يرتدون أفرولات وقمصانًا مـن القطن- كانوا مندوبين من المؤتمر الدولـــي الأول للمتخلفين، وكان نصفهم يتجرعون خمورًا رديئة من قنينات بنية صغيرة لأدوية الكحة وانتهى النصف الآخر من قنيناتهم ويتوقون للمزيد. حين خطا الأستاذ يهودي إلى الأمام في سترة سوداء وقبعة من الحرير ليعلن للعالم عن العرض الأول لوالت الولد العجيب، بدأ التعليق والجدل. ربما لم تعجبهم ملابســه، وربما اعترضوا على لهجته، لهجة بروكلين بودابســت، لكنني متأكد من أنه لم يصلح من الأمر أن أرتدي أسـوأ الأزياء في سـجلات صناعــة الترفيه: روبا أبيض طويلا جعلنـــي أبدو مثل قزم يوحنا المعمدان، يكتمل بصندل مــن الجلــد وحزام من خيــوط القنب مربوط حــول خصري، أصر الأستاذ على ما يسميه «مظهر من العالم الآخر»، لكنني بدوت مثل أحمق في ذلك الشــكل، وحين ســمعت مهرجًا يصيح بأعلى صوته ـــ «والت الفتـــاة العجيبة» ـ أدركـت أنني لا أشــعر بذلك وحدي.

إذا كانت الشــجاعة قد واتتني لأبدأ، فقد كان ذلك بســبب أيسوب فقــط، كنت أعــرف أنـــه ينظر إلى مــن حيثمــا كان، ولــن أخذله، كان يعتمــد علـــى لأتألــق، ومهما ظن بـــي هؤلاء الرعـــاع الحمقى الســكارى، فإنني أدين لأخي بتقديم أفضل ما أســتطيع، ســرْتُ إلى حافة البركة واســتغرقت فــرد الذراعين والنشــوة، مكافحًا لتجاهل الصفير والإهانات، ســمعْتُ بعض التأوهــات والآهات حين ارتفع جســمي عــن الأرض- لكن بشــكل مبهم، بشــكل مبهم فقــط، لأنني بالفعــل كنت في عالم منفصل، منفصلا عــن الصديق والعدو أيضًا فـــي مجد صعودي، كان أول عروضـــي على الإطلاق، لكنني كنت أبــدو بالفعــل مثل شــرطي، وأنـــا متأكد مــن أنني يمكــن أن أتغلب علـــى الجمهور لــولا الأحمق الــذي أخذ على نفســه أن يقذف قنينة

باتجاهي، تسع عشرة مرة من عشرين، تسبح القذيفة بجواري دون أن تصيبني بأذى، لكنه كان يوم الرميات والمحاولات الخطأ، وقذف ذلك الشيء اللعين بعض الشراب في الرأس، أفسدت الضربة تركيزي (ناهيك عن فقد الوعي)، وقبل أن أعرف رأسي من قدمي، كنت أغطس مثل حقيبة ثقيلة إلى قاع المياه، لو لم يكن الأستاذ يقف على أطراف أصابعه ليغوص خلفي دون أن يبالي بخلع معطفه وثيابه الرسمية، ربما غرقت في تلك الحفرة القذرة الموحلة، لتكون أول صفعة وآخر صفعة أتلقاها.

وهكذا غادرنا لارند في خزي، منطلقين خارجها وأولئك البلهاء المتعطشون للدماء يقذفوننا بالبيض والحجارة والبطيخ، وبدا أن لا أحد اهتم باقترابي من الموت نتيجة تلك الضربة في الرأس، وواصلوا الضحك والأستاذ الرائع ينقذني من السكارى ويحملني إلى الأمان في سيارة مسز ويذرسبون. كنت لا أزال فيما يشبه الهذيان من زيارتي لقاع البركة، وسعلتُ وتقيأت على قميص الأستاذ وهو يجري عبر الحقل وجسمي المبلل يرتعد في ذراعيه، لم أسمع كل ما قيل، لكن وصل ما يكفي إلى أذني لأعرف أن الآراء بشأننا انقسمت بحدة. تبنى البعض النظرة الدينية، مؤكدين بوقاحة أننا متحالفون مع الشيطان، ووصفنا آخرون بأننا مشعوذون ودجالون، وهناك آخرون لم يكن لهم رأى على الإطلاق. كانوا يصيحون لمتعة خالصة في الصياح، سعداء فقط لمجرد كونهم جزءًا من الأذى وهم يندفعون بصرخات غضب غير مصحوبة بكلمات، ولحسن الحظ، كانت السيارة في انتظارنا في الجانب الآخر من المنطقة المحاطة بالحبال، ونجحنا في دخولها قبل أن يلحق بنا الأجلاف، اصطدمت بضع بيضات في الزجاج الخلفي ونحن ننطلق بالسيارة، لكن الزجاج لم يتحطم، ولم تدوِّ طلقات، وعموما أظن أننا كنا محظوظين بالهروب بجلدنا.

لابد أننا سرنا ميلين قبل أن يجد أحدنا الشجاعة لينطق بكلمة، كنا في المزارع والمراعي، نقطع شارعا جانبيا وعرا في ثيابنا المنقوعة في المياه لدرجة التشبع. مع كل رجة من السيارة، تندفع دفقة أخرى من ماء البركة وتسقط على المقاعد الجلدية الفاخرة في سيارة مسز ويذرسبون، يبدو الأمر مضحكا وأنا أرويه الآن، لكنني لم أكن لأغرى بالضحك إطلاقًا حينذاك، كنت أجلس هناك فقط مُنهكًا في المقعد الأمامي، محاولاً السيطرة على مزاجي وأتصور الخطأ الذي حدث، رغم أخطاء الأستاذ وسوء تقديره، لم يبد من الإنصاف أن أوجه له اللوم، كان غارقا في أشياء كثيرة، وكنت أعرف أن الأمر لم يكن كما ينبغي إطلاقًا، لكن غلطتي أنني وافقته، ما كان ينبغي قط أن أسمح لنفسي بالاندماج في مثل هذه العملية التي تم تقييمها والتخطيط لها بشكل سيئ، كان هدفي على الخط هناك، وكان على أن أتذكر أن حمايته مسئوليتي.

قال الأستاذ باذلاً أقصى ما يستطيع ليرسم ابتسامة: «جسننا يا رفيق، مرحبا بك في عالم الترفيه».

قلت: «لم يكن عالم ترفيه، ما حدث هناك كان هجوما واعتداء، يشبه الدخول في كمين والسلخ».

«إن التعامل مع الجمهور فظاظة وفوضى، يا بني. بمجرد رفع الستارة، لا تعرف أبدًا ما يحدث».

«لا أقصد أن أكون قليل الأدب يا سيدي، لكن هذا الكلام ليس إلا هراء».

قال، مستمتعا بردي الشجاع: "أوه هُوْ؛ الفتى الصغير في نوبة غضب، وأي كلام تفترض أن ننهمك فيه يا مستر رولي؟"

"حديث عملي يا سير، حديث يجعلنا نتوقف عن تكرار أخطائنا".

"لم نرتكب أخطاء، واجهنا فقط جمهورًا رديئًا، هذا كل ما في الأمر، أحيانًا تكون محظوظًا، وأحيانا لا تكون".

"لا علاقة لهذا بالحظ؛ فعلنا اليوم الكثير من الأمور الغبية، ودفعنا الثمن في النهاية".

"أظن أنك كنت ممتازا، لولا القنينة الطائرة لكان نجاحًا عظيما".

"حسنا، لأمر ما، أود بصدق أن أتخلص من هذه الثياب؛ إنها تتعلق بأفظع جزء رأيته على الإطلاق للفت أنظار الجمهور، لسنا في حاجة إلى زخارف تتعلق بالعالم الآخر، ينال العرض قدرًا كافيًا من هذا بالفعل، ولا نريد أن نربك الناس بارتداء ملابس مَلَك غريب - إنها تنفرهم - تجعلني أبدو وكأنني أفترض أنني أفضل منهم".

"أنت أفضل يا والت، لا تنسَ ذلك أبدًا".

"ربما يكون الأمر كذلك، لكن بمجرد أن نشعرهم بذلك نغرق، كانوا ضدي حتى قبل أن أبدأ".

"لا علاقة للملابس بذلك، كانوا جماهير من السكارى، ملوثين حتى النخاع، حُولا، لم يروا حتى ما فعلته".

"أنت أفضل المعلمين يا أستاذ، وأنا ممتن حقًا لك لإنقاذ حياتي اليوم، لكن في هذه النقطة الخاصة، أنت مخطئ بقدر ما يخطئ أي

إنسان، تفوح من الملابس رائحة كريهة، آسف أن أكون فظا بهذا الشكل، لكنني لن أرتديها مرةً أخرى مهما صحت في وجهي".

"لماذا أصيح في وجهك؟ إننا معًا في هذا يا بني، وأنت حر في التعبير عن آرائك، أخبرني بما عليك أن تفعله".

"على مستوى؟"

"رحلة العودة إلى ويتشيتا طويلة، ولا مبرر لمناقشة هذه الأُمور الآن".

قلت، قافزًا خلال الباب الذي فتحه لي للتو: "لا أريد أن أتذمر، لكن هكذا أرى الأمر، لن يسعى إلينا الناس إلا إذا كسبنا من البداية، هؤلاء الحمقى لا يحبون أي شيء فاخر، لم يعتادوا على البدلة الفخمة التي ترتديها، ولم يعتادوا على ملابس الشواذ التي أرتديها، وكل هذه المبالغات التي دفعتهم إليها في البداية- لم تحتملها عقولهم".

"لم يكن إلا هراء، علينا فقط أن ندخلهم في حالة مزاجية مناسبة".

"بصرف النظر عما تقول، كيف نتجنب ما حدث مستقبلا؟ ليكن الأمر بسيطًا وشعبيًا، تعرف شيئًا مثل "سيداتي وساداتي، أتشرف بأن أقدم"، ثم تتراجع وتجعلني أتقدم، إذا ارتديْتَ بدلة قديمة عادية من القطن وقبعة جميلة من القش، لن ينزعج أحد، سوف يعتقدون أنك شخص ودود طيب القلب خرج ليكسب رزقه بشرف، هذا هو المفتاح، الأمر كله. تجولت أمامهم مثل فلاح صغير مندهش لا يعرف شيئا في أفرول من القطن وقميص من الصوف، دون حذاء، دون جورب، شخص تافه حافٍ مثلهم، مثل أبنائهم وأبناء

إخوتهم، يلقون نظرة عليَّ ويسترخون كأنني فرد من العائلة، وحين أبدأ الارتفاع فيها في الجو، تخذلهم قلوبهم، الأمر بهذه البساطة. هدئهم، وفاجئهم بالضربة؛ ذلك جيد بالضرورة دقيقتان في العرض، وسوف نروضهم تمامًا".

استغرقت الرحلة إلى البيت ثلاث ساعات تقريبًا، تكلمت طوال الطريق، معبرًا عن رأيي للأستاذ بطريقة لم أمارسها من قبل، تناولت كل ما أفكر فيه- من الملابس إلى الموقع، من الحصول على التذاكر إلى الموسيقى، من عدد مرات العرض إلى الدعاية- وتركني أتكلم، لم يطرح أسئلة، ربما كان حتى مروَّعًا بعض الشيء من آرائي الشاملة القوية، لكنني كنت عصر ذلك اليوم أقاتل من أجل حياتي، ولم يكن من المُفيد أن أعثر على سبب لأتوقف وأخفف من وقع الكلمات، أقلع الأستاذ يهودي بسفينة مليئة بالثقوب، وبدل أن يحاول سد هذه الثقوب والمياه تندفع وتغرقنا، كنت أريد أن أسحب السفينة إلى الميناء وأعيد بناءها من الألف إلى الياء، استمع الأستاذ إلى أفكاري دون أن يقاطعني أو يسخر مني، وفي النهاية استسلم لمعظم النقاط التي أثرتها، لم يكن من السهل بالنسبة له أن يتقبل فشله مُخرجًا استعراضيًا، لكن الأستاذ يهودي كان يريد أن تسير الأمور كما أريد، وكان كبيرًا بما يكفي لأن يعترف بأنه أخذنا في المسار الخطأ. ولا يرجع ذلك إلى أنه لم تكن لديه خطة، لكنها كانت خطة عتيقة، تتلاءم أكثر مع الأسلوب السخيف الذي نشأ عليه، أسلوب ما قبل الحرب، أكثر مما تتلاءم مع قفزة العصر الجديد ولغته. كنت أبحث عن شيء حديث، شيء سلس ورائع ومباشر، وتدريجيا نجحت في إقناعه، بدفعه إلى مقاربة مختلفة.

لكنه رفض أن يتبع هذه المقاربة في مسائل معينة، كنت حريصًا على نقل العرض إلى سانت لويس والاستعراض أمام بلدتي القديمة، لكنــه قتل هذا الاقتراح في مهده، قال: "هذه أخطر منطقة على وجه الأرض بالنسبة لك، وحين تعود إلى هناك، توقع وثيقة موتك. تذكرْ كلماتي. ســانت لويس علاج سيئ، مكان سام، ولن تخرج من هناك حيــا على الإطــلاق". لم أســتطع أن أفهم هذا العنــف، لكنه تحدث مثــل شــخص عقله مبرمج، ولم تكــن هناك وســيلة لمقاومته. وكما تبين، ثبت أن هذه الكلمات في الصميم. بعد شهر فقط من نطقه بها، ضرب سانت لويس أسوأ إعصار في القرن. اجتاح الإعصار البلدة مثــل قذيفة من الجحيم، وبعد أن اجتاحهــا بخمس دقائق، انهار ألف مبنى ومات مائة شــخص، واســتلقى ألفان آخران يتضورون وسط الدمار بعظام مكســورة ودماء تتدفق مــن جروحهم. كنا في طريقنا إلــى مدينــة فيرنون في ولاية أوكلاهوما، في المحطة الخامســة في رحلة من أربع عشــرة محطة، حين التقطــت الطبعة الصباحية من جريدة محلية ورأيت الصور في الصفحة الرئيســية، تقيأت إفطاري تقريبا. اعتقدتُ أن الأســتاذ فقد لمســته، لكن مرة أخرى أسأت الظن به، كان يعرف أشياء لا يمكن أن أعرفها، ويسمع أشياء لا يمكن أن يســمعها غيره، ولا يمكن أن يكون في العالم ند له. كلما شــككْتُ في كلماته مرة أخرى، قلْتُ لنفســي، ليخسف بي الرب الأرض ويبعثر جثتي للخنازير.

لكنني أسير بسرعة كبيرة جدا. لم يأت الإعصار إلا في سبتمبر، وكنــا لا نــزال فــي الخامس والعشــرين من أغســطس، لا أزال أنا والأســتاذ يهودي نجلس في ملابســنا الرطبــة، ولا نزال في طريق

العودة إلى منزل مسز ويذرسبون في ويتشيتا، بعد محادثتنا الطويلة عن تعديل العرض، بدأت أشعر ببعض التحسن في آرائنا، لكنني لا أستطيع أن أبالغ كثيرًا وأقول: إن عقلي كان في حالة طيبة تمامًا. كان إسدال الستار على سانت لويس أحد الأمور، اختلاف بسيط في الآراء، لكن أزعجتني أمور أخرى بشكل أكثر عمقا، يمكنك أن تسميها أخطاء جوهرية في الترتيب، وقد عريت روحي كثيرًا جدًا، تصورت أن عليَّ أن أمضي إلى النجاح. وهكذا انهمكت فجأة وطرحت موضوع مسز ويذرسبون. لم أجرؤ أن أتكلم عنها من قبل، وكنت آمل ألا يتراجع الأستاذ ويوبخني.

قلت، مُتقدمًا بأقصى ما أستطيع من حذر: "ربما يكون أمرًا لا يخصني، لكنني لا أفهم حتى الآن لماذا لم تأت مسز ويذرسبون معنا".

قال الأستاذ: "لم ترغب في أن تكون معنا، تظن أنها قد تنحسنا".

"لكنها سندنا، أليس كذلك؟ هي التي تدفع الفاتورة، اعتقدتَ أنها ترغب في أن تلازمنا وتراقب استثمارها عن قرب".

"إنها ما يسمونه الشريك الصامت"[(١)].

«صامت؟ إنك تضحكني يا ريس، هذه السيدة تكاد تكون أكثر صخبًا من قسم في مصنع للسيارات. يمكنها أن تمضغ أذنك وتبصقها قطعًا قبل أن تستقبل كلمة».

«في الحياة، نعم لكنني أتكلم عن العمل، في الحياة لا شك في أن لها لسانًا لا يتوقف، لن أجادلك في ذلك».

---

(١) الشريك الصامت: من يشارك بأمواله في مشروع ولا يشارك في إدارته.

«لا أعرف مشـكلتها، لكن طوال الأيام التي كنْتَ لا تعمل فيها، فعلتْ أشياء غريبة وبشعة، لا أقول: إنها سيئة، لكنني تعصبْتُ أحيانًا وأنا أراها تتصرف على ذلك النحو».

«كانـت في حالـة ذهول، لا تسـتطيع أن تلومها يـا والت، كان عليها أن تسـتوعب بعض الأمور الفظة في الشهور الماضية، وهي أضعف بكثير مما تظن، عليك فقط أن تكون صبورًا معها».

«ذلك بالضبط ما قالته عنك».

«إنهـا امرأة بارعـة، ربما متوتـرة بعض الشـيء، لكنها ذكية وطيبة».

«أخبرتني الأم سـيوكس- لتسـترحْ روحها في سـلام-ذات مرة بأنك كنت تخطط للزواج منها».

«كنـت، ولم أعد، ثم كنت، ولم أعـد؛ الآن من يعرف. إذا كانت السنوات علمتني شيئا يا بني، فهو أن أي شيء يمكن أن يحدث، حين يتعلق الأمر بالرجال والنساء كل الرهانات مستبعدة».

«أجـل، إنها امرأة لعوب، أسـلم معك بذلك، بمجرد أن تظن أنك قيدتها، تتملص وتفر إلى المرعى التالي».

«بالضبط، وهو ما يفسر أن من الأفضل أحيانًا ألا تفعل شيئا، إذا اكتفيْتَ بالوقوف والانتظار، هناك فرصة ليأتي ما تتمنى».

«ذلك عميق جدا بالنسبةِ لي يا سيدي».

«لست الوحيد في ذلك يا والت».

«لكن إذا حدث وارتبطت بها، أظن أن الأمور لن تسير بسلاسة كبيرة».

«لا تقلق بشأن ذلك، ركز في عملك فقط، واترك أمر الحب لي، لا أريد نصيحة من أحد، إنها أغنيتي، وسأغنيها بطريقتي».

لم تواتني القدرة لأدفع الأمر أكثر من ذلك، كان الأستاذ يهودي عبقريا وساحرًا، لكن كان يبدو لي بوضوح أنه لا يفهم شيئًا عن النساء. كنْتُ مطلعا على أعمق أفكار مسز ويذرسبون، استمعْتُ في أحيان كثيرة إلى أسرارها البذيئة وهي مخمورة، وعرفت أن الأستاذ لن يستطيع الانسجام معها إذا لم يتصرف بشجاعة وحزم، لا ترغب في التواني، ترغب في أن تُقتحَم وتُفتَح، وستكون فرصته أسوأ كلما طال تردده. لكن كيف أخبره بذلك؟ لا أستطيع، لا أستطيع إن كنت أعرف قدر نفسي، وهكذا ظل فمي مغلقًا، وتركت الأمور تسير، قلت لنفسي: إنها إوزته اللعينة، وإذا عزم بشدة على طهيها، من أكون لأقف في طريقه؟

وهكذا عدنا إلى ويتشيتا وانشغلنا بوضع الخطط لبداية جديدة، لم تنطق مسز ويذرسبون بكلمة عن بقع المياه على المقاعد، لكنني أفترض أنها اعتبرتها من نفقات العمل، جزءًا من المخاطرة حين تضع عينيك على كسب مبالغ كبيرة، استغرق الأمر حوالي ثلاثة أسابيع للانتهاء من الاستعدادات- جدولة العروض، وطباعة الإعلانات التي توزع باليد والملصقات، والتدريب على النظام الجديد- وأثناء ذلك الوقت اندمج الأستاذ ومسز ويذرسبون مَعًا تمامًا، في علاقة غرامية أكثر بكثير مما توقعْتُ، اعتقدت أنني ربما كنت مخطئًا تمامًا، وأن الأستاذ يعرف بالضبط ما يفعله. لكننا، يوم السفر، اقترفنا خطأ، خطأ تكتيكيا فاضحًا كشف ضعف استراتيجيته العامة، رأيت الخطأ بعيني، وأنا أقف في الرواق، والأستاذ والخليلة يودع كل منهما الآخر، وكان ما رأيته مؤلمًا، فصلاً صغيرًا محزنًا في قصة الحسرة.

قال: «فترة طويلة جدا يا أخت، سنراك بعد شهر وثلاثة أيام»، وقالت: «تذهبان يا أولاد- إلى تلك البرية الموحشة»، وساد بعد ذلك صمت رهيب، وحيث إن الأمر ضايقني، فتحْتُ فمي الثرثار وقلْتُ: «ماذا تقولين يا مدام؟ لماذا لا تقفزين إلى السيارة وتأتين معنا؟».

رأيت عينيها تسطعان حين قلْتُ ذلك، وبالضبط كما أن كلمة «دوج» (كلب) هي نفسها كلمة «جود» (رب) حين نتهاجها بالعكس، كانت على استعداد للتخلي عن ست سنوات من عمرها لتلقي بكل شيء وتسافر، التفتتْ إلى الأستاذ وقالتْ: «ما رأيك؟ ينبغي أن آتي معكما أم لا؟» لكنه، بغروره المعتاد، ربت على كتفها وقال: «براحتك يا عزيزتي»، اغرورقت عيناها لثانية، لكن حتى حينذاك لم يضع كل شيء، لا تزال آمله في سماع كلمات مناسبة منه، انطلقت مرة أخرى وقالت: «لا، قرر أنت، لا أريد أن أكون عقبة في الطريق». وقال: «أنت حرة يا ماريون، ليس لي أن أحدد ما ترغبين فعله». وانتهى الأمر، رأيت النور يخبو في عينيها؛ وتقلص وجهها إلى تعبير متوتر ساخر؛ ثم هزت كتفيها وقالت: «لا تبالِ، هنا الكثير جدا مما ينبغي عمله على أية حال». ثم دفعت ابتسامة شجاعة ضئيلة إلى شفتيها وأضافت: «أرسلْ إليَّ بطاقة بريدية حين تسنح لك الفرصة، آخر ما سمعْتُ، لا تزال البطاقة ببنس».

وكان يا ما كان، كانت هناك فرصة العمر، وضاعت إلى الأبد، تركها الأستاذ تفلت من بين أصابعه، وكان أسوأ ما في الأمر أنني لا أعتقد حتى أنه أدرك ما فعل.

سـافرنا في سيارة مختلفة في هذه المرة- فورد سوداء مستخدمة اشـترتها مسز ويذرسـبون لنا بعد عودتنا من لارند، سمتها السيارة العجيبة، وحيث إنها لا تُضاهي السيارة الكريسلر في الحجم والمرونة، كانت تفعل كل ما يُطلب منها. انطلقنا في صباح ممطر في منتصف سـبتمبر، وعلى بعد ساعة من ويتشيتا، نسيت بالفعل ما شاهدته في الرواق مما يتعلق بلمسـات القلوب والزهور. ثبت أشعة عقلي على أوكلاهومـا، أول ولاية حجزت للرحلة، وحيـن دخلنا ريدبيرد بعد يوميـن، كنت مسـتثارًا مثل جاك في الصنـدوق[١] وأكثر جنونًا من قرد. قلْتُ لنفسـي: سينجح العرض هذه المرة، نعم يا سيدي، من هنا يبدأ كل شـيء، حتى اسـم المدينة أذهلني بوصفه فألا طيبًا، وحيث إنني لم أكن إلا شخصًا يؤمن بالخرافة في تلك الأيام، كان للاسم تأثير قـوى على روحي المعنوية. ريدبيرد، بالضبط مثل نادى البيسـبول الذي أشـجعه في سانت لويس، رفاقي القدامى الأعزاء، الكاردينال.

كان العـرض نفسـه فـي ملابـس جديـدة، لكـن بدا كل شـيء مختلفًـا إلى حـد ما، وقد أُعجبوا بي للوهلة الأولـى- مما يعني أنني كسـبت نصف المعركة. قدمني الأسـتاذ يهودي بأفضـل ما يكون، كانـت ملابس هوك فِنْ[٢] التـي أرتديها الكلمة الأخيـرة في التقليل من الشـأن، وعموما بهرنا الجمهور تمامًا، أُغمى على سـت نسـاء أو سـبع، صـرخ الأطفال، وحبس الكبار أنفاسـهم غيـر مصدقين، لثلاثيـن دقيقـة أبقيتهـم مسـحورين، يثبـون ويهبطون فـي الجو،

(١) جاك في الصندوق: لعبة أطفال عبارة عن صندوق يظهر منه فجأة نموذج لشخصية عند رفع الغطاء.

(٢) هوك فِنْ Huck Finn: ولد مؤذ في رواية لمارك توين.

يراقبون جسمي الضئيل على سطح بحيرة واسعة متلألئة، وفي النهاية، مندفعا إلى ارتفاع قياسي مقداره أربعة أقدام ونصف؛ أسبح عائدًا إلى الأرض بنجاح، كان الاستحسان مدويًا بانتشاء. هتفوا وصرخوا، قرعوا الأواني والمقالي، قذفوا قصاصات ملونة في الهواء، كانت أول مرة أتذوق فيها طعم النجاح، وقد أحببته، أحببته بطريقة لم أحب بها شيئًا من قبل ومن بعد.

دنبار وباتيست. جامبو وبلانكتسفيل. بيكنز وموز وبيت إيل. وبانوكا. بوجي ديبوت وكنجفيشر. جيرتي ورنجلينج، وماربل سيتي. لو كان فيلمًا، لبدأت صفحات النتيجة تتطاير من على الحائط. نراها ترفرف على خلفية من الطرق الريفية والعشب، لتومض أسماء هذه البلدات ونحن نواصل التقدم بالفورد السوداء عبر خريطة شرق أوكلاهوما، وتكون الموسيقى عذبة مليئة بالحيوية، انفجار قصير يقلد صخب رنين آلات النقود، لقطة بعد لقطة، وكل منهما تذوب في الأخرى. سلال كبيرة تمتلئ حتى الحواف بقطع العملة، وبيوت من طابق واحد على جانب الطريق، أيد متشابكة وأقدام تدق، أفواه مفتوحة، ووجوه جاحظة العيون تحدق في السماء، يستغرق كل هذا التسلسل عشر ثوانٍ تقريبًا، وحين ينتهي، تكون قصة ذلك الشهر قد عُرِفتْ لكل شخص في المسرح. آه الوسائل القديمة للخداع في هوليوود، ليس هناك ما يشبهه بالنسبة للأشياء المندفعة حولنا، ربما لا يكون دقيقًا، لكنه يؤدي الغرض.

مراوغات الذاكرة كثيرة جدًا، إذا فكرْتُ في الأفلام الآن فجأة فقد يرجع ذلك إلى أنني رأيت الكثير منها في الشهر الذي تلا ذلك، بعد انتصار أوكلاهوما، لم يعد الحجز مشكلة، وقضيْتُ أنا والأستاذ

معظـم وقتنا على الطريـق، ننتقل من موضع إلى آخر، عرضنا في تكساس وأركانساس ولويزيانا، متوغلين أكثر وأكثر في الجنوب مع قدوم الشتاء، وكنت أميل إلى ملء وقت الفراغ بين العروض بزيارة دار سـينما محلية لإلقاء نظرة خاطفة على آخر الأفلام، كان الأستاذ مشـغولاً عـادة- كان يتباحث مع مدراء المعـارض وباعة التذاكر، وتوزيع الإعلانات والملصقات في البلدة، ضبط المسـائل الأساسية للعـرض التالـي ـ مما يعني أنه كان من النـادر أن يكون لديه وقت للذهاب معي، وكنت ـ غالبا ـ أعود لأجده وحيدًا في الغرفة، يجلس في مقعد يقرأ كتابه، كان الكتاب نفسـه دائمًا- مجلدًا أخضر صغيرًا باليًا يحمله في كل أسفارنا- صار أليفًا بالنسبة لي مثل خطوط وجهه وملامحه. كان من المدهش أنه باللاتينية، واسـم المؤلف سـبينوزا، تفاصيل لم أنسها قط، حتى بعد كل تلك السنوات، حين سألْتُ الأستاذ عن السبب الذي يجعله يواصل دراسة هذا الكتاب مرات ومرات، قال لي لأنه لا يستطيع أبدًا أن يسبر أغواره، قال: كلما تعمقْتَ فيه، يكون هناك الأكثر، وكلما كان هناك الأكثر، تسـتغرق قراءته وقتًا أطول.

قلْتُ: «كتاب سحري، لا ينتهي أبدًا».

«أجـل، نافورة، لا يُسـتنفَد، تشـرب النبيذ وتضـع الكاس على الطاولـة، عجبي، تمـد يدك إلى الكاس مرة أخرى لتكتشـف أنها لا تزال ممتلئة».

«وهذا هو أنت، سكران مثل مخادع بثمن كأس واحدة».

قال، متحولاً فجأة من النظر إليَّ للتحديق من النافذة: «لا يمكن أن أعبر عن الأمر أفضل من ذلك. تسكر بالعالم، يا فتى، تسكر بسر العالم».

يا يسوع، لكنني كنت سعيدًا على الطريق معه، مجرد التنقل من مكان إلى آخر كان كافيًا لرفع روحي المعنوية، لكن حين تضيف كل المكونات الأخرى ـ الجماهير، العروض، الأموال التي كسبناها ـ من المؤكد أن تلك الشهور الأولى كانت أفضل الشهور التي قضيتها في حياتي، حتى بعد انتهاء الإثارة الأولى والتعود على الروتين، لم أكن أريد التوقف، لم تكن الأسرَّة المنبعجة، والإطارات المنبسطة، والطعام الرديء، وكل المنافسات والخمول وفترات الملل شيئًا بالنسبة لي، لم تكن إلا حصى يندفع من جلد وحيد القرن. كنا نركب الفورد وننطلق خارج البلدة، سبعون شخصًا أو مائة يختبئون في شاحنة، ثم نغادر المكان إلى المحطة التالية في الحملة، نشاهد المشهد الطبيعي يتدافع ونحن نفكر في تفاصيل العرض الأخير، كان الأستاذ أميرًا بالنسبة لي، يشجع دائما ويتشاور ويستمع إلى ما أقول، ولم يشعرني قط بأنني أقل أهمية منه، تغيرت أشياء كثيرة بيننا منذ الصيف، وبدا حينذاك أننا في وضع جديد، كأننا وصلنا إلى نوع من التوازن الدائم. يقوم بوظيفته وأقوم بوظيفتي، معًا نؤدي العمل.

لم تنهر سوق الأسهم إلا بعد عامين، لكن الانهيار الاقتصادي بدأ بالفعل في المناطق النائية، وكان المزارعون وسكان الريف في المنطقة كلها يشعرون بالضيق، كنا نمر بالكثير من البائسين في أسفارنا، وعلمني الأستاذ يهودي ألا أنظر إليهم أبدًا، قال: إنهم يحتاجون والت الولد العجيب، وعليَّ ألا أنسى أبدًا المسؤولية الناجمة عن ذلك، أن تشاهد صبيًا في الثانية عشرة من عمره يفعل ما لم يفعله من قبل إلا القديسون والأنبياء يشبه صاعقة من السماء، وكان يمكن لعروضي أن ترفع الروح المعنوية لآلاف الأرواح المعذَّبة،

ولم يكن ذلك يعني أنني لا ينبغي أن أفعل ذلك على وجه السرعة، لكن لو لم أفهم أن عليَّ أن أمسَّ قلوب الناس، لما كسْبتُ ما أستحق بعد ذلك، وأعتقد أن ذلك هو السبب في أن الأستاذ بدأ عملي في تلك الأمكنة النائية، تلك التجمعات الفقيرة في أركان منسية وشقوق على الخريطة، كان يريد أن تنتشر شهرتي ببطء، لدعم البدء من القاع إلى القمة. لم يكن الأمر مجرد دفعي إلى نشاط جديد، كانت طريقة للتحكم في الأمور، للتأكد من أنني لن أكون فقاعة في فنجان.

من أكون لأعترض؟ الحجز منظم بطريقة منهجية، والعائد طيب، وهناك دائمًا سقف يظلنا حين ننام في الليل، كنت أفعل ما أريد، مما يمنحني شعورًا طيبًا، مبهجًا جدا، ولم يكن الأمر يختلف بالنسبة لي إذا كان من يرونني أقدم العروض من باريس فرنسا أو باريس تكساس، من وقت لآخر، بالطبع، كنا نواجه عائقًا على الطريق، لكن يبدو أن الأستاذ يهودي كان مستعدًا لكل المواقف، ذات مرة، على سبيل المثال، جاء ضابط التغيب عن المدارس يطرق باب المنزل الذي نستأجره في دبلن بولاية الميسيسبي، قال للأستاذ مشيرًا بإصبعه الطويل النحيل إليَّ: لماذا لا يذهب هذا الولد إلى مدرسة؟ تعرف أن هناك قوانين تمنع هذا ونُظُمًا ولوائح، إلخ. تصورت أننا غرقنا، لكن الأستاذ اكتفى بابتسامة وطلب من الجنتلمان الدخول، ثم سحب ورقة من الجيب العلوي لمعطفه، كانت مغطاة بما يبدو أنها طوابع وأختام رسمية، وبمجرد أن قرأها الضابط، التقط قبعته بارتباك واعتذر عما سببه لنا من ارتباك وانصرف، لا يعلم إلا الرب ما كان مكتوبا في تلك الورقة، لكنها أوفت بالغرض بسرعة، قبل أن أنطق بكلمة طوى الأستاذ الخطاب وأعاده إلى جيب المعطف، سألْتُ:

«ماذا يحوي؟» لكن حتى رغم أنني سـألْتُ مرة أخرى، لم يرد عليّ قط، كان يكتفي بالضرب على جيبه والابتسـام، ناظرًا باعتداد بشع وسـعيدًا بنفسه، كان يذكرني بقط انتهى من تناول طائر العائلة، ولا يريد أن يخبرني بالطريقة التي فتح بها القفص.

مـن الجزء الأخير من سـنة ١٩٢٧ مـرورًا بالنصف الأول من ١٩٢٨، عشت في شرنقة من التركيز التام، لا أفكر قط في الماضي، لا أفكـر قط في المسـتقبل- أفكر فقط فيما يحدث، مـا أفعله في هذه اللحظة أو تلك، في المتوسـط، لم نكن نقضي أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة في ويتشـيتا، وبقية الوقت على الطريق، منطلقين في طريقنا إلى أمكنة كثيرة في السـيارة العجيبة السـوداء، لـم يأت أول توقف حقيقي إلا في منتصف مايو، كان عيد ميلادي الثالث عشـر يقترب، وكان الأستاذ يعتقد أنها قد تكون فكرة جيدة أن نأخذ أسبوعين إجازة، قال: علينا أن نرجع إلى منزل مسز ويذرسبون، ونأكل بعض الطعام المنزلي من باب التغيير، نسترخي ونحتفل ونعد أموالنا، ثم، بعد أن نلعب دور الباشـا، نحـزم حقائبنا ونرحل مرة أخـرى، بدا لي ذلك رائعًـا، لكن بمجرد أن وصلنا إلى هناك واسـتقر بنـا المقام لقضاء الإجازة، شـعرْتُ بأن هناك شـيئًا خطأ. لم يكن في الأسـتاذ أو مسز ويذرسـبون. كان الاثنان رائعين، والعلاقة بينهما منسجمة جدا، ولم يكن شـيئا يتعلق بالمنزل، كان طهي نيلي بوجز في قمته، والسرير مريحًا، وطقس الربيع ممتازا؛ لكن ونحن نمر من الباب، غزا قلبي ثقل لا يمكن تفسـيره، نوع معتم من الأسـى والانزعاج، افترضْتُ أنني سـأكون أفضل بعد أن أنام الليل، لكن هذا الشـعور لم يفارقني؛ كان يقبع في داخلي مثل كتلة غير مهضومة من الطعام، ومهما قلْتُ

لنفســـي، لم أســتطع التخلص منه، وفي الحقيقة، بدا أنه يكبر، لتكون لـــه حياته الخاصة، وبدرجة وصلت في الليلة الثالثة، بعد أن لبســت بيجامتي وزحفت في الســرير، إلى أنني سيطرت على رغبة جارفة فـــي البكاء، بدا الأمر جنونًا، لكن بعــد نصف دقيقة كنت أنتحب في الوسادة، باكيًا في دفقة من البؤس والندم.

حين جلستُ لتناول الإفطار مع الأستاذ يهودي في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، لم أسيطر على نفسي، خرجت الكلمات من فمي حتى قبل أن أعرف أنني سأنطق بها، كانت مسز ويذرسبون لا تزال في الدور العلوي في السرير، وأنا وهو فقط على المائدة، في انتظار أن تخرج نيلي بوجز من المطبخ وتقدم السجق والبيض المقلي.

قلْتُ: «هل تذكر ذلك القانون الذي أخبرتني به؟».

رفع الأســتاذ عينــه، وكان يدس أنفه في صحيفــة، عن العناوين الرئيســية ورمقني بنظرة طويلــة فارغة، وقــال: «قانون؟ عن أي قانون تتحدث؟».

«ألا تتذكــر، القانون الخاص بالمهام. لن نكون بشــرًا إذا نســينا الموتى».

«بالطبع أتذكر».

«حسنا، يبدو لي أننا نكسر هذا القانون تمامًا».

«كيف يا والت؟ أيســوب والأم ســيوكس في أعماقنــا، في قلبينا أينما ذهبنا، لا شيء إطلاقا يغير ذلك».

«لكننــا ابتعدنا فقط، أليس كذلك؟ قتلتهما عصابة من الشــياطين والأبالسة، ولم نفعل شيئا فيما يتعلق بهذا».

«لم نكن نستطيع، لو طاردناهم لقتلونا أيضًا».

«صحيح ربما، لكن ماذا عن الآن؟ إذا كان من المفترض أننا نتذكر الموتى، فليس أمامنا إلا أن نطارد أولئك الأوغاد ونراهم يأخذون جزاءهم، أقصد، يا للجحيم، كانت لنا أوقات قديمة رائعة، أليس كذلك؟ التجول في الريف في سيارتنا، نجمع أموالاً كثيرة، ونختال أمام العالم مثل لاعبين بارعين، لكن ماذا عن صديقي أيسوب؟ ماذا عن الأم سيوكس العجوز الرائعة؟ تحللا في قبريهما، والرعاع الذين شنقوهما لا يزالون أحرارا».

قال الأستاذ: «اهدأ»، وهو يتأملني بدقة والدموع تتدفق مرة أخرى وتبدأ تنساب على وجنتي، كان صوته حادًا وربما على حافة الغضب، وقال: «من المؤكد أننا نستطيع مطاردتهم، يمكن أن نتتبعهم ونقدمهم للعدالة، لكن تلك مهمتنا الوحيدة بقية حياتنا، لن يساعدنا البوليس، أضمن لك ذلك، وفكر مرة أخرى إذا كنت تظن أن المحلفين سيدينونهم. 'الكلان' في كل مكان يا والت، إنهم يملكون اللعبة الفاسدة تمامًا. إنهم ذوو الابتسامات الرائعة الذين اعتدْتَ أن تراهم في شوارع سيبولا- توم سكنر، جود مكنالي، هارولد دود- كلهم جزء منها، كلهم دون استثناء. الجزار، الخباز، صانع الشمعدان، علينا أن نقتلهم بأنفسنا، وبمجرد أن نطاردهم سيطاردوننا، سيسيل دم كثير يا والت، وسيكون معظمه دمنا».

قلت، مستنشقا في نوبة أخرى من البكاء: «ليس عدلاً، ليس عدلاً، وليس صوابا».

«تعرف ذلك، وأعرف ذلك، مادمنا نعرفه، فإن أيسوب والأم سيوكس تتم رعايتهما».

«إنهما يتعذبان يا أستاذ، ولن تهدأ روحاهما أبدًا حتى نفعل ما علينا».

«لا يا والت، أنت مخطئ. إنهما بالفعل ينعمان بالهدوء».

«أجل؟ وما يجعلك خبيرًا إلى هذا الحد بما يفعله الموتى في قبورهم؟».

«لأنني كنت معهما، كنت معهما وتحدثت إليهما، ولم يعودا يعانيان، يريدان أن نواصل عملنا، هذا ما أخبراني به، يريدان أن نتذكرهما بالاستمرار في العمل الذي بدأناه».

قلت وأنا أشعر فجأة بجلدي يزحف فيه الخدر: «ماذا؟ عن أي شيء تتحدث؟»

«يأتيان إليَّ يا والت، كل ليلة تقريبًا طوال الشهور الستة الماضية، يأتيان ويجلسان على سريري، يغنيان أغاني ويربتان على وجهي، إنهما أسعد مما كانا في هذا العالم، صدِّقْني. أيسوب والأم سيوكس ملَكان الآن، ولم يعد هناك ما يمكن أن يؤذيهما».

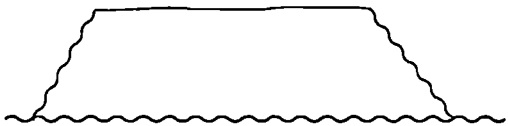
كان ذلك من أغرب ما سمعْتُ وأكثره تخيلاً، لكن الأستاذ يهودي قاله بقناعة شديدة، وبصدق واضح وهدوء، ولم أشك قط في أنه يقول الحقيقة، حتى لو لم يكن ذلك حقيقيا بالمعنى المطلق، فلا شك في أنه كان يؤمن به- وحتى لو لم يكن يؤمن به، فقد انتقل إلى أحد أقوى عروضنا على الإطلاق. جلسْتُ هناك في تخشب محموم، تاركًا الرؤية تتسكع في رأسي، محاولاً أن أمسك بصورة أيسوب والأم سيوكس وهما يغنيان للأستاذ في منتصف الليل، لا يهم حقا إن حدث ذلك أو لم يحدث؛ لأن ذلك غيَّر في الحقيقة كل

شـيء بالنسـبة لي، بدأ الألم يخف، وبدأت السـحب السوداء تتبدد، وحين قمت من على الطاولة في ذلك الصباح، انتهى أسـوأ أشـكال الأسـى. في النهاية، كان ذلك الشـيء الوحيدَ الذي يعنيني، إذا كذب الأسـتاذ، فلابـد أنه كذب لسـبب، وإذا لـم يكذب، تبقـى القصة كما رواهـا، وليس هناك سـبب للدفاع عنه؛ أنقذنـي بطريقة أو أخرى، بطريقة أو أخرى أنقذ روحي من بين فكي الوحش.

بعد عشـرة أيام بدأنا من حيث توقفنا، منطلقين من ويتشـيتا في سـيارة أخرى جديدة، كانت مكاسـبنا تمكننا من شـراء شيء أفضل وهكذا اسـتبدلنا بالفورد العجيبة، بيـرس أرو رمادية فضية بمقاعد جلدية ولوحات تشـغيل بحجم الأرائك، اسـتخدمنا السيارة السوداء مـن أوائل الربيع وهو ما يعني أن مسـز ويذرسـبون عُوِّضتْ عما أنفقتـه فـي البداية، وكانت هناك أموال في البنك لي وللأسـتاذ، ولم يعـد علينـا أن ننفق القليل كمـا كان علينا من قبـل، ارتفعت العملية كلهـا درجة أو اثنتين: مدن أكبـر للعروض، فنادق صغيرة بدلاً من غـرف المنازل والنزل لنسـتريح فيها، وتنقل أكثـر أناقة، كنت في حالـة جيـدة تمامًا حين رحلنا، مشـحونًا تمامًا ومسـتعدا للف، وفي الشـهور القليلة التالية اندفعْتُ إلـى محطة بعد أخرى، مضيفا طرقا وحركات جديدة للعرض كل أسـبوع تقريبـا، كبرت وتعودت على الجماهير، وشـعرْتُ بارتيـاح أثناء العروض التـي أقدمها، وبأنني قـادر على أن أحسِّـن وأنـا أواصـل، وأن أبتكر بالفعل وأكتشـف تحـولات جديدة فـي منتصف العرض، فـي البداية التزمْـتُ دائما بالروتيـن، وتتبعْتُ بصرامة الخطوات التي وضعناها أنا والأسـتاذ مـن قبل، لكننـي تجاوزت كل ذلـك، بدأت أعمل بثقة، ولا أخشـى التجريـب. كانـت الحركة قوتي دائما، كانت قلب العرض، الشـيء الـذي يفصلنـي عـن كل من حلق فـي الجـو قبلي، لكـن ارتفاعي

لم يكن أفضل من المتوسـط، كان عاديًا، خمسة أقدام، كنت أريد أن أحسنه، أن أضاعف ذلك الارتفاع مرتين أو ثلاثا إن استطعْتُ، لكني لم أعد أتمتع برفاهية جلسات التدريب طوال اليوم، العمل القديم الحر تحت إشـراف الأستاذ يهودي لعشر سـاعات أو اثنتي عشرة ساعة مستمرة، صرت محترفًا، مع كل الأعباء وقيود التنظيم التي يخضع لها محترف، وكان المكان الوحيد للتدريب أمام جمهور حقيقي.

ذلك ما كنت أفعله، خاصة بعد تلك الإجازة القصيرة في ويتشيتا، ولدهشـتي الهائلة وجـدت أن الضغط الهمني، ترجـع بعض أجمل حِيَلـي إلى تلـك الفترة، ودون تحفيز عيون الجماهير لي، أشـك في أنني كنت أحشـد الشجاعة لمحاولة القيام بنصف ما قمت به. بدأ كل شـيء بفقرة السـلم، وكانت أول مرة أسـتخدم فيها «دعامة خفية»- الاسـم الذي ابتكرته لاختراعي. كنا في شـمال ميتشـجان، ووسـط العـرض، بالضبط وأنا أرتفع لأبـدأ عبور البحيرة، رأيت مبنى عن بعـد، كان بنـاء ضخمًا من الطوب، ربما كان مسـتودعًا أو مصنعًا قديمـا، وكانت هناك نيـران تتطاير من أحـد جدرانه. لاحظت تلك السـلالم المعدنية، كان ضوء الشـمس ينعكس عليها في تلك اللحظة بالضبط، وكانت تبرق بشـدة في شـمس الأصيـل، ودون تفكير في الأمر، رفعْتُ قدمًا في الهواء، كما لو كنت على وشـك صعود سـلم حقيقـي، ووضعتها على درجة غير مرئية؛ ثم رفعْتُ القدم الأخرى ووضعتهـا على الدرجة التالية، لم أشـعر بشـيء صلـب في الجو، لكننـي واصلْتُ رغم ذلـك، صعدْتُ تدريجيا سـلمًا يمتد من طرف البحيـرة إلى الآخر، حتى لو لم أره، فقد رأيت صورة محددة له في عقلي. وبأفضل ما أتذكر، كان يبدو على النحو التالي:



LAKE

في أعلى نقطة منه - البسطة في المنتصف - كان تقريبا تسعة أقدام ونصف فوق سطح الماء - أربعة أقدام كاملة أعلى مما صعدت من قبل. والغريب أنني لم أتردد، بمجرد أن تجلت الصورة في ذهني بوضوح، عرفْتُ أنني أستطيع الاعتماد عليها لاجتيازه، كل ما كان علـيَّ القيام به أن أتتبع شكل الجسر المتخيل، وقد دعمني وكأنه حقيقي، بعد بضعة دقائق، كنت أنزلق عبر البحيرة دون أي تردد أو تعثر، اثنتا عشرة درجة إلى أعلى، اثنتان وخمسون درجة من جانب إلى آخر، ثم اثنتا عشرة درجة إلى أسفل، وكانت النتائج رائعة.

بعد هذا التقدم المفاجئ، اكتشفْتُ أنني أستطيع استخدام دعامات أخرى بالفعالية ذاتها، مادمت أستطيع تخيل الشيء الذي أريده، مادمت أستطيع تصوره بدرجة عالية من الوضوح والتحديد، كان يتوفر لي في العرض، هكذا طورْتُ بعض أبرز الأجزاء في عملي: طريقة السلم الحبل، طريقة الانزلاق، طريقة المرجحة، وطريقة السلك المرتفع، ابتكارات لا تحصي كنت رائدها، لم تعزز هذه التحولات متعة الجمهور فقط، لكنها دفعتني إلى علاقة جديدة تمامًا مع عملي، لم أعد مجرد إنسان آلي، قرد سيئ يقوم بالمجموعة نفسها من الحيل في كل عرض - تطورت إلى فنان، مبدع حقيقي يقدم عروضًا لنفسه بقدر ما يقدمها للآخرين، أمتعني شيء غير متوقع، مغامرة عدم معرفة ما يحدث من عرض إلى آخر، إذا لم يكن حافزك إلا أن تحظى بالحب، أن تحظى بإعجاب الجماهير،

فلابد أن تقع في عادات سيئة، وفي النهاية يمل منك الجمهور، عليك أن تختبر نفسك باستمرار، أن تحفز موهبتك بقدر ما تستطيع. تفعل ذلك من أجل نفســك، لكن في النهاية هذا الكفاح لتحقيق الأفضل هو الــذي يحبب فيك المعجبــون بك، تلك هي المفارقــة، يبدأ الناس في الإحســاس بأنك تخاطر من أجلهم، يُســمَح لهم بالاشتراك في السر، بالمســاهمة في ذلك الشيء بصرف النظر عن ذلك الشيء المجهول الــذي يدفعك للقيام به، وبمجرد أن يحدث هذا، لا تكون مجرد مؤدٍّ، تكون في طريقك لأن تصبح نجمًا. كنت في هذا الوضع بالضبط في خريف ١٩٢٨: على حافة أن أصبح نجمًا.

بحلول منتصف أكتوبر وجدنا نفسينا في وسط ولاية إلينوي، نقدم ألعابًا غريبة قبل أن نتجه عائدين إلى ويتشيتا لاستراحة مستحقة عن جــدارة. إذا لــم تخنِّي الذاكرة كنا قد انتهينا للتو من عرض في مدينة جيبســون، إحدى تلك البلدات الصغيــرة المفقودة بأفق من صهاريج المياه ومصاعد الحبوب لشركة «باك روجرز»، عن بعد تعتقد أنك تقتــرب من حصن هائــل، وبعد ذلك تصل إلى هناك لتكتشــف أنها ليــس إلا مصاعد للحبوب، كنا قد غادرنــا الفندق ونجلس في مطعم في الشارع الرئيسي، نتجرع بعض المرطبات السائلة قبل أن نستقل الســيارة وننطلق بها، كانت ســاعة ميتة في اليوم، في وقت ما بين الفطــور والغداء، ولم يكن هناك زبائن غيري أنا والأســتاذ يهودي، أتذكر أنني التهمت آخر أجزاء من رغوة الشكولاتة حين رن جرس البــاب ودخل زبون ثالــث، نتيجة الفضول الغبي رفعت عيني لألقي نظرة على القادم الجديد، ولم يكن إلا خالي «سليم»، الغريب العجوز بذقنــه الصغير؟ لابد أن الحرارة لم تكــن تزيد عن درجتين في ذلك

اليوم، لكنه كان يرتدي بدلة صيفية بالية، والياقة مرفوعة إلى عنقه، ويقبـض على نصفي الجاكيت بيـده اليمنى، كان يرتجف وهو يعبر العتبة، ويبدو مثل كلب ضئيل تعصف به رياح الشمال، وربما كنت أضحك من المنظر لولا الذهول الشديد الذي أصابني.

كان ظهر الأسـتاذ يهودي باتجاه البـاب، حين رأى التعبير على وجهي (لابد أنه بهت تمامًا)، التفتَ ليلقي نظرة على ما أربكني إلى هذا الحد، وكان سليم لا يزال يقف في المدخل، يحك يديه معًا ويتفحص المكان بعينيه اللتين فيهما حول، وحين ركز علينا، ابتسم فجأة ابتسامة من ابتسامات ذوي الأسنان المكسورة التي كانت ترعبني دائما وأنا صبي. لم يكن هذا اللقاء وليد الصدفة. جاء إلى مدينة جيبسـون لأنه يريد أن يتحدث، وبشكل مؤكد مثلما ستة وسبعة تساوي ثلاثة عشر، كان هنـاك الرقم الأكثر شـؤمًا، كنـا نحدق في كتلة مـن المتاعب.

قال، ينضح لطفًا زائفًا وهو يتهادى إلى طاولتنا: «حسـنا، حسنا. رائـع. آتى إلى مكان ناء عن العمل الشـخصي، وأصل إلى المطعم المحلـي لتناول كـوب من القهوة، وعلى من أعثر سـوى ابن أختي المفقود منذ زمن طويل؟ والت الصغير، تفاحة عيني، الولد العجيب ذو الوجـه المليء بالنمش- إنه قدر- مثل العثور على إبرة في كومة من القش»، دون كلمة من الأستاذ أو مني، جلس في الكرسي الخالي بجـواري. قال: «لا تهتم إذا جلسـتُ، أليس كذلك؟ إنني فقط مذهول من هذه الصدفة السعيدة، ينبغي أن أريح قدمي قبل أن أفقد الوعي»، ثم خبطني على ظهري ونكش شعري، وهو لا يزال يتظاهر بسعادته لرؤيتـي - وربمـا كان سـعيدًا بالفعل، لكن ليس لأي من الأسـباب. التي قد يسـعد من أجلها شـخص طبيعي؛ ارتجفْتُ لأنه لمسني بتلك الصـورة- ابتعدت عـن يده، لكنه لم يلتفت للصـد، وواصل الحديث

بطريقته السخيفة كاشفًا عن أسنانه البُنيَّة المعوجة في كل فرصة، واصل: «حسنا، أيها الرفيق القديم، يبدو الأمر وكأن العالم يعاملك بشكل طيب تمامًا هذه الأيام، أليس كذلك؟ مما تقوله لنا الصحف، أنت أبهة، أعظم شيء منذ خبز الجاودار، لابد أن معلمك يتدفق فخرًا، لا أتحدث عن تدفق عادي، حيث لابد أن محفظته عانت في العملية، لا يمكن أن أخبرك يا والت بالسعادة لرؤية ابن جلدتي يصنع اسمًا لنفسه في العالم الكبير».

وأخيرًا قال الأستاذ، كاسرًا مونولوج سليم: «حدد ما تريد يا صديق، أنا والطفل في طريقنا للخروج، ولا وقت لدينا للجلوس والخوض في مثل هذا الكلام التافه».

«الجحيم»، قال سليم باذلاً أقصى ما في وسعه ليبدو مستاء، ألا يستطيع الرجل أن يتبادل الأخبار مع ابن أخته؟ لماذا التسرع؟ من منظر تلك الآلة التي تركن على جانب الطريق، ستصلان إلى حيث أنتما ذاهبان في أسرع ما يكون».

قال الأستاذ: «ليس لدى والت ما يقوله لك، وبقدر ما يعنيني، ليس لديك ما تقوله له».

«لست متأكدًا من ذلك»، قال سليم وهو يمد يده إلى سجائر مجعدة في جيبه ويشعل واحدة. «من حقه أن يعرف أخبار خالته بيج المسكينة، ومن حقي أن أخبره».

قلت، بصوت لا يرتفع عن الهمس: «ماذا عنها؟».

قال سليم مُمسكا وجنتي بحماس زائف: «هاي، الطفل يستطيع الكلام. للحظة هنا، ظننت أنه قطع لسانك يا والت».

كررت: «ماذا عنها؟».

«ماتــت يا بُني، هذا ما كان، قتلها الإعصار الذي اجتاح ســانت لويس العام الماضي، ســقط المنزل عليها، وكانت نهاية بيج العجوز الجميلة، حدث الأمر على هذا النحو بالضبط».

قلْتُ: «ونجوْتَ».

قال سليم: «إنها إرادة الرب، شاءت الصدفة أن أكون في الجانب الآخر من البلدة، أقوم بعمل شريف».

قلت: «أمر ســيئ جدا ألا يحدث العكس، لم تكن الخالة بيج طيبة جدا، لكنها على الأقل لم تكن تعاقبني مثلك».

قال ســليم: «هاي الآن، هذه ليست طريقة تكلم بها خالك، أنا من لحمك ودمك يا والت، ولا ينبغي أن تروي أكاذيب عني، وأنا هنا في مهمة حيوية، هناك أمور ينبغي أن نتحدث فيها أنا والأستاذ يهودي، ولا أحتاج إلى أية ثرثرة منك تفسد الأمر».

قال الأســتاذ: «أعتقــد أنك مخطئ، ليس بينــي وبينك ما نتحدث عنه، تأخرْتُ أنا ووالت الآن، وأخشى أن يكون عليك أن تنصرف».

«ليس بهذه السرعة يا مِستر»، قال سليم ناسيًا فجأة فتنته الزائفة، كان صوته مهتاجًا بالنكد والغضب، بالضبط كما كنت أتذكره دائما، «عقدنا صفقة أنا وأنت، ولن تخدعني الآن».

قال الأستاذ: «صفقة؟ أية صفقة؟».

«الصفقة التي عقدناها في ســانت لويس منذ أربع ســنوات، هل تظن أنني نســيْتُ أم ماذا؟ لسْــتُ غبيًا، تعــرف، وعدتني بجزء من الأربــاح، وأنا هنا لأطالب بنصيبي العادل، خمســة وعشــرون في المائة، هذا ما وعدْتَ به، وهذا ما أريده».

قال الأستاذ محاولاً أن يكظم غيظه: «كما أتذكر يا مستر سباركز كذتَ تقبل قدمي حين أخبرْتُك بأنني سآخذ الولد من يديك، استعطفتني بشدة، وقلت لي كم أنت سعيد بالتخلص منه. تلك هي الصفقة يا مستر سباركز. طلبْتُ الولد وأعطيْتَني الولد».

«كانت لي شروط. أعلنْتُها لك، ووافقْتَ؛ خمسة وعشرون في المائة، لا تقل لي لا توجد صفقة، وعدْتَني وصدقْتُكَ».

«تحلم يا غلام، إذا اعتقدْتَ أن هناك صفقة فَأرْنِي العقد، أرني الورقة التي تقول: إنك تستحق مليما».

«هززنا رأسينا موافقة عليه، كان اتفاق سيدين، بصدق وأمانة».

«تتمتع بخيال عظيم يا مستر سباركز، لكنك كذاب وخادع، إذا كانت لديك شكوى ضدي، خذها إلى المحامي، وسوف نرى كيف تصمد قضيتك في المحكمة، لكن إلى أن يحدث ذلك، خلِّ عندك دم وانصرف بوجهك البشع من أمامي». ثم تحول الأستاذ إليَّ وقال: «هيا يا والت، لنذهبْ. ينتظروننا في أربانا[1]، وليس أمامنا دقيقة نضيعها».

ألقى الأستاذ بدولار على الطاولة ونهض، ونهضْتُ معه، لكن سليمًا لم ينتهِ من كلامه، وحاول أن ينطق بالكلمة الأخيرة، قاذفًا بضع طلقات أخيرة ونحن نغادر المطعم. قال: «هل تعتقد أنك ذكي يا مِسْتر، لكنك لم تنه الأمر معي بعد، لا أحد يصف إدوارد ج. سباركز بأنه كذاب ويفلت من العقاب، تسمع؟ صحيح، واصل الخروج من الباب ـ

---

(١) أربانا: مدينة في شرق إلينوي.

لا يهم، لكن هذه آخر مرة تدير ظهرك لي، احذرْ يا رجل؛ سأطاردك، سـأطاردك أنت وذلك الطفل الحقير، وبمجرد أن أصل إليك، ستندم على كل ما قلته لي بهذا الشـكل، سـتندم حتى آخر يوم في حياتك».

تتبعنـا حتى باب المطعم، وهو يمطرنا بتهديداته المخبولة ونحن نركـب السـيارة بيرس أرو والأسـتاذ يبدأ تشـغيل المحرك؛ غطى الصخـب على كلمات خالي، لكن شـفتيه ظلتـا تتحركان، والعروق نافرة فـي عنقه الأعجف، تركناه على النحـو التالي: بالإضافة إلى غضبه الشـديد وهو يشـاهدنا نبتعـد، كان يهز قبضته فـي اتجاهنا ويتفوه بتهديدات غير مسـموعة، تجول خالي في الصحراء أربعين عامًا، ولم يجن إلا تاريخ العثرات والتحولات الخطأ، خيطًا لا نهائيًا من الفشل؛ فهمت، وأنا أرى وجهه من النافذة الخلفية للسيارة، أنه قد صار لديه هدف، أن اللعين وجد في النهاية رسالة في الحياة.

بمجرد أن خرجنا من البلدة، التفت الأستاذ إليَّ وقال: «هذا الفَشَّار ليست لديه ما يعتمد عليه، الأمر كله خداع وحمق وهراء من البداية إلى النهاية، الرجل خاسـر دائما، وسوف أقتله إذا مسك مرة أخرى يا والت، أقسـم على ذلك، سـأفرم هذا المحتال إلى قطع كثيرة جدا، ليظلوا يعثرون على قطع منه في كندا بعد عشرين عامًا من الآن».

كنـت مزهوا بالطريقة التي تعامل بها الأسـتاذ في المطعم، لكن ذلـك لا يعني أنني لم أقلق، كان الأخ الأكبر لأمي مراوغ، وقد ركز في شـيء، ولم يكن من المحتمل أن يصرفه شـيء عن التفكير في هدفه ـ شـخصيا ـ لم أرغب في التفكير في موقفه في النزاع، ربما وعده الأسـتاذ بخمسة وعشـرين في المائة وربما لم يعده، لكن ذلك

صـــار بلا قيمة، ولم أكن أريد إلا أن يخــرج ابن العاهرة من حياتي إلــى الأبد، ضربني في الحائط مرات كثيرة جدا تجعلني لا أحمل له إلا الكراهية، وسواء كان له حق في المطالبة بالمال أو ليس له حق، كانت الحقيقة أنه لا يستحق مليما، لكن للأسف، لم يكن لما أشعر به علاقة بالملعون، أو بما يشعر به الأستاذ، كان كل شيء يتوقف على سليم، وكنت أعرف في أعماقي أنه قادم، أنه سيظل يأتي حتى يخنقني.

لــم تفارقني هذه المخــاوف والهواجس، ألقــت بظلالها على كل مــا حــدث في الأيام والشــهور التي تلت ذلك، مؤثــرة على مزاجي حتى أفســدت متعــة نجاحي المطرد. كانت ســيئة جدا فــي البداية، حيثما ذهبنا، في كل بلدة ســافرنا إليها ظللْتُ أتوقع ظهور سليم مرة أخرى. جالسًــا في مطعم، داخلا بهو فندق، نازلاً من الســيارة، كان من المتوقع أن يظهر خالي في أية لحظة رتابة، مخترقًا نسيج حياتي دون سابق إنذار، ذلك ما جعل الموقف أصعب من أن يُحتمَل. الشك، فكرة أن كل ســعادتي يمكن أن تنهار في غمضة عين، كانت البقعة الوحيدة التي بدت آمنة لي الوقوف أمام الجمهور وتقديم العرض، لم يكن ســليم يجرؤ على أن يتحرك على الملأ، على الأقل حين أكون مركــز الاهتمام على ذلك النحو، ونظرًا لكل القلق الذي حملته معي بقيــة الوقت، صار تقديم العرض اســتراحة ذهنيــة، فترة راحة من الهلع الذي يطوّق قلبي. ألقيت بنفسي في العمل بشكل غير مسبوق، مبتهجًا بما يهبني من الحرية والحماية، ثمة شــيء تغير في روحي، وفهمــت أنني صرت علــى النحو التالي: لم أعد والت رولي، الطفل الذي تحول إلى والت الولد العجيب لســاعة في اليوم، لكنني صرت والت الولد العجيب دائمًا، صرت شخصًا ليس له وجود إلا وهو في

الجو، كانت الأرض وهْمًا، أرضًا خاوية ملغومة بالفخاخ والظلال، وكل مـا يحدث عليها زائف، كان الجـو وحده حقيقيا، وكنت أعيش ثلاثًا وعشرين ساعة في اليوم غريبًا عن نفسي، منفصلاً عن مُتَعِي وعاداتي القديمة، حزمة منكمشة من اليأس والفزع.

جعلني العمل أستمر، ولحسن الحظ كان هناك الكثير من العمل، مواكـب لا تنتهـي من حجز الشـتاء، بعد العودة إلى ويتشـيتا، أعد الأستاذ جولة مُفصلة، بعدد قياسي من العروض الأسبوعية، من بين كل النقلات الذكية التي قام بها، مضت أمهر ضرباته بنا إلى فلوريدا في أسوأ طقس بارد. قضينا هناك من منتصف يناير إلى نهاية مارس، وغطينا شبه الجزيرة من القمة إلى القاع، وفي هذه الرحلة الممتدة- حدثت للمرة الأولى والوحيدة- انضمت إلينا مسـز ويذرسبون، على عكـس كل ذلك الهراء عـن أنها نحس، لم تجلب لي إلا الحظ، الحظ ليس فقط فيما يتعلق بسليم (لم نره قط)، لكن الحظ فيما يتعلق بحشود الجماهيـر، العوائد الكبيرة لشـباك التذاكر، والصحبة الطيبة (كانت تحب الذهاب إلى السـينما بقدر مـا أحب). كانت أيام ازدهار أرض فلوريـدا، وبدأ الأثرياء يتدفقـون في بدلهم البيضـاء وعقود الماس ليسـتمتعوا بالشتاء تحت النخيل، كانت أول تجربة لي أمام أشخاص متأنقين، قدمت عروضي في أندية ريفية، وملاعب جولف، وحشود مـن أهل المدن، وملْـتُ لأولئك النبلاء رغم كل كياسـتهم وتكلفهم، بقـدر ما ملْـتُ لرعاع الأرض. لـم يحدث اختـلاف. كان عرضي شـاملاً، يُؤثـر فـي الجميع، الأغنيـاء والفقـراء، بالطريقـة ذاتها.

حين عُدنا إلى كانسـاس، بدأت أشـعر بأنني صـرت أقرب إلى طبيعتـي مـرة أخـرى، لم يظهر سـليم بوجهه في خمسـة أشـهر،

وتصــورت أنه لو كان يخطط لأية مفاجــآت لفاجأنا بها بحلول ذلك الوقت، حين أقلعنا مرة أخرى إلى شمال ميدويست في نـهاية أبريل، كنت قد توقفت بشــكل ما عن التفكير فيه. كان المشــهد الرهيب في مدينة جيبســون قد ابتعد تمامًا في أعماق الماضي، وكان يبدو أحيانًا وكأنــه لم يحدث قط. كنت مســترخيا وواثقا، وإذا كان هناك شــيء في عقلي بالإضافة إلى العرض، فقد كان ذلك الشــعر الذي بدأ ينمو تحــت إبطي وحــول عانتي، كل تلك الأشــياء التــي تتبرعم مؤخرًا وتُعلــن دخولي إلى أرض الأحــلام الندية والأفــكار البغيضة، كان حــذري ضئيلاً، وبالضبط كما عرفته دائمًا، بالضبط كما خفَتُ حين بدأ الأمر كله، ســقط النصل وتوقعي لسقوطه أقل ما يكون. كنت أنا والأســتاذ في نورثفيلد في ولاية مينيســوتا، وهي بلدة صغيرة على بعد حوالي أربعين ميلاً جنوب ســانت بول، وكما كانت عادتي قبل العروض المسائية، ذهبت إلى دار السينما المحلية لأضيّع ساعتين، كانت الأفلام الناطقة في تحول تام، ولم أكن أســتطيع رؤية ما يكفي منها، كنت أذهب كلما سنحت الفرصة، وأحيانًا أرى الفيلم نفسه ثلاث مرات أو أربعا. في ذلك اليوم، كان الفيلم المعروض «جوز الهند»، الأخوة ماركس[1] المجموعة الكوميدية الجديدة في فلوريدا. رأيته من قبــل، لكنني كنت مجنونًا بهؤلاء المهرجين، وخاصة هاربو، الأبكم الذي يضع شعرًا مستعارًا مليئًا بالجوز ويصيح بصوتٍ عالٍ، وكنت أتطلع بشــغف إلــى الوقت الذي يعرض فيه عصــر ذلك اليوم، كان

(١) الأخوة ماركس: عائلــة أمريكية كوميدية، قدمت أفلاما متحركة من أوائل القرن العشرين حتى ١٩٥٠ تقريبا. وتم عرض فيلم جوز الهند سنة ١٩٢٩.

المســرح مبنى كبيرا، به مائتنا مقعد أو ثلاثمائة، ولكن نظرًا للطقس الربيعــي المعتدل، لم يكن هناك أكثر من ســتة أشــخاص يتفرجون معي- لم أهتمٍ بالطبع- جلست ومعي كيس من الفشار وبدأت أضحك بشــدة، غافلاً عن الأشــخاص الآخرين المتناثرين فــي الظلام، بعد عشــرين دقيقة أو ثلاثين، شممْتُ شيئًا غريبًا، رائحة دواء طيبة جدا تهب من خلفي. قبل أن ألتفت لأعرف حقيقتها، أُلقيت خرقة منقوعة في تلــك المادة اللاذعة على وجهي، ناضلْــتُ وصارعت لأتخلص منهــا، لكن دفعتني يدٌ إلى الخلف، ثم، وقبل أن أســتجمع قوتي لبذل جهد آخر، خسرْتُ المعركة فجأة، ترهلت عضلاتي؛ ذاب جلدي في رشح دهني؛ انفصل رأسي عن جسدي، ووصلت إلى مكان لم أصل إليه من قبل قط.

تخيلتُ كل أنواع المعارك والمواجهات مع سليم - معارك بقبضة اليد، سطو مسلح، إطلاق نيران البنادق في أزقة مظلمة- ولم يخطر على بالي أن يختطفني، لم يكن من عادة خالي أن يفعل شيئًا يتطلب مثل هذا التخطيط طويل المدى، كان متهورا، مخًا خاويًا يقفز إلى الأمور ارتجالاً، وإذا خرج عن المألوف بسببي، فإن هذا يوضح شدة مرارته، والعمق الذي ألهبه به نجاحي، كنت الفرصة الكبيرة التي سنحت له على الإطلاق، ولم يكن ليخسرها بتركها تفلت من قبضته- ليس هذه المرة- كان يتصرف مثل قاطع طريق حقيقي، محترف بارع فكر في الموضوع من كل الزوايا، وقرر في النهاية أن ينفذ الخطة بدقة، لم يفعل ذلك طلبًا للمال فقط ولم يفعل ذلك لمجرد الانتقام- كان يريد الاثنين، وكان اختطافي لطلب فدية مزيجًا سحريا، طريقة يصطاد بها الطائرين بحجرٍ واحد.

كان له رفيق هذه المرة، لص بدين اسمه فريتز، وبالنظر إلى ضآلة قدرتهما العقلية، فقد بذلا أقصى ما يستطيعان لإخفائي. في البداية خبآني في كهف على أطراف نورثفيلد، حفرة رطبة وقذرة قضيت فيها ثلاثة أيام بلياليها، وساقاي مقيدتان بحبال سميكة وكمامة مربوطة حول فمي؛ ثم أعطياني جرعة ثانية من الأثير وأخذاني إلى مكان آخر، بدروم فيما يبدو أنها بناية سكنية في مينيابوليس أو سانت بول. واستمر ذلك ليوم واحد فقط، ومن هناك انتقلنا إلى الريف مرة أخرى، واستقر بي الأمر في منزل مهجور لأحد المنقبين فيما عرفت بعد ذلك أنها داكوتا الجنوبية، بدا وكأننا على القمر وليس الأرض، كان المكان خالي من الأشجار ومهجورًا تمامًا وساكنًا، وكنا بعيدًا

جـدًا عن أي طريق بحيـث أنني لو تمكنت من الهـرب منهما، فإن الأمر يستغرق ساعات لأجد من يساعدني. ملأ المكان بطعام معلب يكفي لشـهرين، وكانت كل المؤشرات تشير إلى أسر طويل مرهق للأعصاب. هكذا اختار سـليم أن يلعبها: بأبطأ ما يستطيع، كان يريد أن يجعل الأسـتاذ يتلوى، وإذا كان ذلك يعني جر الأمور بعيدًا عن البسـاطة، تكـون أفضل بكثير. لم يكن متعجـلا على الإطلاق، كان الأمر ممتعًا له تمامًا، لماذا يتوقف عنه قبل أن يحصل على متعته؟

لـم أره قط مغرورا بهذا الشـكل، كان مبتهجًـا جدا وراضيًا عن نفسـه، كان يسـير مختالاً حول الكابينة مثل جنرال، يطلق الأوامر ويضحك على نكته، زوبعة من تبجح مجنون، شـعرت بالاشمئزاز لرؤيته بهذا الشكل، لكنه في الوقت نفسه جنبني التأثير التام لوحشيته، مع كل شـيء يحققه، يمكن أن يوصف بأنه سخي، ولم يهاجمني قط بالهمجيـة التي كنـت أتوقعها، ولا يعني هذا أنه لم يكن يصفعني من وقـت لآخر، ويضربني على فمي ويشـد أذني حيـن يحلو له، لكن معظم إسـاءته جاءت في شكل توبيخ وإهانات لفظية. لم يمل إطلاقًا مـن أن يروي لي كيف «قلب الطاولة على ذلك اليهودي القذر»، أو من السخرية من طفح حب الشباب الذي انتشر في وجهي («انظر يا ولد، بثر أخرى مليئة بالصديد»؛ «واو يا رفيق تطرز حاجبك شحنة مـن البراكين»)، أو يذكرني بأن مصيري صـار بين يديه، ولتأكيد هذه النقطة الأخيرة كان أحيانا يتسـكع حولي وهو يلف مسدسًـا في إصبعه ويضغط الماسـورة على جمجمتي، ويقول: «ترى ما أعني يـا فتى؟» ويطلق ضحكة «ضغطة بسـيطة على هذا الزناد ويتناثر دماغك على الحائط». تمادى مرة أو اثنتين وسحب الزناد، ليرعبني فقـط، كنت أعرف أنه، مـادام لم يحصل على الفدية، لن يجرؤ على شحن المسدس بذخيرة حية.

لــم تكن نزهــة، لكنني وجدت أننـــي أســتطيع أن أتحمل الأمر، أمور تافهة، كما يقولون، وأدركت أن الاســتماع إلى ثرثرته أفضل كثيرًا من كسر عظامي، ومادمت أبقَيْتُ فمي مغلقًا ولم أستثره، كان يتوقف بعد خمس عشرة دقيقة أو عشرين، وحيث إنهما أبقيا الكمامة علــى فمي معظم الوقت، لم يكن لي مــن اختيار على أي حال، لكن حتى حين تكون شــفتاي حرتين أفعل ما أســتطيع لأتجاهل تبجحه، حققت رقمًا قياسـيا من الردود القوية والإهانات، لكنني كنت أحتفظ بها لنفســي عمومًا، وأعرف جيدًا أنه كلما قل جدلي مع الملعون قل إزعاجه لي، بالإضافة إلى ذلك لم يكن لدي الكثير لأتشــبث به، كان سليم أكثر جنونًا من أن تثق به، ولم يكن هناك ما يضمن أنه لن يجد طريقة لقتلي بعد أن يحصل على المال، لم أكن أعرف ما في رأسه، وكان ما لا أعرفه يعذبني أكثر، كنت أســتطيع تحمل معاناة السجن، لكن لم يخل ذهني قط من التفكير فيما يلي ذلك: قطع رقبتي، إطلاق النار على قلبي، سلخ جلدي عن عظامي.

لــم يفعل فريتز شــيئًا ليهــدئ هــذه العذابات؛ لم يكــن إلا رجلا مُطيعًا، بدينا مرتبكا يتنفس بصعوبة ويتعثر في أداء المهام الصغيرة المتنوعة التي يكلفه بها سـليم، كان يطهو الفول على موقد خشــبي، وينظــف الأرضية، ويفــرغ دلاء المخلفــات، ويعــدل الحبال على ذراعي وســاقي ويحكم ربطها، لا يعلم إلا الرب أين عثر سليم على ذلــك البديــن البليد، لكننـــي لا أفترض أنه كان يســتطيع البحث عن تابع أكثر اســتعدادا. كان فريتز خادمًــا، وكبير الخدم، يؤدي بعض المهام، وكان الســاذج القوى الذي لم يشكُ يومًا بكلمة. يجلس طوال تلك الأيام ليلاً ونهارًا وكأن بادلاندز أجمل بقعة في أمريكا، مطمئنًا

تمامًا لقضاء وقته ولا يفعل شـيئًا، يحدق من النافذة ويتنفس. لعشرة أيام أو اثني عشـر يومًا لم يتحدث معي عن شـيء، لكن بعد إرسال أول طلب للفدية إلى الأسـتاذ يهودي، بدأ سليم ينطلق كل صباح إلى البلدة، على ما يفترض لإرسال خطابات أو القيام بمكالمات تليفونية أو توصيل طلباته بوسـيلة أخرى، وبـدأت أنا وفريتز نقضي جزءًا مـن كل يوم وحدنا، لن أبالغ وأقول: إنه حدث بيننا تفاهم؛ لكن على الأقل لم يكن يفزعني كما يفزعني سـليم، لم يكن فريتز يحمل شـيئًا شـخصيًا ضدي. كان مجرد شخص يؤدي وظيفته، ولم يمض وقت طويل حتى أدركت أن المسـتقبل غامض بالنسـبة له بقدر غموضه بالنسبة لي.

قلت له ذات يوم وهو يجلس على مقعد ويقدم لي وجبة الظهيرة من الفول المعلب والخبز: «سـيقتلني، أليس كذلك؟» كان سليم مرعوبًا من فكرة أن أفر، ولم يفك الحبال قط، حتى وأنا آكل أو أنام أو أتبرز. هكـذا كان فريتز يطعمني بالملعقة، يضعه في فمي وكأنني رضيع.

«هوه؟» قال فريتز، رادا بطريقته البارعة السـريعة. بدت عيناه خاويتين، وكأن دماغه رُبِط على الطريق في مكان ما بين بيتسبرج وجبال أِلجْنِى:[1] «هل قلت شيئًا؟».

كررت: «سـيقتلني، أليـس كذلك؟ أقصد، أليسـت هناك فرصة لأغادر هذا المكان حيًا».

«لا أعلم شـيئا عـن ذلك يا بنـي، لا يخبرني خالك بشـيء عما سيفعل. إنه يمضي ويفعل فقط».

---

(١) بيتسبرج: مدينة جنوب غرب بنسلفانيا. جبال اِلجْنِي: سلسلة جبال تمتد من شمال بنسلفانيا إلى جنوب غرب فيرجينيا.

«ولا تُبالي بأنه لا يبوح لك بأسراره في هذه الأمور؟».

«لا، لكن إذا لم يفعل ما وعد به، فسوف أكون عنيفًا معه».

«لا ينفع هذا قط يا فريتز. كل هذه الرسائل التي يرسلها سليم من مكتب بريد في البلدة- لماذا، سوف يتتبعونك إلى هذا الكوخ في لمح البصر، لمح البصر تمامًا».

«ها، حلوة، تظن أننا أغبياء، أليس كذلك؟».

«أجل، هذا ما أظن، أغبياء تماما».

«ها، وماذا إن قلتُ لك أن لنا رفيقا آخر؟ وماذا إن كان هذا الشخص هو الذي تذهب إليه هذه الرسائل؟».

«حسنا، ثم ماذا؟».

«أجل، هل تفهم ما أعنيه يا فتى؟ هذا الطرف الآخر يوصل الملاحظات وما شابه إلى الناس مع المال، ليست هناك طريقة يمكن بها أن يعثروا علينا هنا».

«وماذا عنه، الرجل الذي تتفقان معه؟ هل هو غير مرئي أو شيء من هذا القبيل؟».

«أجل، صحيح، يستخدم مسحوقا سحريا ويمضي في هالة من الدخان».

كانت أطول محادثة أجريتها معه على الإطلاق: فريتز في أقصى درجات فصاحته وإسهابه، ولم يكن ذلك له أهمية بالنسبة لي، لكن كان باردًا وغبيًا، ولم أستطع قط أن أفهمه، لم أستطع أن أجعله ينقلب

على الخال سليم، لم أستطع أن أقنعه بفك الحبال («آسف يا فتى، لا أستطيع»)، لم أستطع أن أهز ولاءه إطلاقًا. أي شخص آخر كان يمكن أن يرد على سؤال بطريقة من اثنتين: بأن يقول لي: إن ذلك صحيح أو يقول لي إن ذلك خطأ. كان يمكن أن يقول لي، نعم سليم يخطط ليقطع رقبتك، أو يربت على رأسي ويؤكد لي أن مخاوفي لا أساس لها. حتى لو كان يكذب وهو يقول تلك الأشياء (سواء كانت الأسباب جيدة أو سيئة)، لحصلْتُ على إجابة مباشرة، لكن لم يحدث هذا مع فريتز. كان فريتز صادقًا أكثر مما يجب، وحيث إنه لم يجب على سؤالي، قال: إنه لا يعرف، ناسيًا أن الآداب الإنسانية العادية تتطلب من الشخص أن يقدم إجابة قاطعة على السؤال بقدر أهمية تلك الآداب، لكن فريتز لم يتعلم قواعد السلوك الإنساني. كان ساذجًا وباردًا، وأي ولد يمتلئ وجهه بالبثور يرى ذلك الحديث معه مضيعة للوقت.

أوه، قضيت وقتًا مضحكًا في داكوتا الجنوبية، حسنا، كوميديا مستمرة من البهجة والتسلية دون توقف. مربوطًا ومكممًا لأكثر من شهر، متروكًا وحدي في غرفة مغلقة يرافقني بها اثنا عشر جاروفًا صدئًا ومذراة، متأكدًا من أنني سأموت ميتة وحشية ساحقة. كان أملي الوحيد أن ينقذني الأستاذ، وحلمت مرارًا وتكرارًا أن ينقض هو ومجموعة من الرجال على الكوخ ويطلقون النار على فريتز وسليم، ويحملونني عائدين إلى أرض الحياة، لكن مرت الأسابيع ولم يتغير شيء، وعندما تغيرت الأمور تغيرت إلى الأسوأ فقط؛ بمجرد بدء رسائل الفدية والمباحثات، لاحظت سوءًا تدريجيًا في مزاج سليم، تدهورًا دائما في ثقته. صارت اللعبة خطرة، خمد الاندفاع الأول للحماسة، وتدريجيًا انهزم مزاحه أمام ذاته القديمة

النزقة سيئة المزاج، أُزعجَ فريتز، وتذمر من الطعام السيئ، وكسر بعـض الأطباق في الحائط. كانـت العلامات الأولــى، وفي النهاية تلتها علامــات أخرى: يركلني من على مقعدي، ويســخر من بدانة فريتــز، ويشــد الحبال حــول أطرافي، بدا من الواضــح أن الضغط يزداد عليه، لكنني لم أعرف الســبب، لم أطلع على المناقشــات التي تــدور في الغرفة الأخرى، ولم أقرأ رســائل الفديــة أو أر المقالات الصحفية التي تكتب عني، والقليل الذي أسمعه عبر الباب كان مبهمًا ومتناثرًا، ولم أســتطع قط أن أجمع الأجــزاء معًا؛ كل ما عرفته أن سليم يتصرف على طبيعته باطراد. كانت النزعة واضحة، وبمجرد أن عاد إلى طبيعته عرفتُ أن كل ما حدث يشبه اجازة إلى حد بعيد، رحلة إلى جزر الأنتيل الصغرى[1] على يخت فخم.

بحلــول أوائل يونيو اندفع إلى العنف، حتى فريتز، فريتز الهادئ دائمًا، الــذي لا يمكن زحزحته، بدأت تظهر عليه أعراض التمزق، وكنت أرى في عينيه أن سخرية سليم يمكن أن تصل إلى حد بعيد قبل أن يشــعر رفيقه المغفل بالإهانة. صار الموضوع المتقد لصلواتي - مشــاجرة حقيقية - لكن حتى إذا لم يصل الأمر إلى ذلك، كنت أشعر بارتيــاح كبير حيــن أرى محادثاتهما تتطور إلى مشــاحنات طفيفة، تتكــون غالبًا مــن تعنيف ســليم لفريتز وعبوس فريتــز في الركن، محدقًا في الأرضية ومهمهمًا بلعنات خافتة. وكان ذلك يخفف بعض العــبء عني، ومع أخطار كثيــرة تلوح في الأفق كان من النعمة أن أنسَى خمس دقائق أو عشر دقائق، كان هِبَةً لا يمكن تخيلها.

يوميــا، كان الطقس يزداد حرارة بالتدريج لأشــعر به أكثر ثقلاً علــى جلدي، لم يبد قط أن الشــمس تغرب، وكنت أشــعر بحكة من

---

(١) جزر الأنتيل الصغرى: مجموعة جزر في الكاريبي.

الحبال بشكل دائم تقريبا، مع ارتفاع الحرارة غزت العناكب الغرفة الخلفية التي كنت أقضي فيها معظم الوقت، كانت تجري على ساقي، وتغطي وجهي، وتضع بيضها في شعري، وبمجرد أن أبعد واحدا يعثر آخر عليَّ، وكان البعوض يُلقي بقنابله في أذني، والذباب يتسلل إلى ست عشرة شبكة مختلفة ويطن، والعرق يتدفق مني دون توقف، إذا لم تزعجني الزواحف الزاحفة، يزعجني الجفاف في حلقي، وإذا لم يكن العطش، يكون الحزن، انهيار قاس لإرادتي وتصميمي، كنت أتحول إلى عصيدة، بقعة تغلي في قِدْر من اللعاب والفرو الرث، ومهما كافحت لأكون شجاعًا وقويًا، كانت هناك لحظات لا حيلة لي فيها، تتدفق فيها الدموع من عيني ولا تتوقف.

في عصر أحد الأيام، اقتحم سليم مخبئي الصغير وضبطني وسط نوبة من نوبات البكاء، وقال: «لماذا أنت كئيب يا رفيق؟ ألا تعلم أن غدًا يومُك؟»

كان يقتلني أن يراني على هذا النحو، وهكذا أدرْتُ رأسي دون رد، لم يكن لدي أدنى فكرة عما يتحدث عنه، وحيث إنني لم أكن أستطيع الكلام إلا بعينيي، لم تكن هناك وسيلة يمكن أن أكتشف بها الأمر، بحلول ذلك الوقت لم يعد الأمر يبدو مهمًا.

«يوم الدفع، يا رفيق. غدًا نحصل على المال، وستكون رزمة صغيرة كاملة؛ خمسون ألف فتاة يرقصن ملتصقات في حقيبة بالية من القش، بالضبط كما أمر الطبيب، أليس كذلك يا بني؟ إنها خطة تقاعد بارعة، لأخبرك، وحين تعرف حقيقة أن هذه النقود لا تحمل علامات، أستطيع أن أنفق منها طوال الطريق إلى المكسيك ولن يستدل عليَّ أحد من المسؤولين الفيدراليين».

لم يكن لدي مبرر للشك فيه، كان يتحدث بسرعة شديدة، وعروقه نافرة جدًا، وبدا واضحًا أن شيئا ما على وشك الحدوث، لكنني لم أرد. لم أشأ أن أمنحه الشعور بالرضا، فواصلت النظر بعيدا. بعد لحظة، جلس سليم على السرير أمام مقعدي. وأنا لم أرد بعد، مال إلى الأمام، وفك كمامتي وأبعدها عن فمي.

قال: «انظر إليَّ حين أتحدث إليك».

لكنني أبقيت عيني محدقتين في الأرض، رافضًا النظر إليه، ودون سابق إنذار، اندفع إلى الأمام وصفعني على الخد- صفعة عنيفة جدًا. نظرْتُ إلى أعلى.

قال: «أحسن». كان عادة يبتسم لانتصاره الضئيل، لكنه تجاوز في ذلك اليوم مثل هذه الصغائر. تجهم، وفي الثواني القليلة التالية حدق في بقسوة شديدة، حتى ظننْتُ أنني سأذوي في ملابسي. واصل: «أنت ولد محظوظ. خمسون ألف دولار، يا ابن أختي، هل تظن أنك تستحق كل هذا المبلغ؟ لم أعتقد قط أنه سيكون بهذا القدر، لكن الثمن ظل يتصاعد، ولم يجفلوا قط. زفت، يا فتى، لا أحد في العالم يستطيع أن ينتزع مني هذه التُفّاحات، في السوق المفتوحة لم أحصل على أكثر من شلن أو اثنين- وذلك في اليوم الجيد، حين أكون في أسعد حالاتي وأجملها، ثم أرغم ذلك اليهودي على أن يقدم خمسين ألفا ليستردك، أظن أن ذلك يجعلك حالة خاصة، أليس كذلك؟ أم تظن أنه يخادع فقط؟ هل هذا ما هو مقبل عليه يا ابن أختي؟ هل يقطع وعودًا ناويًا عدم الوفاء بها؟»

كنت أنظر إليه، لكن لم يكن ذلك يعني أن لدي نية للرد على أسئلته. كان الخال سليم على رأسي تقريبًا، ملتفا مثل لاعب بيسبول

على حافة السرير، دافعًا وجهه في وجهي مباشرة، كان قريبًا جدا، حتى إنني كنت أرى كل نبضة عرق في عينيه، كل المسام التي تشبه الحفر على جلده. كانت حدقتاه واسعتين، وكان يتنفس بصعوبة، وبدا في كل ثانية وكأنه سيندفع إلى الأمام ويقضم أنفي.

قال، خافضا صوته إلى همس: «والت الولد العجيب. صارت دائرة رائعة، أليس كذلك؟ والت... الولد... العجيب، سمع الجميع عنك، يا بني، أنت حديث البلاد كلها، رأيتك أنا نفسي تقدم عرضًا، كما تعرف، لم يحدث ذلك مرة واحدة، بل عدة مرات- ست مرات أو سبع مرات في السنة الأخيرة. لا يوجد شيء يشبه ذلك، أليس كذلك؟ قزم يمشي على الماء؛ إنها ألعن حيلة رأيتها في حياتي، أبرع هراء منذ الراديو، لا أسلاك، لا مرايا، لا أبواب سحرية، ما أداة التحايل، يا والت؟ كيف ترتفع عن الأرض بهذه الطريقة؟».

ما كنت لأتحدث، ما كنت لأوجه له كلمة، لكن بعد التحديق فيه خلال الصمت لعشر ثواني أو خمس عشرة ثانية، قفز وضربني على صدغي بكفه، ثم صفعني على الفك باليد الأخرى.

قلت: «ليست هناك أداة للتحايل».

قال: «هوْ، هو، هوْ، هو، هوْ».

«العرض بلا خداع، ليس هناك إلا ما تراه».

«وتتوقع أن أصدق ذلك؟».

«لا يعنيني ما تصدق، أقول لك: إنه لا توجد حيلة».

«الكذب خطيئة يا والت، تعرف ذلك، خاصة على كبارنا، الكذابون يحترقون في الجحيم، وإذا لم تكف عن تقديم هذا الهراء لي، فستذهب إلى هناك بالضبط، إلى نار الجحيم، ضع ذلك في اعتبارك يا فتى، أريد الحقيقة، أريدها الآن».

«وهي ما أقدمه لك، الحقيقة كاملة ولا شيء غير الحقيقة، وليساعدني الرب».

قال؛ ضاربًا ركبتيه إحباطًا: «حسنا، إذا كنت تريد أن تلعب بهذه الطريقة فسوف نلعب بها». نهض من على السرير وقبض عليَّ من الياقة، وانتزعني من مقعدي بضربة خاطفة بذراعه. «أرني إذا كنت متأكدا من نفسك، سنخرج لتقدم عرضًا بسيطًا، لكن من الأفضل أن تبرهن على ما قلتَ، أيها الفتى الحكيم، لا أقتنع دون دليل. تسمعني يا والت؟ العمل أو الصمت، ترتفع عن الأرض أو تكون مخادعًا».

سحبني إلى الغرفة الأخرى، يصيح ويخطب ورأسي يُضرَب في الأرض والشظايا تطعن فروة رأسي. لم يكن هناك ما يمكن أن أفعله لأقاوم، كانت الحبال مربوطة حول ذراعي وساقي، وكان أفضل ما أفعله أن أتلوى وأصرخ، متوسلاً الرحمة والدماء تنساب خلال شعري.

أمر فريتز: «فكه. يقول الفتى: إنه يستطيع الطيران، وسنجعله ينفذ ما يقول؛ لا أعذار. إنه وقت العرض يا رجال، سيفرد والت الصغير جناحيه ويرقص لنا في الجو».

رأيت وجه فريتز من موضعي على الأرض، وهو ينظر إلى سليم بخليط من الهلع والارتباك، ذُهل الرجل البدين بشدة، لم يحاول حتى أن يتكلم.

قال سليم: «حسنا؟ ماذا تنتظر؟ فكه».

تلعثم فريتز: «لكن يا سليم، المسألة هراء، نتركه يحلق في الجو، ليهرب منا بوضوح. بالضبط كما كنت تقول دائمًا».

«انسَ ما قلْتُ، فك الحبال فقط، لنرى الهراء، أراهن على أنه لن يرتفع قدما عن الأرض، أو حتى بوصة. وحتى لو فعل، من يبالي؟ معي بندقيتي، أليس كذلك. طلقة في ساقه، ويسقط أسرع من بطة ملعونة».

بدا أن هذه المجادلة المخبولة أقنعت فريتز، هز كتفيه، وسار إلى منتصف الغرفة حيث وضعني سليم، وانحنى ليفعل ما أُمِر به، لكن حين حل فيها العقدة الأولى، اجتاحتني نوبة من الخوف والنفور.

قلْتُ: «لن أفعلها».

قال سليم: «أوه، ستفعلها»، كانت يداي حرتين، وتحول انتباه فريتز إلى الحبال حول ساقي، «ستفعلها طوال اليوم إذا طلبت منك».

انتحبْتُ: «يمكن أن تطلق النار علي، يمكن أن تقطع رقبتي أو تحرقني لأصير رمادًا، لكن لا يمكن أن أفعلها بحال من الأحوال».

ضحك سليم ضحكة خافتة وقصيرة، ثم رماني بطرف حذائه في ظهري، اندفع النفس مني مثل صاروخ وضربت الأرض من الألم.

قــال فريتز وهو يحل العقدة الأخيرة حول كاحلي: «أُوْ، اتركه يا سليم، حالته المزاجية سيئة، أي غبي يمكن أن يرى ذلك».

قال سليم، محولاً غضبه إلى رجل ضعف وزنه وثلاثة أضعاف قوته: «ومن طلب رأيك يا بدين».

قــال فريتز وهو يلهث من المجهــود وينهض من على الأرض: «كفى. تعرف أنني لا أحب أن تناديني بهذه الأسماء».

صرخ سليم: «أسماء؟ عن أي أسماء تتحدث يا فِشلة؟».

«تعــرف. كل تلك الأشــياء من قبيل بدين وفِشــلة، ليس طيبًا أن تنادي رجلاً بهذا الشكل».

«صرنا حساســين، أليس كذلك؟ وبم يفترض أن أناديك إذًا؟ ألقِ فقط نظرة علــى المرآة وأخبرني بما ترى؛ ليس إلا جبلا من اللحم، أســميه كما أراه، يا فِشــلة، تريد اســما آخر، ابدأ فــي إزاحة بعض الأرطال».

كان فريتــز أكثــر صبرًا وأناة مــن أي رجل قابلتــه في حياتي، لكن هذه المرة دفعه ســليم بعيدًا جدا. شــعرت بذلك؛ أحسست بذلك، وحتــى وأنا راقد هناك ألهــث من أجل الهواء وأحــاول أن أبرأ من الضربــة التي تلقيتها في ظهري، فهمْتُ أنها الانفراجة الوحيدة التي ســنحت لي. كانت ذراعاي وســاقاي حــرة، وكان صخب عدواني يتخمــر فوقي، وكل ما علــيَّ أن أقتنص لحظتي. جــاءت حين تقدم فريتز خطوة باتجاه سليم ونخسه في الصدر، وقال: «لا تنادني بهذا الشكل، وخاصة حين أطلب منك أن تكف».

دون صـــوت، بـدأت أزحــف باتجاه البــاب، مندفعا إلـــى الأمام بسلاسة وهدوء قدر المستطاع. سمعْتُ ضربة. ثم كانت هناك ضربة أخرى، تلاها صخب أحذية تتعارك على الأرضية الخشب العارية. صـــراخ ونخر وكلمات قذرة تخترق تانجو الصنفرة، لكنني حينذاك كنت أدفع يدي على الحاجز، وكان لحســن الحظ تالفًا جدا بحيث لا يعترض طريقي. فتحته بدفعة واحدة، وزحفت إلى الأمام نصف قدم أو نحــو ذلك، ثم اندفعت في ضوء الشــمس، هابطًا بكتفي أولا على القذارة الخشنة في داكوتا الجنوبية.

بــدت عضلاتي غريبة ورخوة تمامًا. حيــن حاولت الوقوف، لم أتعــرف عليها، كانت غبية معي، ولم أســتطع أن أشــغلها، بعد هذا الحبــس والســكون لفتــرة طويلة، صــرت مهرجا متيبسًــا. كافحت لأقف على قدمي، لكنني كنت أتعثر بمجرد أن أخطو خطوة. أســقط وأنهــض، وأخطو ياردة أخرى أو اثنتين إلى الأمام، ثم أســقط مرة أخــرى، لم يكن لدي ثانية أضيعها، وهناك كنت أترنح مثل ســكير، وبطنـــي يرتــج بين كل ثالث خطــوة أو رابع خطــوة، بإصرار تام، وصلْتُ إلى سيارة ســليم، سيارة قديمة منبعجة تقف بجوار المنزل. حوَّلتْها الشمسُ إلى فرن، وحين أمسكْتُ بمقبض الباب، كان المعدن سخنا بدرجة جعلتني أصرخ تقريبا، ولحسن الحظ كنت أعرف كيف أتعامل مع الســيارات. علمني الأســتاذ القيادة، ولم أجد مشــكلة في تنزيل فرامل اليد، وسحب الفتيس وإدارة المفتاح. لكن لم يكن هناك وقــت لضبط المقعد، كانت ســاقاي قصيرتين جدا، وكانت الوســيلة الوحيدة لأتمكن من وضع قدمي على دواســة البنزين أن أنزلق إلى

أسفل، معلقًا في عجلة القيادة من أجل حياة عزيزة، أوقفتْ أول سعلة للمحرك المعركةَ داخل الكابينة وفي اللحظة التي دارت فيها السيارة كان سـليم يندفع من الباب ويعدو باتجاهي وبندقيته في يده، انطلقت على شكل قوس، محاولا أن أحافظ على أكبر مسافة بيني وبينه قدر المستطاع، لكن اللعين كان يتفوق على ولم أستطع أن أبعد يدي عن عجلـة القيادة لأنقل إلى السـرعة الثانية، رأيتُ سـليم يرفع البندقية ويحـدد هدفًا، بدلاً من أن أنحرف يمينًا انحرفْتُ يسـارًا، منطلقًا إليه مباشـرة بالرفرف، صدمته فوق الركبة مباشـرة وارتد وسقط على الأرض، منحنـي ذلـك بضع ثـوانٍ لأتصرف فيها، قبـل أن يتمكن سـليم من الوقوف، عدلْتُ عجلة القيادة وسرْتُ في الاتجاه الصحيح. نقلـت إلى السـرعة الثانية وضغطْتُ على الدواسـة حتـى النهاية، انطلقـت طلقة واصطدمتْ بالزجاج الخلفـي، وحطمت الزجاج من خلفـي، واصطدمت طلقـة أخرى في لوحة العـدادات، وفتحت ثقبا في باب الدرج. تلمسـت طريقي بقدمي اليسرى إلى الفتيس، ونقلت إلى السـرعة الثالثة، وابتعدت، دفعت السـيارة إلى ثلاثين ميلا، إلى أربعين ميلاً في الساعة، مندفعا على الأرض الخشنة مثل غلام على حصان وأنا أنتظر أن تأتي الطلقة التالية لتمزق ظهري؛ لكن لم تكن هناك طلقات أخرى، تركْتُ ذلك الطريق المزعج في الغبار، وحين وصلْتُ إلى الطريق بعد دقائق، كنت حرًا.

هل كنت سعيدًا برؤية الأستاذ مرة أخرى؟ يمكنك أن تراهن على حياتك بأنني كنت سعيدًا، هل دق قلبي فرحًا حين فتح ذراعيه ولفني في عناق طويل؟ نعم، دق قلبي فرحًا. هل بكينا على حظنا السعيد؟ بالطبع بكينا. هل ضحكنا واحتفلنا ورقصنا مائة رقصة؟ فعلنا كل ذلك وأكثر.

قال الأستاذ يهودي: «لن أتركك بعيدًا عن عيني مرة أخرى أبدًا».

وقلْتُ: «لن أذهب إلى أي مكان من دونك أبدًا بقية حياتي».

هناك قول مأثور عن عدم تقدير ما تملكه حتى تفقده، بقدر صحة هذه الحكمة، لا يمكن أن أقول: إنها انطبقت عليَّ من قبل. كنت أعرف أنني ضائع طوال الوقت: منذ اللحظة التي حُمِلْتُ فيها من دار السينما في نورثفيلد بولاية مينيسوتا، إلى اللحظة التي وضعْتُ عيني فيها على الأستاذ في مدينة ربيد، في ولاية داكوتا الجنوبية، على مدار خمسة أسابيع ونصف كنت أنعي فقدان كل ما كان جيدًا ونفيسًا بالنسبة لي، وأقف الآن أمام العالم لأختبر أنه لا شيء يمكن أن يساوي حلاوة أن تستعيد ما أُخِذ منك، من بين كل الانتصارات التي حققتها، لم أنتشِ لانتصار أكثر مما انتشيت للحقيقة البسيطة، حقيقة أن حياتي عادت إليَّ.

اجتمع الشمل في مدينة ربيد لأن المقام انتهى بي إلى هناك بعد هروبي، بخيلاً كعادته، أهمل سليم حالة سيارته، وانتهى الوقود من الخزان قبل أن أكمل عشرين ميلاً. ولولا بائع مسافر التقطني قبل

الظلام بالضبط، ربما كنت لا أزال أتجول الآن في بادلاندز، باحثًا دون طائل عن مساعدة، طلبْتُ منه أن يوصلني إلى أقرب نقطة شرطة، وبمجرد أن تعرف عليَّ رجال الشرطة عاملوني وكأني ولي عهد بوليبول. قدموا لي حساء وهوت دوجز كوني أيلند، أعطوني ملابس وأخذْتُ حمامًا دافئا، وعلموني لعب البينكول بالكوتشينة، بوصول الأستاذ عصر اليوم التالي، كنت قد تحدثت بالفعل مع مجموعة كبيرة من الصحفيين والتقطت لي أربعمائة صورة، كان اختطافي موضوعًا في الصفحة الرئيسية لأكثر من شهر، وحين جاء مراسل صحفي من صحيفة محلية يستطلع حول نقطة الشرطة بعض آخر الأخبار، عرفني من صوري وكتب الخبر، تدفقت الكلاب البوليسية والباحثين عن مصائب الآخرين بعد ذلك، تدافعت الفلاشات مثل الألعاب النارية من حولي، وتفاخرْتُ من الساعات المبكرة من الصباح، وأنا أروي قصصًا غريبة عن احتيالي على الخاطفين وفراري منهما قبل أن يتمكنا من مقايضتي بالفدية، أفترضُ أن الحقائق المجردة كانت كافية، لكنني لم أستطع مقاومة الرغبة الشديدة في المبالغة، استمتعت بشهرتي الجديدة، وبمرور الوقت دخت من الطريقة التي ينظر إليَّ بها أولئك الصحفيون، متطلعين إلى كل كلمة أقولها، كنْتُ استعراضيا رغم كل شيء، وكنت سعيدًا بجمهور من هذا القبيل، ولم يطاوعني قلبي على أن أخذلهم.

أوقف الأستاذ هذا الهراء لحظة دخوله، شغلت أحضاننا ودموعنا كل انتباهي طوال الساعة التالية- لكن لم ير الجمهور شيئا من ذلك، جلسنا معًا في الغرفة الخلفية في نقطة الشرطة، ننتحب وكل منا بين

ذراعي الآخر وضابطان يحرسان الباب. بعد ذلك، تمت المحاضر، وتوقيع الأوراق، ثم انطلقنا إلى الخارج، نخترق حشدًا من الحمقى والمهنئين في الشارع، انطلق التهليل ودوت الهتافات، لكن الأستاذ اكتفى بوقفة طويلة ليبتسم ولوَّح مرة للفضوليين قبل أن يدفعني إلى سيارة بها سائق تقف على حافة الطريق. بعد ساعة ونصف، كنا نجلس في مقصورة خاصة في قطار يتجه شرقًا، إلى نيو إنجلند والشواطئ الرملية لكيب كود[1].

لم أدرك قبل حلول الليل أننا لن نتوقف في كانساس. مع الكثير جدا من الأمور التي يجب القيام بها مع الأستاذ، والكثير جدا من الأشياء التي يجب وصفها وتفسيرها وحكيها، كان رأسي يرتج مثل ماكينة خض اللبن، ولم أسأل عن مسز ويذرسبون قبل أن تنطفئ الأنوار وننده في مضاجعنا، مرت ست ساعات مع الأستاذ، ولم يُذكَر اسمها مرة.

قلت: «كيف تسير الأمور في ويتشيتا؟ أليست مكانا طيبا لنا مثل كيب كود؟».

قال الأستاذ: «مكان رائع، لكنه حار جدا في هذا الوقت من السنة؛ سيكون المحيط طيبًا بالنسبة لك يا والت، سوف تسترد عافيتك أسرع».

«وماذا عن مسز ويذرسبون؟ متى تخطط للالتحاق بنا؟».

«لن تلتحق بنا هذه المرة يا بني».

---

(١) كيب كود: شبه جزيرة في شمال شرق ماساشوسيتس تمتد شرقًا وشمالاً في المحيط الأطلنطي.

«لماذا؟ تتذكر فلوريدا، أليس كذلك؟ أحبَّتْها كثيرًا جدا، كان علينا فقط أن نسحبها من المياه، لم أرَ قط شخصا أسعد منها وهي تخوض بين الأمواج».

«ربما كان الأمر كذلك، لكنها لن تمارس أية سباحة هذا الصيف، على الأقل معنا».

تنهد الأستاذ يهودي، مالئا الليل بصوت رفرفة رقيقة كئيبة، ورغم أنني كنت ميتا من التعب، على وشك النوم، بدأت ضربات قلبي تسرع، وتتدفع داخلي مثل إنذار.

قلت محاولاً ألا أظهر قلقي: «أوه. ولماذا؟».

«لم أكن لأخبرك الليلة، لكنك وقد أثرت الموضوع الآن، لا أظن أنه يوجد مبرر لكتمانه».

«بم تخبرني؟».

«ليدي ماريون على وشك أن تحسم الأمر».

«الأمر؟ أي أمر؟».

«خطبت لتتزوج، إذا سار كل شيء طبقا للخطة، فسوف تدخل عش الزوجية قبل عيد الشكر».

«تقصد تتزوج؟ تقصد ترتبط بالزواج بقية حياتها؟».

«نعم، بخاتم في إصبعها وزوج في سريرها».

«وهذا الزوج ليس أنت؟».

«مستحيل، أنا هنا معك، أليس كذلك؟ كيف يمكن أن أكون معها هناك إذا كنت معك هنا؟».

«لكنـك حبيبها، لا يحق لهـا أن تتخلص منك على هذا النحو، لا يحق لها دون موافقتك».

«كان عليهـا أن تفعـل ذلك وما كان لي أن أقف في طريقها، تلك المرأة نادرة جدا يا والت، ولا أريد أن تنطق بكلمة ضدها».

«سـأتفوه بكل الكلمات التي أريدها، شـخص يسيء إليك، أنطق بأعنف الكلمات ضده».

«لم تسـئْ إليّ. يداها مقيدتان، قطعت وعدًا لا تستطيع كسره، لو كنت مكانك يا فتى لشكرتها على وفائها بذلك الوعد كل ساعة طوال الأعوام الخمسين التالية».

«أشـكرها؟ أبصـق على تلك البغي يا أسـتاذ، أبصـق على تلك العاهرة ذات الوجهين التي أساءت إليك، وألعنها».

«لا تفعـل ذلك قبـل أن تعرف لماذا فعلتْ ذلك، كل ذلك بسـببك أيها الفتى، خاطرت بنفسـها من أجل وضيع اسـمه والتر كليربورن رولي، وكان ذلك من بين أكثر الأمور، التي رأيتُ شـخصًا يفعلها، شجاعة وإيثارا».

"هراء، لا علاقة لي بذلك، لم أكن حتى هناك".

"خمسـون ألف دولار يا رفيق، هل تظن أن هذا المبلغ ينمو في الأحـراش؟ حين بدأت رسـائل الفدية تأتـي، كان علينا أن نتصرف بسرعة".

"إنه مبلغ كبير بالتأكيد، لكن لابد أننا كسبنا ضعفه".

”ولا حتى قريبا منه، لم نستطع أنا وماريون أن نقسم ذلك المبلغ بيننـــا، حققنا الكثير لأنفسـنا يا والــت لكن ليس كمــا تعتقد، الأعباء هائلـــة. فواتير الفنـــادق، الانتقال، الدعايـــة- كل ذلك يجمع، ونحافظ على رؤوسنا فوق الماء بالكاد“.

”أوه“، قلــت وأنا أقوم ببعض العمليات الحسـابية السـريعة في ذهني عن المبالغ التي لابد أننا أنفقناها- ودخت أثناء العملية.

”أوه، حسنا، ماذا علينا أنْ نفعل؟ ذلك هو السؤال. إلى أين نمضي قبل فوات الأوان؟ يخذلنا القاضي العجوز ويذرسبون، لم يتحدث إلى ماريون منذ قتل شــارلي نفسه، ولم يكن على وشك أن يقطع صمته الآن، تسخر البنوك، لن يمسنا المرابون، وحتى إذا بعنا المنزل، لن نفــي بالمبلغ، وهكـذا ماذا نفعل- ذلك هو السـؤال الذي نغص علينا حياتنا. الساعة تدق، ومع كل يوم نفقده كان الثمن يتصاعد فقط“.

”خمسون ألف دولار لإنقاذي“.

”وكان ثمنا بخسًا أيضًا، بالنظر إلى الحصيلة المتوقعة من شباك التذاكــر في الأعــوام القادمة، ثمنا بخسًــا، لكنه لم يكـن في متناول أيدينا“.

”إلى أين ذهبتما إذًا؟“

”كما أتأكد من أنك فهمْتَ الآن، مســز ويذرســبون امرأة متعددة المفاتن والإغراءات. ربما أحتل مكانا خاصا في قلبها، لكنني لســت الرجل الوحيد الذي فتن بها. تعج بهم ويتشـيتا، يكمن خطابها خلف كل ســياج وكل حنفيــة حريق. أحدهم، شــاب من أقطــاب الحبوب

اسـمه أورفيل كوكس، تقدم إليها خمس مرات في العام الأخير، وأنا وأنت نتجول في الضواحي، عاد أورفيل الشاب إلى البلدة، ضاغطًا علـى قضيته بقـوة. رفضته ماريون بالطبع، لكـن ليس دون بعض الحزن والنـدم، وكلما قالت لا، أظن أن ذلك الحزن والندم يصيران أقوى قليلاً، هل تريد أن أروى المزيد؟ تحولت إلى مومس من أجل الخمسين ألفا، مبلغ كان يود أيضا أن يشارك به، لكن فقط بشرط أن تهجرني وتتزوجه".

"إنه ابتزاز".

"بشـكل ما؛ لكن أورفيل في الحقيقة ليس هذا الشـخص السيئ، غبي إلى حد ما، ربما، لكن ماريون تخوض في الموضوع مفتوحة العينين".

غمغمْـتُ، وأنـا لا أدري ماذا أفعل بهذا كله: "حسـنا، أظن أنني أدين لها باعتذار، تصرفتْ من أجلي مثل فارس حقيقي".

"ذلك ما فعلتْه، مثل بطلة حقيقية".

واصلـت، وأنـا لا أريد أن أستسـلم: "لكن، لكن ذلـك كله انتهى الآن، أقصد أن كل الرهانات خاسرة، هربت من سليم وحدي، وليس على أحد أن يدفع خمسـين ألفا. لا تزال الأموال الفاسدة مع أورفيل، وذلك يعني حقا أن مسز ويذرسبون التي نعرفها لا تزال حرة".

"ربما كما تقول، لكنها لا تزال تخطط للزواج منه؛ تحدثْتُ معها أمس، وكانت الأمور كما ذكرْتُ، تنوي أن تستمر".

"ينبغــي أن نوقف ذلك يا أســتاذ، هذا ما ينبغــي أن نفعله، نقتحم العرس مباشرة ونختطفها".

"مثل الأفــلام بالضبط، إيه يا والت؟" لأول مرة يطلق الأســتاذ ضحكة منذ بدأنا هذه المحادثة المرعبة.

"تنطلق مباشرة، بالضبط مثل فيلم سينمائي".

"اتركهــا تذهب يا والت، إنها مصممة على ذلك، وليس هناك ما يمكننا القيام به لإيقافها".

"لكنهــا غلطتــي، مــا كان لشــيء من هــذا أن يحدث لــولا هذا الاختطاف القذر".

"إنهــا غلطة خالك يا بني وليســت غلطتــك، ولا ينبغي أن تلوم نفســك- لا الآن ولا في أي وقت- اهدأ- مســز ويذرســبون تفعل ما تريد، ولن يضايقنا ذلك. مفهوم؟ علينا أن نتصرف كسادة مهذبين، لا نقف في طريقها، ونرسـل لها أجمل هدية زفاف رأتها عروس، لننم الآن. أمامنا الكثير من العمل، ولا تقلق بشأن هذا الأمر ثانية أخرى. انتهى الأمر. أسدل عليه الستار، والفصل التالي على وشك أن يبدأ".

مارس الأســتاذ يهــودي في حديثه مباراة جيدة لكن حين جلســنا للفطــور في عربة الطعام في صباح اليوم التالي، بدا وجهه شــاحبًا ومضطربًا- كأنه ظل مستيقظا طوال الليل، يحدق في الظلام ويتأمل نهايــة العالم، خطر في ذهنــي أنه يبدو أنحف مما كان في الماضي، وتساءلت: كيف لم ألاحظ ذلك في اليوم السابق؟ هل أعمتْني السعادة؟ نظرت بدقة أكثر، متفحصًا وجهه بأقصى ما أستطيع من التجرد، لم يكن هناك شك في أن شيئًا ما تغير فيه، تغضن جلده وشحب، زحف

إنهاك معين إلى التجاعيد حول عينيه، وعموما بدا هزيلاً إلى حد ما، أقـل هيبة مما أتذكر. كان تحت التهديد، رغم كل شـيء- في البداية محنـة اختطافي، ثم صفعة فقـدان امرأته- لكنني كنت آمل أن يكون ذلـك كل ما هناك، من وقت لآخر، كنت أظـن أنني لاحظْتُ إجفالا ضئيـلاً وهو يمضغ طعامـه، وذات مرة، قرب نهاية الوجبة، رأيت بشكل قاطع يده تندفع تحت الطاولة وتمسك ببطنه. هل كان مريضًا، أم أنها ببسـاطة نوبة عابرة من سـوء الهضم؟ وإذا كان مريضًا، ما مدى سوء الحالة؟

لـم ينطق بكلمة، بالطبـع، وحيث إنني كنت أبـدو معتلاً جدا أنا أيضًا، نجح في أن يبقى الضوء مسلطًا عليَّ طوال تناول الفطور.

قال: "كُلْ. تضاءلت إلى عصا. كل بسـكويتك يا بني، وسـأطلب لك المزيد، علينا أن نضع بعض اللحم على عظامك، لتسـتعيد قوتك كاملة".

قلْتُ: "أفعل ما أستطيع، لم أكن في فندق راق. عشْتُ على غذاء ثابت يشـبه طعام الكلاب مـع أولئك المتسـكعين، وتقلصت معدتي وصارت في حجم حبة بسلة".

وأضاف الأستاذ، وهو يراقبني وأنا أكافح لآتي على آخر شريحة من لحم الخنزير المملح: "ثم هناك مشكلة جلدك، علينا أن نفعل شيئا مـن أجل ذلك أيضـا، كل هذه البقع. يبدو وكأنـك مصاب بحالة من الجديري".

"لا، سير، أنا مصاب ببثور، وأحيانا تلتهب بهذا الشكل، تؤذيني حين أبتسم".

"بالطبع تؤذيك، صار جسمك البائس هزيلاً من كل ذلك الأسْر، محبوســا دون أشــعة شــمس، والعرق يتدفق ليلا ونهارًا - لا عجب في أن ترتبك، سـيجعلك الشــاطئ في حالة طيبة جدا، يا والت، وإذا لم تشــف من هذه البثور، سأوضح لك كيف تعتني بها وتمنع ظهور البثور الجديدة، كان لدى جدتي علاج سري، لم يفشل قط".

"تقصد أنني ليس عليَّ أن أعدل وجهي".

"هذا الوجه حسن، إذا لم يكن به الكثير من النمش، ما كان ليبدو سـيئًا جدا، وجود هذا النمش مع حب الشباب يولِّد تأثيرًا كبيرًا. لكن لا تحــزن يا بني؛ بعد وقت قصير لن يكــون عليك أن تقلق إلا على اللحية والشارب- وهما دائمان، يبقيان معك حتى النهاية المريرة".

قضينا أكثر من شــهر في منزل ساحلي صغير على شاطئ كيب كود- يوميا يحاصرني الخال سـليم- أجره الأسـتاذ باسـم مسـتعار ليحميني مــن الصحافة، وبهدف البســاطة والتقاليد أخذنا وضع أب وابن. كان "باك" الاســم المســتعار الذي اختاره. تيموثي باك لنفسه وتيموثــي باك الثاني لي، أو تيم باك الأول وتيم باك الثاني. ضحكنا كثيــرًا على ذلك، وكان الشــيء المضحك أن الاســم لم يكن يختلف كثيــرًا عــن تيمباكتو حيث كنا، على الأقل بقــدر ما يوضع البعد في الاعتبار: عاليًــا على نتوء يطل على المحيط، دون أي جيران على بعد أميال. تأتي امرأة اسمها مسز هوثورن بالسيارة يوميًا من ترورو لتطبخ وتنظف لنا، لكن باستثناء التحدث معها، بقينا في حالنا تمامًا. جلســنا في الشمس، وسرنا مســافات طويلة على الشاطئ، وتناولنا حساء الحلزون الصدفي، ونمنا عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة كل ليلــة. بعد أســبوع من هــذا النظام المتراخي، شــعرت بأنني في

حالــة تجعلني أحــاول التحليق مرة أخرى. بدأ الأســتاذ معي ببطء، بتدريبــات على الأرض؛ تمرين الضغــط، والوثب مع رفع اليدين، الجري على الشــاطئ؛ وحين حان الوقت لاختبار الجو مرة أخرى، كنا نعمل خلف المنحدر، حيث لا تستطيع مسز هوثرون أن تتجسس علينا. كنت بطيئا بعض الشيء في البداية، وتعرضت لبعض التخبط والســقوط، لكنني بعد خمســة أيام أو ستة اســتعدْتُ لياقتي القديمة، برشاقة ومرونة كما كنت دائمًا. كان الهواء المنعش معالجًا عظيمًا، وحتى إذا لم يفعل علاج الأستاذ كل ما وعد به (فوطة دافئة منقوعة فــي محلول ملحي وخل وأدوية قابضة مــن الصيدلية، توضع على وجهي كل أربع ساعات)، بدأ نصف البثور يتلاشى تلقائيا، دون شك نتيجة أشعة الشمس والغذاء الجيد الذي عدت إلى تناوله.

أعتقد أن قوتي كان يمكن أن تعود بشكل أسرع لولا عادة كريهة اكتســبتها أثناء هذه الإجازة بين الكثبان وأبواق السفن. وقد صارت يداي حــرة الحركة مرة أخــرى، بدأتا تتصرفان باســتقلالية لافتة. كانتا ممتلئتين بشهوة التجوال، تتململان برغبة شديدة في أن تتجولا وتستكشــفا، وبصرف النظر عن عدد المرات التي طلبت منهما فيها أن تتوقفــا، كانت ترحلان حيثما تشــاءان، كان عليَّ فقط أن أزحف تحت الغطاء فــي الليل، لتصرا على التحليق إلى البقعة الحارة التي تفضلانها، مملكة الغابة جنوب خط الاســتواء مباشــرة. هناك كانتا تزوران صديقهما، أعظــم الأصابع، الإصبع المفعم بكل القوة الذي حكــم العالــم بالتخاطر الذهنــي. عندما ينادي لا شــيء يقاوم. كانت يــداي فــي عبوديته، وإذا لم أقيدهما في الحبــال مرة أخرى، لم يكن أمامي إلا أن أمنحهما حريتهما. وهكذا صار جنون أيســوب جنوني وهكذا ارتفع قضيبي ليسيطر على حياتي. لم يعد يشبه مسدس الرش

الصغير الذي كورته ذات يوم مسز ويذرسبون في كفها؛ اكتسب حجما وقواما منذ ذلك الوقت، وصارت كلمته قانونا. كان يتوسل أن ألمسه وكنت ألمسه، وكان يصيح ليُدلَّل ويُجذَب ويُعتصَر، وكنت أنحني لنزواته بقلب مستعد، من يبالي إذا أصابني العمى؟ من يبالي إذا تساقط شعري؟ كانت الطبيعة تنادي، وكل ليلة أعدو إليها بتلهف وجوع مثل آدم نفسه.

وبالنسبة للأستاذ، لم أكن أعرف فيما يفكر، كان يبدو أنه يستمتع، وبينما تحسن دون شك مزاجه ولونه، شاهدتُ ثلاث نوبات أو اربعا من الإمساك بالمعدة، وكان وخز الوجه يحدث بانتظام، كل ثاني وجبة أو ثالث وجبة. لكن روحه المعنوية لم تكن أكثر تألقا، وحينما لا يقرأ في كتاب سبينوزا أو يعمل معي في العرض، كان يشغل نفسه بالتليفون، يتباحث حول إجراءات جولتي القادمة، صرْتُ مهمًا. كان الاختطاف وراء ذلك، وكان الأستاذ يهودي مستعدًا تمامًا لاستغلال كل مزايا الوضع، على عجل مراجعًا خططه بشأن مساري المهني، جعلنا نستقر في معتزل كيب كود ومضى في الأمور المزعجة. كان يمسك بالأمور ويتحمل الصعاب، كان يفرض شروطا، ويضغط للحصول على نسب جديدة غير مسبوقة من وكلاء الحجز، يتطلب ضمانات لا يناظرها إلا أكبر العقود، وصلْتُ إلى القمة أسرع مما توقع أي منا، وقبل أن ينتهي الأستاذ من اتفاقياته، تم الحجز لي في رقم قياسي من المسارح بطول الساحل الشرقي، سلسلة مواقع ليلة وليلتين تجعلنا نعمل باستمرار حتى نهاية السنة، ليس فقط في بلدات صغيرة وقرى- في مدن حقيقية، أمكنة من الصف الأول كنت أحلم بالذهاب إليها دائما. بروفيدنس ونيوارك؛ نيو هافن وبلتيمور؛ فلادلفيا وبوسطن ونيويورك. انتقل العرض للداخل ومن ذلك

الوقت ستكون المخاطر عالية، قال الأستاذ: «لم يعد هناك سير على المياه، ولم تعد هناك ملابس فلاح، ولم يعد هناك معارض مقاطعات وغرفــة نزهات تجارية، أنت الآن فنان جــوي يا والت، الوحيد من نوعه، وسـيدفع الناس أعلى سـعر ليروك وأنــت تؤدي عروضك، يرتدون أفخم الملابس ويجلسون في مقاعد مكسوة بالقطيفة الفاخرة، وبمجرد أن يطفئ المسـرح أنواره وتسـلط الكشافات عليك، تخرج عيونهـم من رؤوسـهم، يموتون ألــف ميتة يا والــت. تتبختر وتلف أمامهـم، وواحدا واحــدا يتتبعونك بين نجوم السـماء. وحين ينتهي العرض سيكونون جالسين في حضرة الرب».

هكـذا تكون تقلبـات الحظ، كان الاختطاف أسـوأ مــا حدث لي إطلاقًا، وتبين أنه انطلاقتي الكبرى، الوقود الذي دفعني إلى المدار؛ مُنِحْتُ ما يعادل شـهرًا مــن الدعاية المجانيــة، وحين تخلصت من قبضة سـليم، كنت بالفعل اسـمًا معروفا، القضية الأولى في العالم. أثار خبر هروبي زوبعة، إحساسا ثانيًا على قمة الأول، وبعد ذلك لم أكن أسـتطيع أن أقترف خطأ، لم أكن ضحية فقط، كنت بطلاً، قدرًا عظيما من الحيوية والشجاعة، وتجاوز الأمر الشفقة، كنت محبوبًا. كيـف أصـور هذا الأمــر؟ ألقيْتُ في الجحيـم، كنت مقيـدًا ومكممًا ومستسلما للموت، وبعد شهر كنت محبوب الجميع. يكفي الأمر ليتقد ذهنك، ليطش ذلك الشـيء في منخــارك، كانت أمريكا تحت قدمي، ومع رجل مثل الأسـتاذ يهودي يشد الأوتار، وكانت الاحتمالات أن يبقى ذلك فترة طويلة.

تفوقْتُ على الخال سـليم، حسـنا، لكن ذلك لم يغير حقيقة أنه لا يزال طليقان غار رجال الشـرطة علــى الكوخ في داكوتا الجنوبية،

ولم يجدوا، باستثناء فوضى البصمات وكومة من الغسيل القذر، أثرًا للجناة. أفترض أنه كان ينبغي أن أفزع، استعدادًا لمزيد من المشاكل، لكن من اللافت تمامًا أنني لم أقلق كثيرا. كان الجو هادئًا جدًا في كيب كود بدرجة تحول دون ذلك، وقد تفوقت على خالي مرة، كنت أشعر بالثقة في أنني أستطيع أن أحقق ذلك مرة أخرى- ناسيًا بسرعة كم كان الخطر قريبًا. لكن الأستاذ يهودي وعد بحمايتي وصدقته. ما كنت لأذهب إلى دار للسينما بعد ذلك وحدي قط، وطالما كان معي أينما ذهبتُ، ماذا يمكن أن يحدث؟ بدأ تفكيري في الاختطاف يقل تدريجيا بمرور الأيام، وحين أفكر فيه، كان ذلك لأستعيد هروبي وأتساءل عن مدى الأذى الذي ألحقته بساق الخال سليم بالسيارة، كنت أتمنى أن يكون أذى حقيقيًا- أن يكون الرفرف قد أصابه في الركبة، ربما بما يكفي لكسر العظام، أرغب في أن أكون قد ألحقت به ضررًا خطيرًا، ليسير وهو يعرج طوال حياته.

لكنني كنت مشغولاً جدا بأشياء أخرى تحول دون الشعور برغبة شديدة في النظر إلى الخلف، كان النهار ممتلئا، مزدحما بالاستعدادات والتدريبات لعرضي الجديد، ولم يكن هناك أيضًا فراغ في بطاقة الرقص الليلي، بالنظر إلى مدى استعداد قضيبي للمداعبة والتسلية، بين هذه الأعمال الليلية الطائشة وإجهاد العصر، لم يكن لدي لحظة إضافية للعبث أو الشعور بالفزع. لم أفكر في سليم، ولم أستغرق في الزواج الوشيك لمسز ويذرسبون، انصب تفكيري على مشكلة أكثر إلحاحًا، وكان ذلك كافيًا لأبقى مشغولاً: كيف أعيد صناعة والت الولد العجيب عارضًا مسرحيا، مخلوقًا مناسبًا لمتطلبات المسرح الداخلي.

خضت أنا والأستاذ يهودي محادثات طويلة في هذا الموضوع، وتوصلنا إلى الطرق الجديدة بالمحاولة والخطأ غالبًا، ساعة بعد ساعة، ويوما بعد يوم، نقف على الشاطئ العاصف نجري التغييرات والتصويبات، مكافحين ليجري الأمر بشكل مناسب وأسراب النورس تصيح وتحلق فوقنا. نود استغلال كل دقيقة. كان ذلك مبدأنا الهادي، هدف كل جهودنا وحساباتنا النشيطة. في الأحراش قدمت كل العروض لنفسي، ساعة كاملة من الأداء، وربما أكثر إذا كانت حالتي المزاجية طيبة، لكن حفلة المنوعات شيئًا مختلفًا. سأشارك في القائمة مع عروض أخرى، وينبغي أن يتقلص البرنامج إلى عشرين دقيقة. سنفقد البحيرة، سنفقد تأثير السماء الطبيعية، سنفقد عظمة انطلاقاتي مائة ياردة وتبختر الحركة، ينبغي ضغط كل شيء في فضاء أصغر، لكن بمجرد أن بدأنا نستكشف مداخل الموضوع ومخارجه، رأينا أن الأصغر لا يعني الأسوأ بالضرورة. في حوزتنا أدوات جديدة، وتكمن الحيلة في أن نحولها لصالحنا: أولا- لدينا أضواء. انبهرت أنا والأستاذ بفكرتها؛ متخيلين احتمالات التأثيرات التي تخلقها، يمكن أن نتحول من العتمة التامة إلى السطوع في طرفة عين- والعكس بالعكس. يمكن أن نظلم القاعة تماما، ونسلط الأضواء من مكان إلى آخر، ونتلاعب بالألوان، مما يجعلني أظهر وأختفي كيفما أشاء. وهناك الموسيقى، التي يمكن أن تبدو أكثر ثراء ورنينا حين تُعزَف في الداخل، لن تضيع في الخلفية، لن يغطي عليها صخب المرور والملاهي، تصبح الأدوات جزءًا مكملا للعرض، وتبحر بالجماهير في بحر من المشاعر المتغيرة، تلمح ببراعة للجمهور بالطريقة التي ينبغي أن يتفاعل بها، الآلات الوترية والأبواق وآلات النفخ، والطبول: لدينا محترفون في الحلبة

كل ليلـة، وحيـن نخبرهم بما عليهم عزفه، يعرفـون كيف ينفذونه، لكن أفضل شـيء، سـيكون الجمهور أكثر راحة، لا يشـتتهم طنين الذباب ووهج الشمس، وهناك احتمال أقل لأن يتحدث الناس ويفقدوا تركيزهـم، يحييني سـكون في لحظة رفع السـتار، ومن البداية إلى النهاية يتم تنظيم العرض، متقدما مثل الساعة من أعمال بسيطة إلى النهاية الأعنف والأكثر قدرة على الإبهار في مسرح حديث.

وهكذا ناقشـنا أفكارنا، قلبناها على كل الأوجه لمدة أسـبوعين، وفى النهاية توصلنا إلى خطة برنامج للعمل، قال الأسـتاذ: «شـكل وترابط، بنية وإيقاع ودهشـة». لن نقدم لهم مجموعة عشـوائية من الحيل، سيتكشف العرض مثل قصة، وتدريجيا يزداد التوتر، ونقود الجمهـور إلـى إثـارة أكبر وأفضل ونحـن نتقـدم، مدخرين أفضل الأعمال وأكثرها إثارة للنهاية.

لا يمكـن أن تكون الملابـس أكثر أهمية: قميـص أبيض مفتوح عن الياقة، بنطلون أسـود واسـع، وفي قدمي حذاء أبيض من أحذية الرقـص، كان الحذاء الأبيض أساسـيا، عليك أن تلاحظه فورًا، إنه يخلق أكبر تقابل ممكن مع الأرضية البنية على خشـبة المسرح. مع عشرين دقيقة فقط للعمل، ليس هناك وقت لتغيير الملابس أو لمزيد مـن الدخول والخروج. جعلنا العرض متصلاً، يُؤدَّى دون توقف أو مقاطعة، لكننا قسمناها في عقلنا إلى أربعة أجزاء، وتدربنا على كل جزء بشكل منفصل، كأن كل جزء فصل في مسرحية:

الجزء الأول: كلارينت منفرد، يعزف بضع أنغام رعوية؛ يوحي اللحن بالبراءة، بالفراشـات، بتمايل الزهور في النسيم. ترفع الستار على مسـرح خال سـاطع الإضاءة. أدخل، ولمـدة دقيقتين أتصرف

وكأنني لا أعرف شيئا، ساذج مرتبك تمامًا. أرتطم بأشياء غير مرئية ملقاة حولي، مواجها عقبة بعد أخرى والكلارينت يصاحبها مزمار يدمدم، أتعثر في حجر، أحرك أنفي على جدار، وأعلق إصبعي في باب. أكون صورة للعجز الإنساني، غبيًا يتعثر ويقف على الأرض بالكاد- ناهيك عن التحليق فوقها- في النهاية، بعد أخطاء عديدة متقاربة، أسقط منبطحًا على وجهي. يصدر الترومبون نغمات متتالية منخفضة، أصدر بعض الضحكات. أكرر. لكن حتى بشكل أكثر حماقة من المرة الأولى. مرة أخرى الترومبون المنزلق، يليه النقر على الطبلة الوترية، ضربة على الطبلة المستديرة. سماء تمثيلية هزلية، وأنا لي هدف آخر مع أمر بالغ الخطورة، وعلى الفور أنهض وأخطو خطوة لتصطدم قدمي في مزلاج وأسقط مرة أخرى، صراخ وضحك، أكافح لأقف على قدمي، وأترنح وأنا أتخلص من الارتباك، وبعد ذلك، والجماهير على وشك الحيرة، بالضبط حين يبدو أنني أحمق تمامًا، أقدم أول شيء.

الجزء الثاني: ينبغي أن يبدو مثل حادثة، أتعثر مرة أخرى، وأنا أترنح إلى الأمام، أحاول جاهدًا أن أستعيد توازني، أمد يدي وأمسك بشيء ما، درجة في سلم غير مرئي، وفجأة أتعلق في الهواء- لكسر من الثانية فقط، يحدث كل ذلك بسرعة كبيرة، من الصعب أن أعرف إن كنت رفعْتُ قدمي أم لا، قبل أن يتبين الجمهور الأمر، أفك قبضتي وأهوِى إلى الأرض. تقل الأضواء ثم تُطفَأ، لتظلم القاعة، تعزف الموسيقى: آلات وترية سحرية، ترتعد غرابةً وتوقعًا. بعد لحظة، يضاء كشاف. يتنقل يمينا ويسارًا، ثم يتوقف في موضع السلم. أقف وأبدأ البحث عن درجة غير مرئية. حين تلامس يداي السلم مرة أخرى، أربت عليه بحذر، وأتثاءب

في دهشــة، هناك شــيء ليس هناك، أربت عليه مرة أخرى، أختبره لأتأكد من أنه ثابت، ثم أبدأ تسلقه- بحذر شديد، درجة مؤلمة في كل مرة، لاشــك في ذلــك الآن. إنني بعيد عــن الأرض، وفردتا حذائي الأبيض اللامع معلقتان في الجوِ للبرهان على ذلك. أثناء صعودي، يمتــد ضوء الكشــاف، متضائلاً إلــى وهج خافت يغمر فــي النهاية خشبة المسرح كلها. أصل إلى القمة، أنظر إلى أسفل، وأبدأ الشعور بالخوف. إنني الآن فوق الأرض بخمســة أقدام، وبحق الجحيم ماذا أفعــل هناك؟ تهتز الأوتار مرة أخرى، مؤكـدة هلعي، أبدأ النزول، لكــن في منتصف الطريق إلى الأرض أمد يدي وأتعامل مع شــيء صلب- لوح ناتئ في الجو، أصعَق. أمرر أصابعي على هذا الشيء غيــر المرئي، وتدريجيا يتغلب عليَّ الفضول. أنزلق بجســدي حول السلم وأزحف إلى اللوح، إنه قوي بدرجة تجعله يحملني، أقف وأبدأ السير، أعبر خشبة المسرح ببطء على ارتفاع ثلاثة أقدام، بعد ذلك، تقــود دعامة إلى أخرى، يصبح اللوح ســلما، ويصبح الســلم حبلا، ويصبــح الحبل أرجوحــة، وتصبح الأرجوحة منزلقا، لســبع دقائق أستكشف هذه الأشياء، أزحف وأمشى على أطراف أصابعي عليها، وتدريجيا أكتســب الثقة والموسيقى تعلو، يبدو الأمر وكأنني سأكون قــادرا على أن أثب بهذا الشــكل إلــى الأبد. ثم - فجــأة - أخطو إلى الحافة وأبدأ الهبوط.

الجزء الثالــث: أطفو هابطًا إلــى الأرض وذراعاي مفرودتان، وأهبــط ببطء مثل شــخص في حلــم، وبالضبط وأنا على وشــك أن ألمس خشبة المسرح، أتوقف. لم تعد الجاذبية في الحسبان، أحلق إلى ارتفاع ســتة أقدام عن الأرض دون دعامة تســندني. يظلم المسرح، وبعد ثانية، يحيط بي شــعاع كشــاف واحد. أنظر إلى أســفل، أنظر

إلـــى أعلى، أنظر إلى أســفل مرة أخرى، ألــوي أصابع قدمي، أقلب قدمي اليســرى بطرق متنوعــة، حدث ذلك حقــا، صحيح حقا أنني أقف في الجو. وتكســر نقرة طبلة الصمت: عالية، ملحَّة، لا تتوقف، يبــدو أنهــا تعلن عن أخطــار رهيبة، هجوم على المســتحيل، أغلق عيني، أفرد ذراعي إلى أقصى حد، وآخذ نفَسًــا عميقًا. إنه منتصف العرض بالضبط، اللحظة الحاسمة. والكشاف لا يزال مسلَّطًا عليَّ، أبدأ الارتفاع في الجو، أرتفع ببطء وعناد، صاعدًا إلى ارتفاع سبعة أقدام في تحليق ســلس في الســماء، أتوقف في القمة، أعد في رأسي ثلاث ضربات طويلة، ثم أفتح عيني. بعد ذلك يتحول كل شـــيء إلى ســحر، والموسيقى تعزف بأسرع ما يمكن، أقضي ثماني دقائق في ممارسة سلســلة من الأكروبات، مندفعًا إلى بقعة الضوء وخارجها وأنا ألتف وأتقلب رأسًــا على عقب وأغطس تماما، يؤدي التواء إلى آخــر، وكل عمل أجمل مما يســبقه. لم يعد هناك إحســاس بالخوف. تحول كل شــيء إلى متعة، بهجة، نشوة رؤية قوانين الطبيعة تنهار أمام عينيك.

الجــزء الرابع: بعد آخر انقلاب، أعــود إلى موضعي في مركز خشــبة المســرح، على ارتفاع ســبعة أقــدام عــن الأرض، تتوقف الموسيقى، تُســلط عليَّ ثلاثة كشافات: كشاف أحمر وكشاف أبيض وكشــاف أزرق، ترتفع الموســيقى من جديد: نشــاط من الكمنجات والأبــواق الفرنســية، جمــال يفــوق الوصف. يعزف الأوركســترا «أمريــكا الجميلة»[1]، الأغنية الأكثر تدليــلاً وألفة. حين يبدأ الجزء الرابع، أتحرك إلى الأمام، أمشــي في الجو فوق رؤوس الموسيقيين

(١) أمريكا الجميلة: أغنية وطنية امريكية.

والجماهير. أظل أمشى والموسيقى تعزف، منتقلا إلى آخر المسرح، والعيون تنطلق أمامي والأعناق تشرئب والناس يقفون من مقاعدهم، أصل إلى الجدار، ألف، وأبدأ العودة، سائرا بالطريقة البطيئة الجليلة نفسـها التي سـرت بها من قبل، حين أصل إلى خشبة المسرح مرة أخرى تكون كل الجماهير معي. لمستهم بنعمتي، تركتهم يشاركونني في سر قواي الربانية. أستدير في الجو، أتوقف قليلاً مرة أخرى، ثم أطفو هابطا إلى الأرض مع عزف آخر نغمات الأغنية. أفرد ذراعي وأبتسم، ثم أنحني - مرة واحدة فقط- ويسدل الستار.

كان ذلك عملا رائعا، انتفخ شيء في النهاية، صمم الأستاذ على «أمريـكا الجميلة» مهما تكن الصعوبات، ولم أسـتطع أن أثنيه عن ذلك، أتى المخطط الإيمائي الافتتاحي مني مباشـرة، وشعر الأستاذ بحرص شـديد بشأن تلك السـقطات التي أفقدته السيطرة على نفسه بعض الشــيء، قال إن ملابس البهلوان يجب أن تجعلهم أكثر بهجة، لكننــي لم أوافقه، وقلت إنها العكس بالضبـط، إذا توقع الناس نكتة، عليـك أن تبـذل جهدا أكبـر لتضحكهم، لا يمكنك تحقيق كل شــيء من البداية: عليك أن تتسـلل إليهم وتلفت أنظارهم، اسـتغرق الأمر نصف يوم من الجدل لأكسـب هذه النقطة، لكن في مسائل أخرى لم أكن تقريبًا مقتنعًا بهذا الشـكل. وكانت النهاية أكثر ما أقلقني - الجزء الذي يكون عليَّ فيه أن أغادر خشبة المسرح وأحلق في جولة جوية أمـام الجماهير، كنت أعرف أنها فكرة طيبة، لكنني لم يكن لديَّ ثقة تامة في قدراتي على التحليق. إذا لم أحافظ على ارتفاع ثمانية أقدام ونصف أو تسعة، يمكن أن تنشأ مشاكل من كل نوع. قد يقفز الناس ويضربون ســاقيَّ بعنف، وحتى ضربة ضعيفة خاطفة كافية بالطبع

لأسقط. وماذا حقًا إذا قبض شخص على كاحلي وأسقطني على الأرض؟ قد ينفجر الصخب في المسرح، ربما ينتهي الأمر بقتلي. بدا ذلك خطرًا حقيقيًا، لكن الأستاذ استنكر توتري. قال: «يمكنك أن تفعلها، وصلت إلى اثني عشر قدمًا في فلوريدا في الشتاء الماضي، ولم أعد حتى أتذكر آخر مرة نزلت فيها عن عشرة أقدام. ربما في ألاباما، لكنك كنت مصابًا بنزلة برد في ذلك اليوم ولم تكن في حالتك. حققت الأفضل يا والتن تدريجيا تظهر تحسنا في كل مجال، يتطلب الأمر بعض التركيز، لكن تسعة أقدام لم تعد تحتاج إلى جهد كبير، مجرد يوم آخر في المكتب، تمشية حول المبنى، ثم العودة إلى البيت، لا يحتاج الأمر إلى مجهود. مرة واحدة وتتجاوز الأمر. صدقني يا بني، سنحقق نجاحًا كبيرًا».

كانت قفزة السلم الحيلةَ الأكثر صعوبة، ولابد أنني قضيت وقتًا في هذا الأمر يعادل ما قضيته في كل الأمور الأخرى مجتمعة، كان معظم العرض إعادة جمع لتحولات أشعر بالفعل بأنها مشجعة، الدعامات غير المرئية، الاندفاع نحو السماء، الألعاب البهلوانية الجوية- كانت كل هذه الأمور مألوفة لي. لكن قفزة السلم كانت جديدة، وكان البرنامج كله معلقًا في قدرتي على تنفيذها، ربما لا تبدو كبيرة الأهمية مقارنة بتلك الحركات الدرامية- مجرد ثلاثة أقدام فوق الأرض لثانية- لكن الصعوبة في التحول، خطوتان بسرعة البرق تتطلبان انتقالي من حالة إلى أخرى. من التخبط إلى الإمالة بجنون إلى خشبة المسرح، عليَّ أن أسير مباشرة إلى الإقلاع، وينبغي أن يتم في حركة واحدة مستمرة، مما يعني الاندفاع إلى الأمام، والقبض على الدرج وصعوده في الوقت ذاته، قبل ذلك

بستة أشهر، لم أحاول ذلك قط، لكنني حققت تقدمًا في تقليص طول نشوة ما قبل التحليق، من ست ثوانٍ أو سبع في البداية، أعتقد أنها انخفضت إلى أقل من ثانية، انصهار متزامن تقريبًا للتفكير والعمل، لكن بقيت الحقيقة أنني لا أزال أحلق من وضع الوقوف، فعلتُها دائما بتلك الطريقة؛ كانت إحدى العقائد الأساسية لفنِّي، ومجرد تصور هذا التغير الجذري يعني إعادة التفكير في العملية كلها من القمة إلى القاع؛ لكنني فعلْتُها فعلْتُها، يا للغرابة، ومن بين كل المآثر التي أنجزتها محلقًا في الجو، كانت أكثر ما أزهو به، سماها الأستاذ يهودي الاندفاع المتناثر، وكانت تشبهه تقريبًا: إحساس بالوجود في أكثر من مكان في الوقت ذاته. السقوط إلى الأمام، أغرس قدمي على الأرض لجزء من ثانية، ثم أغمض عيني. كان إغماض العينين حاسمًا، كان يعيد الذاكرة إلى النشوة، وحتى أصغر أثر من ذلك الخواء المتذبذب كان كافيا لإنتاجِ التحول الضروري في داخلي. أغمض عيني وأرفع ذراعي، معلقًا يدي في درجة غير مرئية، وأبدأ الصعود، لم يكن من الممكن أن أستمر في هذا العمل المعقد لوقت طويل جدا، كان الحد ثلاثة أرباع ثانية، لكن كان ذلك كل ما أحتاج إليه، وبمجرد أن أكمل الحركة، تصبح نقطة التحول في العرض، المحور الذي يلف حوله كل شيء آخر.

قبل أن نغادر كيب كود بثلاثة أيام، وصل بالبيرس أرو إلى بابنا رجل يرتدي بدلة بيضاء. قطع السائق الطريق كله من ويتشيتا، وحين نزل من السيارة وصافح يد الأستاذ، مبتسمًا ابتسامة عريضة ومطلقًا تحياته القلبية، افترضْتُ أنه «أورفيل كوكس» سيئ السمعة. أول ما خطر على ذهني أن أركل الكذاب في قِصبتيه، لكن قبل أن

أرحب بالفتى، أنقذني الأستاذ يهودي حين خاطبه بمستر بيجلو. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلا لأكتشف أنه واحد آخر من المعجبين الأغبياء بمسز ويذرسبون. شاب صغير في حوالي الرابعة والعشرين بوجه مستدير وضحكة مدهشة للص، وكان بين كل كلمة وأخرى يخرج من فمه اسم ماريون. لابد أنها أغرته بالكثير لتجنده ليقطع كل هذه المسافة الطويلة للقيام بمهمة من أجلها، لكنه بدا سعيدًا بنفسه ومزهوًا جدا لقيامه بذلك، مما جعلني أرغب في التقيؤ، حين اقترح الأستاذ الذهاب إلى المنزل لتناول مشروب بارد، كنت قد أدرت له ظهري بالفعل وأصعد السلم الخشبي بتثاقل.

توجهت مباشرة إلى المطبخ. كانت مسز هاوثرون تغسل الأطباق من الغداء، قابعة بجسمها النحيل على مقعد بجوار الحوض. قلت: «أهلا مسز هاو»، وأنا لا أزال أهتز من داخلي، وأشعر وكأن الشيطان نفسه يتقلب في رأسي. «ماذا عن العشاء الليلة؟».

ردت باللهجة المقتضبة لسكان نيو إنجلند: «سمك وبطاطس مهروسة وبنجر مخلل».

«رائع، أحب هذا البنجر، اعملي حسابي في كمية مضاعفة، مفهوم؟».

ابتسمت ابتسامة صغيرة، وقالت، وهي تلف في المقعد لتنظر إليَّ: «ليست هناك مشكلة يا مستر باك». سرت ثلاث خطوات أو أربع في اتجاهها، ثم أعددت نفسي لدحرها.

قلت: «رائع مثل طبخك يا مدام، أراهن أنك لم تطهي طبقًا حلو المذاق مثل هذا الطبق».

وبعد ذلك، قبل أن تنطق بكلمة، أطلقْتُ ابتسـامة كبيرة، وفرذْتُ ذراعــي، وارتفعْتُ عن الأرض. ارتفعْـتُ ببطء، وصعدت بقدر ما أسـتطيع دون أن يرتطم رأسي في السـقف، بمجرد أن وصلْتُ إلى القمــة، تعلقت هنــاك أتطلع إلى مسـز هاوثـرون، وكانت الصدمة والذعــر اللذان انتشــرا عبر وجههـا كل ما تمنيــت، ماتت صرخة مكتومــة في حنجرتها؛ وغارت عيناها في رأسـها؛ ثم سـقطت من على الكرسي إلى الأرض مغشيًا عليها مع خبطة صغيرة.

كان بيجلو والأستاذ يدخلان المنزل في تلك اللحظة بالضبط، وقد جعلتهما الخبطة يجريان إلى المطبخ. وصل الأستاذ أولاً، مندفعًا من الباب وأنا في منتصف ارتفاعي، لكن حين وصل بيجلو بعد ثانيتين، كانت قدماي تلامسان الأرض بالفعل.

«ما هذا!» قال الأسـتاذ مدركًا الموقف فــي لمح البصر، دفعني جانبا وانحنى على جسد مسز هاوثرون المغمى عليها. «ما هذا بحق الجحيم!»

قلت: «مجرد حادث بسيط».

قــال: «لا يمكن أن يكـون حادثا»، وبدا أكثر غضبًـا مما رأيته منذ أشــهر، وربما سـنوات. اعتذرْتُ فجأة عن المزحة الغبية كلها. «اذهــبْ إلى غرفتك، يا غبي، ولا تخرج قبل أن أناديك. معنا رفيق الآن، وسوف أحاسبك فيما بعد».

لم آكل شـيئًا من ذلك البنجر، أو أي طبق آخر من أطباق مسـز هاوثورن بسـبب ذلك؛ بمجرد أن فاقت من إغمائها، نهضت مندفعة وخرجت من الباب وأقسـمت ألا تضع قدمها في منزلنا مرة أخرى، لم أكن قريبًا لأشـاهد رحيلها، لكن هذا ما أخبرني به الأستاذ صباح

اليوم التالي. فــي البداية اعتقدْتُ أنه يمزح معي، لكن حين لم تظهر بحلــول منتصف اليوم، أدركْتُ أنني أفزعْتُ المرأة المســكينة حتى المــوت، ذلك بالضبط ما أردْتُ، لكن وقد فعلْتُه، لم يعد يبدو مبهجًا، لــم تعد حتى لتأخــذ أجرها، ورغم أننا بقينا اثنتين وســبعين ســاعة أخرى، كانت آخر مرة رأيناها فيها.

لم تتدهور الوجبات فقــط، لكنني عانيْتُ من الإهانة حين جعلني الأســتاذ يهودي أنظِف المنزل صباح اليــوم الذي حزمنا فيه أمتعتنا ورحلنا، كرهْتُ أن أُعاقَب على هذا النحو - أرسَل إلى السرير دون عشــاء، أكلف بمهام المطبخ والأعمال المنزلية - ولم يجعله غضبي وتذمري يتخلى عن حقوقه. لم يكن مهمًا أنني كنت أشهر نجم صغير منذ حمًل داود مقلاعه وانطلق، خرجْتُ عن الخط، وقبل أن يصيبني الغرور، لم يكن أمام الأستاذ من اختيار إلا أن يهاجمني بهذا الشكل.

ولم يكن هناك ما يقال ليجلو عن سبب نوبة غضبي. مكث بضع ســاعات فقط، وفي الأصيل جاء تاكســي واستقله- ليأخذه إلى أقرب محطة قطار على ما يفترض، حيث يبدأ رحلة العودة الطويلة عائدًا إلى كانســاس. رأيْتُه ينصرف من شرفتي في الدور الثاني، احتقرته نتيجــة بهجته الغبية وحقيقة أنه رفيــق أورفيل كوكس، الرجل الذي فضلته مســز ويذرسبون عليَّ وعلى الأستاذ، ومما جعل الأمر أسوأ أن الأســتاذ يهودي تصرف بأفضل مــا يكون، وأوجع قلبي أن أرى الأدب الــذي قابــل به تلك الســخرية من كاتب بنك، لــم يصافح يده فقــط، لكنه كلفه بنقل هدية فرح العــروس المنتظرة. بالضبط وباب السيارة على وشك أن يغلق، وضع رزمة كبيرة ملفوفة بشكل جميل فــي يدى النــذل. لم يكن لديَّ فكــرة عما في الصنــدوق، لم يخبرني الأســتاذ، ورغم أنني نويت أن أســأله عنه فــي أول فرصة، مضت

ســاعات طويلــة قبل أن يفرج عني من ســجني، نســيت تمامًا حين حانــت اللحظة، وكما تبين، انقضت ســبع ســنوات قبل أن أكتشــف حقيقة الهدية.

ذهبنا من كيب كود إلى ورسيستر، نصف يوم بالسيارة في اتجاه الغرب. بدا جيدًا أن نســافر في البيرس أرو مرة أخرى، مختفين في مقاعدنا الجلدية كما في الأيام الخوالي، وبمجرد أن اتجهنا إلى داخل البــلاد، خلفنــا وراءنا كل النزاعات كما خلفنــا الكثير جدًا من أغلفة الحلــوى، مندفعين إلى الأعشــاب الكثيفة والأمــواج. ويبقى أنني لم أكن أريد أن أســلم بشيء، وفقط لأتأكد من عدم وجود كراهية بيننا، اعتذرْتُ للأســتاذ مرة أخــرى، قائلا: «أخطأت وأنا آســف»، وبدا بالضبط أن المسألة كلها كانت بلا أهمية مثل أخبار الأمس.

نزلنا في فندق «شيري فالي»، عش عاهرة قذرة على بعد بنايتين من مســرح «لُكْســور»، حيث أؤدي العــرض الأول. وكنا نتدرب في قاعة الموســيقى في الأيــام الأربعة التالية صباحًا وعصرًا، كان لُكْســور أبعد مــا يكون عن قصــر الترفيه الفخم الــذي تمنيته، لكن كان به خشــبة مسرح وستائر وإعداد للإضاءة، وأكَّد لي الأستاذ أن المسارح ستكون أفضل بمجرد أن نصل إلى بعض المحطات الكبيرة في جولتنا، قال: إن ورسيستر مكان هادئ جدًا نبدأ منه، حتى أعتاد على خشــبة المسرح. استوعبت الأمر بســرعة، وتعلمت العلامات والإشــارات بيســر، ورغم ذلك كانت هناك أخطــاء وعيوب يجب إصلاحها: إصلاح تتابع الكشافات، تنسيق الموسيقى مع الحركات، تصميم رقصة النهاية لتجنب الشــرفة التي تبرز على نصف مقاعد الأوركســترا. اســتغرق الأســتاذ في الكثيــر من التفاصيــل، اختبر

الستائر مع مسئول الستائر، وضبط الإضاءة مع مسئول الإضاءة، وتحدث دون انقطاع عن الموسيقى مع الموسيقيين، ودون تكلفة، استخدم سبعة منهم ليصاحبونا في آخر يومين من التدريب، واستمر في إجراء التعديلات والتصويبات على أعمالهم حتى آخر دقيقة، ساعيًا إلى أن يكون كل شيء صحيحًا، عملت أنا نفسي كثيرًا معهم. مجموعة من العاملين الذين حققوا شهرة في السابق، قدامَى استهلوا حياتهم العملية قبل أن أولد، ولابد أنهم قضوا عشرين ألف ليلة في مسارح متنوعة وعزفوا لمائة ألف عمل مختلف. رأى هؤلاء الرجال غرباءُ الأطوار كل شيء، ومع ذلك حين خرجت وأديت عرضي أول مرة أمامهم، تحطمت كل أبواب الجحيم؛ أصيب قارعو الطبول بالإغماء، وسقط الباسون من عازفه، واهتاج عازف الترومبون وسقط. بدا الأمر علامة طيبة بالنسبة لي، إذا استطعْتُ أن أؤثر في أولئك الساخرين متجمدي المشاعر، فكرْ فقط في الأمر حين أكون أمام جماهير عادية.

كان الفندق في مكان مناسب، لكن الليالي في ذلك المكان القذر كانت تقتلني تقريبا، مع كل العاهرات اللائي يصعدن ويهبطن السلالم ويمشين في القاعات، كان قضيبي يرتجف مثل عظمة مكسرة ويحرمني الراحة. كنت أنا والأستاذ نتشارك في غرفة مزدوجة، وكان عليَّ أن أنتظر حتى أسمعه يغط في السرير المجاور قبل أن أجرؤ على لمس قضيبي. كان العمل بلا نهاية، كان يحب الحديث في الظلام، مناقشًا بعض المسائل الصغيرة عن تدريبات ذلك اليوم، وبدلاً من الاهتمام بأمر في متناول اليد (وكان في يدي أيضًا)، كان عليَّ أن أفكر في ردود مهذبة على أسئلته، مع كل دقيقة تمر، يصبح العذاب أكثر تدميرًا، ليكون الألم أكثر من أن يحتمل، حين يغفو في

النهاية، أمد يدي إلى أسـفل وأخلع فردة من جوربي القذر. كان ذلك ماسـك المنّي، أمسكه في يدي اليسرى وأعمل باليمنى، قاذفا السائل المنـوي في طيات كثيرة من القطن، بعـد مثل هذا التأجيل الطويل، لم يكن الأمر يستغرق حكة أو اثنتين، كنت أهمهم بترنيمة هادئة من ترانيم الشـكر وأحاول أن أنام، لكن مرة واحدة لم تكن كافية بالنسبة لي فـي تلك الأيام. ربمـا تطلق عاهرة ضحكة فـي القاعة، وتصر سوسـت السرير في غرفة بالدور العلوي، ويمتلئ رأسي بكل أنواع الفحش الجسدي، وقبل أن أدرك، ينتصب عضوي وأبدأ من جديد.

ذات ليلـة، لا بد أنني أصدرت الكثير من الصخب، عشـية تقديم عرض ورسيسـتر، وكنت في طريقي لملء جورب آخر من المتعة حين استيقظ الأستاذ فجأة، حديث عن هزة الأعصاب، وحين انطلق صوته في الظلام، بدا وكأن النجفة سقطت على رأسي.

«ما المشكلة يا والت؟».

أسـقطْتُ ما في يدي كما لو أنه أنبت أشـواكا، وقلت: «مشـكلة؟ ماذا تعني بمشكلة؟»

«أقصد هذا الصخب؛ التدافع والهز والصرير، تلك المشاجرات الآتية من سريرك».

«لدي حكة، حكة غريبة يا أستاذ، ولن تختفي إذا لم أهرش بقوة».

«حكـة، حسـنا. حكة تبدأ فـي منطقـة العانة وتنتهـي على كل المـلاءات. اسـترح يا فتى، تنهك نفسـك، والاسـتعراضي المراهق استعراضي مائع».

«لسْتُ مرهقا، إنني جاهز تمامًا ومتشوق للذهاب».

«في الوقت الحالي ربما؛ لكن الاستمناء له ضريبته، وقبل مرور وقت طويل تشعر بالإجهاد، لا أريد أن أقول لك أي شيء ثمين هو القضيب. تغرم به كثيرًا لكنه يمكن أن يتحول إلى إصبع من الديناميت. حافظ على البندو أو القطرة يا والت. حافظ عليها لما يستحق حقًا».

«أحافظ على ماذا؟»

«البندو، مصطلح هندي لماء الحياة».

«تقصد الستيكوم؟»

«صحيح، الستيكوم، أو ما تسميه بأي شكل آخر، لابد أن هناك مائة اسم، لكنها كلها تعني الشيء ذاته».

«أحب البندو؛ إنها تهزم الآخرين».

«مادامت لا تهزمك، أيها الرجل الصغير. أمامنا أيام وليال كبرى، وسوف تحتاج إلى كل قدر من قوتك».

لا أي شيء، أتعب أو لا أتعب، أحافظ على البندو أو أنتجها في دلاء، اندفعت من البوابة مثل شظية من الجحيم؛ أذهلناهم في ورسيستر، أثرنا إعجابهم في سبرنج فيلد، وخرجوا من ملابسهم في بريدج بورت، حتى الحادث المؤسف في نيو هافن[1] تبين أنه نعمة مقنَّعة، حيث إنه أخرس المشككين إلى الأبد، مع كثرة الكلام عن تحليقي في الجو، كان من الطبيعي أن يفترض بعض الناس الخداع. يؤمنون بأن العالم مُعَدٌّ بطريقة معينة، وليس فيه موضع لشخص له

---

(١) سبرنج فيلد: عاصمة ولاية إلينوي. بريدج بورت: مدينة جنوب غرب كونيكتيكت. نيو هافن: مدينة جنوب كونيكتيكت.

مواهبي، ما أفعله يكســر كل القواعد، يناقض العلم، ويقلب المنطق والبديهــي، ويفرم مائة نظرية، وبدلاً من تعديل النظريات لتتناسـب مـع ما أقــوم به، قــرر ذوو التأثير والأســاتذة أنني أغـش. امتلأت الجرائــد بهذه المواضيع في كل البلدات التي نذهب إليها: مناظرات ومجــادلات، اتهامات واتهامات مضادة، كل المؤيدين والمعارضين الذين يمكن أن تتخيلهم، لم يشــارك الأســتاذ في أي منها، ابتعد عن الحلبة، مبتســما بســعادة وإيصالات شـباك التذاكرِ تصل إلى أرقام كبيرة، وحيــن يضغط عليه الصحفيون ليقــدم تعليقًا، كان الرد ذاته دائما: «تعال إلى المسرح واحكمْ بنفسك».

بعد أســبوعين أو ثلاثة من الخــلاف المتصاعد، وصلت الأمور فــي النهاية إلــى ذروتها في نيو هافن. لم أنــسَ أنها موطن كلية ييل - ولو لم تحدث الجرائم والاعتداءات التي اقترفت في كانســاس قبل ذلــك بعامين، كان من الممكن أيضًا أن تكون موطن أخي أيســوب، أحزنني أن أكون هناك، وطوال اليوم السابق على العرض، جلسْتُ في غرفة الفندق بقلب مثقل بالحزن، متذكرًا الأوقات المجنونة التي قضيناها معًا ومفكرًا في أي رجل عظيم كان يمكن أن يصبح، حين غادرنا في النهاية إلى المســرح في الســاعة السادسة، كنْتُ محطمًا عاطفيا، حاولت أن أكتشف موضعي، حققت العرض الأكثر تسطحا فــي حياتــي العملية. اختل تقديــري للزمن، تمايلت أثنــاء الدوران، وكان ارتفاعــي مُخزيًا، في لحظة الالتواء إلى أعلى والطيران فوق رؤوس الجماهيــر، انفجرت في النهاية القنبلة المرعبة، لم أســتطع أن أحافــظ على الارتفاع، بقوة الإرادة فقط نجحت في الارتفاع إلى ســبعة أقدام ونصــف، وكان ذلك أفضل ما أســتطيع، وبدأت النهاية بشــكوك هائلة، مُدركًا أن شــخصًا بطول متوسط يستطيع أن يمسك

بـي دون أن يتكلف عناء القفز، بعد ذلك تحولت الأمور من السـيئ إلى الأسوأ. في منتصف الطريق فوق مقاعد الأوركسترا، قررت أن أبذل آخر جهد لأعرف إن كنت أسـتطيع أن أرتفع قليلاً. لم أكن آمل فـي معجزات- مجرد مسـاحة صغيرة للتنفس، ربما سـت بوصات أو ثمانـي بوصـات، توقفتُ لحظة لإعادة ترتيب الأمـر، مُحلقًا في موضعـي مُغلقًـا عيني ومركزا فـي مهمتي، لكن بمجـرد أن بدأتُ الحركة مرة أخرى، كان ارتفاعي محزنا كما كان من قبل، لم يقتصر الأمـر علـى أنني لم أرتفع، لكن بعد بضع ثـوانٍ أدركْتُ أنني بدأت أهبـط بالفعل. حدث ذلك ببطء، ببطء شـديد، بوصـة أو اثنتين كلما تقدمت ياردة إلى الأمام، وكان الانحدار لا رجعة فيه- مثل تسـرب الهـواء من بالونة. وحين وصلت إلـى الصفوف الخلفية، كنت على ارتفاع سـتة أقدام، هدف سـهل حتى لأقصر قزم، وهنا بدأ المزاح. اندفع غبى أصلع يرتدي سـترة حمراء مـن مقعده وضربني بعنف في كعب قدمي اليسرى، درت من الضربة، وملت مثل منصة مائلة في استعراض، وقبل أن أصحح توازنـي، ضرب شخص آخر قدمي الأخـرى. هذه الخبطة الثانية حسـمت الأمر، وقعـت من الجو مثل عصفور ميت وسـقطت بجبهتي أولا على حافة ظهر مقعد معدني. كان التأثير فجائيا جدا وعنيفًا جدا، أفقدني الوعى تمامًا.

لـم أدرك اللغط الـذي حدث بعد ذلك، لكن طبقًـا لكل الروايات، كان قمة القعقعة: تسـعمائة شخص يصيحون ويقفزون بكل الطرق، انفجار من هسـتيريا جماعية انتشر في القاعة مثل النار في الهشيم، فاقدًا الوعي بهذا الشـكل، برهن سـقوطي على شيء واحد، وبرهن عليه دون أدنى شك للأبد. كان العرض حقيقيا، لم تكن هناك أسلاك غيـر مرئية متصلـة بأطرافي، أو فقاعات من الهليـوم مخبأة تحت

ملابسـي، أو محركات صامتة ملفوفة حول خصري، واحدًا واحدًا، مر أفـراد الجمهـور بجسـدي الهاجع حول المسـرح، يلمسـونني ويقرصونني كأنني عينة طبية. جردوني من ملابسي، نظروا داخل فمي، فردوا وجنتي وحدقوا في فتحة الشرج، ولم يجد أحد منهم شيئًا لم يضعه الرب نفسـه، وأثناء ذلك اندفع الأسـتاذ من موضعه وراء السـتار وشـق طريقه باتجاهي، حين قفز على تسعة عشر صفًا من الزبائـن وانتزعني من آخر ذراعين، صـدر الحكم بالإجماع، كان والت الولد العجيـب بضاعة حقيقية. كان العرض صادقًا، وما تراه هو ما تراه، آمين.

بـدأ الصداع في تلك الليلة، نظرًا لأنني اصطدمت بظهر المقعد، لم يكن مُدهشًـا أن أشـعر ببعـض الوخز والتأثيـرات اللاحقة، لكن هذه الآلام كانت رهيبة ـ هجوما شـنيعا بمثقاب، وابلاً لا نهائيا من البَـرَد يضرب في الجدران الداخليـة لجمجمتي - يوقظني من النوم العميـق في منتصف الليل. كنت أنا والأسـتاذ في غرفتين متصلتين بحمام بينهما، وبمجرد أن تواتيني الشـجاعة لأبرح السـرير، أترنح باتجـاه الحمام، داعيًا أن أجد بعض الأسـبيرين فـي خزانة الدواء، كنت مشوشًا ومشتتًا جدا نتيجة الألم، لم أدرك أن نور الحمام مضاء بالفعل. أو إذا أدركت، لا أتوقف لأفكر في سبب إضاءته في الساعة الثالثة فجرًا، وكما اكتشفت بسرعة، لم أكن الوحيد الذي ترك سريره في هذه الساعة الآثمة، حين فتحت الباب ودخلت غرفة مغطاة ببلاط أبيض مبهـر، اصطدمت تقريبا بالأسـتاذ يهـودي. مرتديًا بيجامته الحريـر الأرجواني، ويقبض على الحوض بيديه وينثني ألما، يلهث

ويتقيأ كأن أحشـــاءه اشتعلت فيها النار؛ اســتمر الأمر عشرين ثانية أخرى أو ثلاثين، وكانت مشــاهدته مفزعة، حتى إنني نسيت آلامي تقريبًا.

بمجرد أن أدرك أنني هناك، فعل كل ما يستطيع ليغطي ما حدث للتو. حوَّل تكشــيره إلى ابتســامات هســتيرية متكلفة؛ استقام وعدل كتفيــه؛ وملَّس على شــعرَه بكفيه. كنت أريــد أن أطلب منه أن يكف عن التظاهر، وأخبره بأنني اطلعت على ســره، لكن ألمي كان سيئًا بدرجة تحول دون أن أستدعي الكلمات، سألني عما منعني من النوم، وحيــن علم بصداعي، تحمل مســئولية الوضع بالاندفاع ولعب دور الطبيب: أخرج الأسبيرين من القنينة، وملأ كوبا من المياه، وفحص الضربة التي تلقيتها على جبهتي، تحدث كثيرا أثناء هذه الإسعافات، ولم أجد فرصة للكلام.

قــال، وهــو يحملني إلى غرفتــي ويضعني في الســرير: «نحن اثنــان، أليس كذلك؟ في البداية تقع ويصطدم دماغك، ثم أتعرض أنا نفســي لسمك فاسـد، ينبغي أن أتعلم التخلي عن هذه الأشياء التافهة. كلما أكلته أصاب بتقلص رهيب».

لم تكن قصة ســيئة، وخاصة بالنســبة لشــخص لديه القدرة على الارتجــال، لكنها لم تخدعني، بصرف النظــر عن مدى رغبتي في تصديقه، لم أُخدَع لثانية.

بحلول عصر اليوم التالي، تحسن الصداع، استمر نبح غامض قرب صدغي الأيسر، لكنه لم يكن كافيًا ليمنعني من الحركة، حيث إن الخبطة كانت على الناحية اليمنى من جبهتي، كان من المتوقع أن يكون الألم فيها أكثر، لكنني كنت عديم الخبرة بهذه الأمور ولا أعول على الفارق. كل ما كان يهمني أنني صرت أفضل، وأن الألم يتضاءل، وأنني سأكون مستعدًا للعرض التالي.

تركزت كل مخاوفي حول حالة الأستاذ- بصرف النظر عن سبب الهجمة الشنيعة التي رأيتُها في الحمام، لم يعد من الممكن أن تبقى الحقيقة مختبئة. انكشفت خدعته، ولأنه بدا أفضل بكثير في الصباح التالي، لم أجرؤ على ذكر الأمر؛ لم أستطع ببساطة أن أفتح فمي، لم أكن فخورا بالطريقة التي تصرفت بها، لكن فكرة إصابة الأستاذ بمرض رهيب كانت أبشع من أن أفكر فيها، بدلاً من القفز إلى نتائج مرضية، تركته يجبرني على قبول ما رواه، كانت حكاية السمك الفاسد تريحني؛ أسكتتني بأنه على ما يرام، رأيت ما كان ينبغي ألا أراه، وسوف يتأكد من أنني لن أرى ذلك مرة أخرى، أستطيع أن أعتمد عليه في ذلك، ينفي الأمر، يبدو قاسيًا، وتدريجيا بدأت أظن أنني لم أر الأمر رغم كل شيء؛ ليس لأنني أصدق هذه الكذبة- لكنني لأنني كنت مرعوبا بدرجة تجعلني لا أخاف من ألا أصدقها.

من نيو هافن ذهبنا إلى بروفيدنس؛ ومن بروفيدنس إلى بوسطن؛ ومن بوسطن إلى ألباني؛ ومن ألباني إلى سراكوز؛ ومن سراكوز إلى بافلو[1]. أتذكر كل تلك المحطات، وكل تلك المسارح والفنادق،

---

(١) بروفيدنس: عاصمة ولاية جزيرة رود (شمال شرق الولايات المتحدة، في الأطلنطي). ألباني: مدينة في غرب كاليفورنيا. سراكوز: مدينة في وسط نيويورك. بافلو: مدينة غرب نيويورك.

وكل تلك العروض التي قدمتها، كل شيء عن كل شيء. كنا في أواخر الصيف وأوائل الخريف، وتدريجيا؛ فقدت الأشجار خضرتها، صار العالم أحمر وأصفر وبرتقاليا وبُنِّيًا، وحيثما ذهبنا كانت الطرق مغطاة بمشاهد غريبة بألوان متغيرة، كنت أنا والأستاذ نحرز نجاحًا بعد الآخر، وبدا أنه لم يعد هناك ما يوقفنا. قدمت عروضًا في أماكن مكتظة في كل مدينة، لم تبع المعارض فقط، اتجه مئات آخرون إلى شباك التذاكر كل ليلة، قام السماسرة بأعمال رائعة، وباعوا التذاكر بثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف أو خمسة أضعاف قيمتها الأصلية، وكلما توقفنا أمام فندق جديد، يكون هناك حشد في الانتظار عند المدخل، هواة شغوفون يقفون لساعات في المطر والصقيع ليلقوا فقط نظرة عليَّ.

وكان زملائي المؤدون غيورين بعض الشيء، على ما أظن، لكن الحقيقة أنهم لم يحظوا قط بمثل هذا الحظ، حين يتدفق الجمهور لرؤية عرضي، يرون العروض الأخرى، أيضًا، وكان ذلك يعني أموالاً في جيوبنا جميعا، في تلك الأسابيع والشهور، تصدرتُ البرامج التي تشمل كل أنواع التسلية المثيرة. ممثلو الكوميديا، والحواة، ومطربو الفالستو، ومقلدو أصوات الطيور، وفرق الجاز، والقرود الراقصة - كانوا جميعًا يؤدون أدوارهم قبلي، أحببت مشاهدة هذه الأشياء الغريبة، وكنت أفعل أقصى ما في وسعي لأعقد صداقات في الكواليس مع كل من يبدو ودودًا، لكن الأستاذ لم يكن حريصًا على أن أختلط بزملائي. كان متحفظا مع معظمهم ويحثني على اتخاذه نموذجا. كان يهمس: «أنت نجم، تصرف على هذا النحو، لا ينبغي أن تضيع يومك مع هؤلاء الحمقى». كان الأمر موضوع

خلاف صغير بيننا، لكنني كنت أتخيل أنني سـأكون في دائرة حفلة المنوعات لسنوات تالية، ولا أرى فائدة في خلق أعداء بلا ضرورة، دون علمي وضع الأسـتاذ خططه لمسـتقبلنا، وبحلول نهاية سبتمبر كان يتحـدث علانيــة عن جولة فــي الربيع لرجل واحـد. هكذا كان الأســتاذ يهودي: كلمــا كانت أمورنا أفضل، تطلــع إلى الأفضل، لم تكن الجولة التي نقوم بها لتنتهي قبل الكريسـماس، لكنه لم يسـتطع مقاومة التفكير فيما يليها، في شيء ربما يكون أكثر إثارة، في المرة الأولــى التي ذكر لي فيها ذلك، أصبْتُ بغصة من الصرامة القاطعة للاقتراح. كانت الفكرة أن نأخذ طريقنا شـرقًا من سـان فرانسيسكو إلــى نيويورك، ونقـدم عروضًا بطلبات خاصة في عشـر أو اثنتي عشـرة من أكبـر المدن. نحجـز العروض في سـاحات مغلقة وفي ملاعب كرة القدم حديقة ميدان ماديسـون وملعب سولدير، ولن يقل الجمهور بحال من الأحوال عن خمسـة عشـر ألفا. وصف المسألة بأنهـا «موكـب انتصار عبر أمريـكا»، ومع انتهـاء عملية الإقناع بخططه، كان قلبي ينبض بأربعة أضعاف معدله الطبيعي- يسـوع- يا له من رجل بارع، كان فمه من آليات المســاومة العظيمة في كل الأزمــان، وبمجرد أن ينطلق بكامل طاقتـه، تتدفق الأحلام منه كما يندفع الدخان من مدخنة.

قلْـتُ: «رائع، يا ريس، إذا اسـتطعْتَ تنظيم جولة بهذا الشـكل، فسوف نغرق في الملايين».

قال: «سـأنظمها على أكمل وجه، اسـتمر فقط في العمل بشـكل جيد، والمسـألة مضمونة، هذا كل ما تحتاج إليه يا والت، تستمر في القيام بما تقوم به، ويكون موكب رولي مُؤكدًا».

أثناء ذلك كنا نستعد لأول عرض مسرحي أقدمه في نيويورك، لم نكن لنصل إلى هناك قبل عطلة عيد الشكر، ولا يزال الطريق طويلاً، لكننا كنا نعرف أنه سيكون قمة الموسم، ذروة مساري المهني إلى حد بعيد، كان مجرد التفكير في الأمر يصيبني بدوار. عشرة عروض في بوسطن بالإضافة إلى عشرة في فيلادلفيا لا تساوي عرضًا في نيويورك، ضع ستة وثمانين عرضا في بافالو مع ثلاثة وتسعين في ترينتون، ولا يساوي المجموع دقيقة على خشبة المسرح في البيج أبل، كانت نيويورك النجمة، مركز الانطلاق على خريطة صناعة الترفيه، وبصرف النظر عما حصلت عليه من إطراء في المدن الأخرى، ما كنت لأصبح أي شيء قبل أن أمثل في برودواي ليروا ما يمكن أن أفعله، وهذا هو السبب الذي جعل الأستاذ يحدد لنيويورك وقتًا متأخرًا جدا من الجولة، كان يريد لي أن أكون خبيرًا بعملي حين أصل إليها، جنديًا مجربًا صقلته المعارك يعرف هدف كل رصاصة ويستطيع التعامل مع أية مشكلة، صرْتُ هذا الجندي المشغول باستمرار. أديْتُ، بحلول الثاني عشر من أكتوبر، أربعة وأربعين عملا في مسارح متنوعة، وشعرت بأنني جاهز، مستعد للصعب كما كنت دائما، ومع ذلك لا يزال هناك شهر علينا أن نقضيه، لم أتحمل قط مثل هذا الترقب، كانت نيويورك تنخر في ليلاً ونهارًا، وبمرور الوقت لم أعد أحتمل.

عرضنا في ريتشموند في الثالث عشر والرابع عشر، وفي بلتيمور في الخامس عشر والسادس عشر، ثم اتجهنا إلى سكرنتون في بنسلفانيا. أديت بشكل جيد هناك، جيد جدا بشكل مؤكد وكنت أفضل من الآخرين، ومع انتهاء العرض مباشرة، بالضبط وأنا أنحني للجمهور والستارة تسدل، أغمي عليَّ وسقطت على الأرض.

شـعرْتُ بأنني في حالة جيدة حتى تلك اللحظة، وقمت بكل حركاتي الجوية بكل ثقة ورباطة جأش كعادتي، لكن وقدماي تلمسـان خشبة المسرح آخر مرة، شعرت وكأنني أزن عشرة آلاف رطل. حافظت على وضعي وقتًا كافيًا فقط للابتسامة والانحناءة وغلق الستارة، ثم التـوت ركبتاي، وتراجعْتُ، وارتطم جسـدي بالأرض. حين فتحت عيني فـي غرفة الملابس بعد خمس دقائق، شـعرت بدوار خفيف، لكن بدا أن الأزمة انتهت، لكن حين وقفت عاد الصداع على الفور، يمزقني بنوبة وحشـية ورهيبة من الألـم، حاولْتُ أن أخطو خطوة، لكـن العالم كان يسـبح، متموجًا مثل راقصة شـرقية في مرآة بيت الرعـب، ولم أعرف إلى أيـن أمضي. وأنا أخطـو الخطوة الثانية، فقدت الاتزان بالفعل، ولو لم يلتقطني الأسـتاذ لسـقطت على وجهي مرة أخرى.

لـم يكن أحد منا مسـتعدًا للهلع عند هـذه النقطة، يمكن أن يحدث الـدوار والصداع نتيجة عـدة أمور - التعب، نزلة بـرد، التهاب في الأذن - لكن لمجرد الأمان، اتصل الأستاذ بويلكس بير ولغى عرض الليلة التالية. نمت بعمق في فندق سـكرنتون، وفي الصباح كنت في حالة جيدة مرة أخرى، تخلصت من الألم والقلق تمامًا. تحدى شفائي كل منطق، لكننا تقبلناه بوصفه ضربة حظ لا تستحق التفكير. انطلقنا إلى بيتسبرج بروح معنوية جيدة، سعيدين بيوم العطلة، وبمجرد أن وصلنـا إلى هناك ونزلنا في الفندق، دخلنا معًا دارا للسـينما لنحتفل بعودتـي إلى طبيعتي. ومع ذلك، في الليلـة التالية وأنا أقدم العرض على مسـرح فوسـبرج، تكرر تمامًا ما حدث في سـكرنتون، قمت بعرض رائع، وبالضبط والسـتارة تسـدل والعرض ينتهي انهرت، بدأ الصداع مرة أخرى على الفور بمجرد أن فتحت عيني، وفي هذه

المرة لم ينتهِ في ليلة واحدة، حين استيقظْتُ في الصباح التالي كانت الخناجر لا تزال مستقرة في جمجمتي، ولم تبرحها قبل الساعة الرابعة عصرًا - بعد عدة ساعات من اضطرار الأستاذ إلى إلغاء عرض تلك الليلة.

كان كل شيء يشير إلى الخبطة التي تلقيتها في رأسي في نيو هافن، كانت السبب الأكثر احتمالا لمشكلتي، لكن إذا كنت أتجول بارتجاج في المخ خلال الأسابيع القليلة السابقة، فلابد أنه ارتجاج خفيف في التاريخ الطبي، كيف يمكن أن أفسر تلك الحقيقة الغريبة والمقلقة بأنني أبقى في صحة جيدة مادمت أضع قدمي على الأرض؟ كانت نوبات الصداع والدوار تأتي فقط بعد أن أؤدي العرض، وإذا كانت الرابطة بين الارتفاع وحالتي الجديدة مؤكدة كما يبدو، من ثم تساءل الأستاذ عما إذا لم يكن مخي قد ارتج بطريقة تجعله تحت ضغط غير مناسب على شرايين الدماغ كلما صعدت في الجو، مما يؤدي بدوره إلى نوبات موجعة حين أنزل، كان يريد أن يضعني في مستشفى لعمل بعض صور بأشعة إكس على جمجمتي، قال: «لماذا لا ننتهز الفرصة؟ قطعنا الجزء الأكبر من الجولة، وربما نحتاج إلى أسبوع أو عشرة أيام إجازة، يجرون بعض الاختبارات، ويبحثون في جهازك العصبي، وقد يكتشفون طبيعة هذا الشيء اللعين».

قلت: «مستحيل، لن أذهب إلى أي مستشفى».

«الراحة هي العلاج الوحيد لارتجاج المخ. وإذا كان الأمر كذلك، فليس لك اختيار».

«انسَ الأمر، أعمل على الفور في أشغال شاقة ولا أدخل مستشفى».

«فكـرْ فــي الممرضـات يــا والت، أولئـك الفتيــات الصغيرات الجميلات في أزيائهن البيضاء، يكون لديكِ عدد من الفاتنات يغرمن بك ليلاً ونهارًا. إذا تصرفت ببراعة ربما ترى بعض الإثارة».

«لن تســتطيع إغرائي، لا يمكن لأحد أن يســتغفلني، وقعنا على القيام ببعض العروض، وأسعى إلى القيام بها - حتى لو قتلتْنــي».

«ريدنــج وألتونا ليســتا مــكان الإثارة يا بني، يمكــن أن نتخطى إلميرا وبنجهامتون[1]، ولــن يطرأ أي اختلاف، أفكر في نيويورك، وأعرف أنــك أيضًا تفكر فيها، تلك هي المدينة التي ينبغي أن تكون في لياقتك من أجلها».

«دماغي لا يؤلمني وأنا أقدم العرض، هذا هو الأساس يا ريس، أســتمر مادمت أستطيع الاســتمرار، من يبالي إذا عانيت من بعض النتائج؟ أســتطيع أن أتعايش مع الألم، الحيــاة مؤلمة على أية حال، والجيد الوحيد فيها حين أكون على خشبة المسرح أقدم عرضي».

«المشــكلة أن العرض يســتنفذك، تظل تنزل بذلك الصداع، ولن تبقى والت الولد العجيب لفترة طويلة، ســيكون عليَّ أن أغير اسمك ليكون مستر فيرتيجو».

«مستر ماذا؟»

«مستر دوار. مستر الخوف من الأماكن المرتفعة».

«لا أخاف من شيء، تعرف ذلك».

---

(١) ريدنج: مدينة جنوب شــرق بنســلفانيا. ألتونا: مدينة وسط بنسلفانيا. إلميرا وبنجهامتون: مدينتان جنوب نيويورك.

«أنتِ شجاع تمامًا يا بني، ولهذا أحبك؛ لكن هناك وقتا في مسار كل محلِّق يكون فيه الجو محفوفا بالمخاطر، وأخشى أن نكون قد وصلنا إلى هذا الآن».

ظللنا نتجادل في هذا الأمر طوال الساعة التالية، وفي النهاية قاومْتُ بما يكفي ليمنحني فرصة أخيرة، كانت تلك هي الصفقة، أؤدي في ريدنج في الليلة التالية، وسواء كان هناك صداع أو لم يكن، إذا كنت في حالة جيدة تسمح لي بمواصلة الجولة إلى ألتونا في الليلة التي بعدها، فسوف أؤدي طبقا للجدول، كان الضغط لتحقيق ذلك شيئًا مجنونًا، لكن تلك النوبة الثانية أفزعتني جدًا، وخشيت أن يكون معناها أنني فقدْتُ حساسيتي، ماذا لو لم يكن الصداع إلا الخطوة الأولى؟ تصورْتُ أن أملي الوحيد أن أشق طريقي، أن أواصل أداء العروض لتتحسن حالتي أو أعجز عن أدائها تمامًا. ثم أرى ما يحدث، كنت مشوشًا جدًا، لم أبال حقا إن كان مخي تفتت إلى ألف جزء، قلت لنفسي إنني أفضل أن أموت ولا أفقد قدراتي، لا كنْتُ إذا لم أستطع أن أكون والت الولد العجيب.

جاءت ريدنج بشكل سيئ، أسوأ مما تخوفتُ. لم أخسر مقامرتي فقط، لكن النتائج كانت أكثر مأساوية عن ذي قبل. أديت العرض وانهرتُ، بالضبط كما كنت أعرف، لكنني لم أفق هذه المرة في غرفة الملابس، كان على اثنين من عمال المسرح أن يحملاني عبر الشارع إلى الفندق، وحين فتحْتُ عيني بعد خمس عشرة دقيقة أو عشرين دقيقة، لم أستطع حتى أن أقف على قدمي لأشعر بالألم. في اللحظة التي وصل فيها الضوء إلى حدقتي بدأ الوجع؛ قفز مائة ترولي من على القضبان وتجمعت في بقعة خلف صدغي الأيسر؛ وارتطمت طائرات هناك؛ وتصادمت شاحنات هناك؛ ثم التقط

شبحان مطرقتين وبدآ يدقان أوتادًا في مقلتي. تلويت في السرير، أصرخ ليخرجني أحدٌ من بؤسي، وحين استدعى الأستاذ دجالاً من الفندق ليصعد إلى أعلى ويعطيني حقنة تحت الجلد، كنت في حالة تسمح بتقييدي، انحدار للهب يتراقص ويندفع في وادٍ من ظلال الموت.

استيقظت في مستشفى فيلادلفيا بعد عشر ساعات، وبقيت اثنى عشر يومًا لا أفارقها، استمر الصداع ثماني وأربعين ساعة أخرى، وبقيت تحت تأثير مهدئات قوية حتى إنني لا أتذكر أي شيء قبل اليوم الثالث، حيث استيقظت في النهاية مرة أخرى واكتشفتُ أن الألم تلاشى. بعد ذلك، خضعت لكل أنواع الكشف والفحص، كان فضولهم لا يهدأ، وبمجرد أن بدؤا لم يتركوني وحدي، كل ساعة على مدار اليوم يدخل طبيب مختلف إلى الغرفة ويختبر قدراتي، قُرِعتْ ركبتاي بمطارق، ومُرِّرتْ أدوات حادة على جلدي، وسلطت كشافات في عيني؛ أعطيتهم بولاً ودمًا وبرازًا؛ استمعوا إلى قلبي ونظروا في أذني؛ التقطوا لي صورا بأشعة إكس من الرأس إلى القدمين، لم يكن هناك سوى العلم، وكان أولئك الرجال بمعاطفهم البيضاء يؤدون وظيفتهم من خلاله بكل دقة. في يوم أو اثنين حولوني إلى جرثومة عارية مرتجفة، ميكروب وقع في متاهة من الإبر، والسماعات وخوافض اللسان. إذا كانت الممرضات جميلات بشكل يستحق النظر إليهن ربما شعرت ببعض الارتياح، لكن ممرضاتي كن عجائز قبيحات، بمؤخرات بدينة وشعر في ذقونهن. لم أتعرض من قبل لمثل هذه المجموعة من المتباريات البشعات، وحين تأتي إحداهن لتقيس الحرارة أو تقرأ جدول المتابعة أغلق عيني وأتظاهر بالنوم.

جلس الأستاذ يهودي بجواري طوال هذه المحنة، والتقطت الصحف بعض أخباري، وفي الأسبوع الأول أو نحو ذلك امتلأت الصحف بمتابعات عن حالتي؛ وكان الأستاذ يقرأ لي تلك المقالات يوميا، وجدت بعض الراحة في الضوضاء وأنا أستمع، لكن حين يتوقف عن القراءة، كان الضجر والعناد يحدقان بي من جديد، ثم انهارت سوق الأوراق المالية في نيويورك، ولم أعد أتصدر الصفحات الرئيسية، لم أبال كثيرًا، وكنت أتصور أنها أزمة عابرة، وبمجرد انتهاء ذلك الثلاثاء الأسود عادت أخباري مرة أخرى إلى العناوين الرئيسية. أذهلتني كل تلك الأخبار عن أناس قفزوا من النوافذ وأطلقوا النار على رؤوسهم بوصفها هراء مكثفًا، واعتبرتها تافهة مثل الكثير من الحكايات الخرافية، وكان الشيء الوحيد الذي أهتم به أداء العروض من جديد، انتهى الصداع وكنت أشعر بأنني طبيعي بشكل هائل مائة في المائة، حين كنت أفتح عيني في الصباح وأجد الأستاذ يهودي بجواري، أبدأ اليوم بالسؤال نفسه، السؤال الذي سألته في اليوم السابق: متى أخرج من هنا؟ وكان كل يوم يرد بالإجابة نفسها: بمجرد معرفة نتائج الفحوص.

حين أتت النتائج، لم أكن أكثر رضا، بعد كل هذا الهراء من الوخز والنخس، وكل تلك الأنابيب وأكواب العينات والقفازات المطاطية، لم يجد الأطباء خللاً في جسمي، لم يكن هناك ارتجاج، أو ورم في المخ، أو مرض في الدم، ولا فقدان للتوازن نتيجة لخلل في الأذن الداخلية، أو أورام، أو التهاب في الغدة النكفية، أو آثار ارتطام. أعطوني شهادة خلو من الأمراض وأعلنوا لي أنها أفضل

عينات رأوها لفتى في الرابعة عشرة من العمر، وحيث إن الصداع والدوخة تلاشـيا، لم يسـتطيعوا تحديد السـبب الدقيـق، ربما كانت جرثومة تسربت بالفعل إلى جسمي. ربما كان شيئًا أكلته، مهما يكن، لم يعد هناك، وإذا كان هناك بالصدفة، فإنه أصغر من أن يُحدَّد - ولا حتى بأقوى مجهر على الأرض.

قلت حين نقل الأستاذ الأخبار إليَّ: «يا له من أمر مثير، يا له من أمر مثير جدا».

كنـا وحدنا في غرفتـي بالطابق الرابع، نجلـس متجاورين على حافـة السـرير، في وقت مبكر من الصباح، والنـور يتدفق إلينا من أضلاع الستائر المعدنية، لثلاث ثوان أو أربع، شعرت بالسعادة التي كنت أشعر من قبل، شعرت بالسعادة لدرجة الرغبة في الصراخ.

قال الأستاذ: «ليس بهذه السرعة يا بني، لم أنتهِ بعد».

«السرعة؟ السرعة اسم اللعبة يا ريس، الأسرع الأفضل، ضيعنا بالفعل ثمانية عروض، وكلما أسرعنا في حزم أمتعتنا والخروج من هنا، أسـرعنا في الوصول إلى حيث نحن ذاهبان، ما المدينة التالية التـي حجزنا فيها؟ إن لم تكن بعيدة جدا، ربما لا نصلها إلا عند رفع الستار».

أمسـك الأسـتاذ بإحدى يدي وضغط عليها: «اهـدأ يا والت، خذْ نفَسًا عميقًا، أغلقْ عينيك، واستمع إلى ما أقول».

لـم يبـد الأمر مزحة، ومن ثـم فعلْتُ ما طلـب وحاولْتُ أن أبقى ساكنا.

«حسنا»، نطق بهذه الكلمة وتوقف، كانت هناك وقفة طويلة قبل أن يتكلـم مرة أخرى، وفي تلك الفترة من الظلام والصمت، عرفْتُ أن هناك شـيئًا بشِعًا على وشك الحدوث، وقال أخيرًا: «لم تعد هناك عروض أخرى. أنهكنا تماما يا بني. والت الولد العجيب غير صالح للعمل».

قلت وأنا أفتح عيني وأنظر إلى وجهه الكئيب الصارم: «لا تهزأ بـي يا أسـتاذ». وظللت أنتظـره ليلقي بغمـزة أو ضحكة، لكنه ظل جالسًا يحدق في بعينيه السوداوين، وقد صارت ملامحه أكثر حزنًا.

قـال: «ما كنت لأمزح في لحظـة كهذه، وصلنا إلى نهاية الخط، وليس هناك ما يمكن أن نفعله بشأن ذلك».

«لكن الأطباء أعطوني شهادة صلاحية، أنا مثل الحصان».

"تلـك هي المشـكلة، لا عيب فيك- مما يعنـي ليس فيك ما يمكن علاجـه، ما يمكن علاجـه بالراحة أو الأدويـة أو التمرين، إنك في حالة طيبة تمامًا، ولأنك في حالة جيدة، انتهت حياتك العملية".

"هذا حديث جنوني يا أستاذ، لا أفهم منه شيئا".

"سمعْتُ من قبل عن حالات تشبه حالتك، إنها نادرة جدًا، تتحدث الأدبيات عن حالتين فقط، يفصل بينهما زمنيا مئات السـنين، محلِّق تشـيكي في أوائل القرن التاسع عشر تعرِض لما تعرضْتَ له، ومن قبلـه أنطوان دوبوا، وكان فرنسـيا نشـطًا في عصـر لويس الرابع عشـر، وبقدر ما أعرف هذان هما الحالتان الوحيدتان المسـجلتان، أنت الثالث يـا والت، في كل دوريات التحليق أنت الثالث فقط الذي تواجه هذه المشكلة".

"لا أعرف حتى الآن عما تتكلم".

"البلوغ يا والت، أتحدث عن البلوغ، المراهقة، التغيرات الجسدية التي تحول الصبي إلى رجل".

"تعني الانتصاب وما شابه؟ الشعر البشع وخشونة صوتي؟"

"هذا بالضبط، كل التحولات الطبيعية".

"ربما كنت أمارس العادة السرية بإفراط، ماذا إذا توقفت عن تلك الحماقة؟ تعرف، أحافظ على البيندو بعض الشيء، هل تعتقد أن ذلك قد يساعدني؟"

"أشك في ذلك، هناك علاج وحيد لحالتك، لكنني لا أفكر إطلاقا في أن أبتليك به. فكرت في الأمر كثيرًا".

"لا أبالي، إذا كانت هناك طريقة لإصلاح الأمر، فعلينا أن نطبقها".

"أتحدث عن الخصاء يا والت، تقطع خصيتيك، وربما تكون هناك فرصة".

"هل قلْتَ ربما؟»

«لا شيء مضمون، هذا ما فعله الفرنسي، وواصل التحليق حتى الرابعة والستين، وفعله التشيكي، ولم يفده ذلك إطلاقًا. حدث التشويه بلا جدوى، وبعد شهرين قفز من فوق جسر تشارلز وانتحر»[1].

«لا أعرف ماذا أقول».

---

(١) جسر تشارلز: جسر تاريخي على نهر فلتافا في براغ، جمهورية التشيك.

«لا تعــرف بالطبع، لو كنت مكانك مــا عرفْتُ أيضا ماذا أقول، ولهــذا أقتــرح أن نغلق الموضوع، لا أتوقــع أن تفعل ذلك، لا يمكن لرجل أن يطلب ذلك من رجل آخر. أمر غير إنسانـي».

«حســنا، نظرًا لأن هذا الحكم يكتنفه الغموض، ليس من الحكمة أن نخاطر به، أليس كذلك؟ أقصد أنني لو لم أعد والت الولد العجيب، علــى الأقل تبقى خصيتاي في صحبتي. لا أريد أن أكون في موقف أنتهي فيه إلى خسارة الاثنين».

«بالضبــط؛ ولذا يكون الموضوع منتهيــا، لا معنى للحديث عنه أكثر من ذلك. خضنا جولة رائعة، وانتهت الآن، على الأقل اعتزلت وأنت لا تزال في القمة».

«لكن ماذا إذا اختفت نوبات الصداع؟»

«لن تختفي، صدِّقْني لن تختفي».

«كيــف تعرف؟ ربمــا بقي الرجلان الآخــران يُعانيان منه، لكن ماذا إذا كنْتُ مختلفًا؟»

«لسْتَ مختلفا، إنها حالة دائمة، لا علاج لها؛ بعيدًا عن المخاطرة التي اســتبعدناها، تبقى نوبات الصداع بقية عمرك، مقابل كل دقيقة تقضيها في الجو، تُعاني ثلاث ساعات من الألم على الأرض، وكلما كبــرْتَ يكون الألم أســوأ، انتقام الجاذبية يا بنــي؛ اعتقدنا أننا تغلبنا عليهــا، لكــن يتبين أنها أقوى منا، هكذا يســير الأمر، كســبنا بعضِ الوقت والآن نخســر - ليكن - إذا كانت تلك مشــيئة الرب، علينا إذًا أن ننحني لإرادته».

كانِ الأمــر محزنــا جدا وكئيبًا جــدا ومحبطًا جـدا، كافحْتُ وقتًا طويلاً لأحقق النجاح لنفسي، وأنا على وشك أن أصبح أحد الخالدين

فــي التاريخ، كان عليَّ أن أعطيه ظهري وأنصرف، ابتلع الأسـتاذ يهودي هذا السـم دون أن تهتز له شـعرة، تقبَّلَ مصيرنا مثل رواقي ورفـض أن يحتـج. أفترضُ أنــه كان موقفا نبيلاً، لكـن لم يكن في قدرتي أن أسـتقبلِ الأخبار السـيئة مسـتلقيا، بمجـرد أن انتهينا من الكلام، وقفْتُ وبدأتُ أركل الأثاث وأخبط الجدران، عاصفًا بالغرفة مثـل ملاكم مجنون ينــازل عدوًا متخيلاً. كسـرت مقعـدًا، وألقيت بمنضدة السـرير على الأرض مهشمة، ولعنت حظي السيئ بأعلى صوتي، ولم يفعل الأسـتاذ يهودي، العجوز الحكيم، شـيئًا ليوقفني؛ حتــى حيـن اندفعت ممرضتان إلــى الغرفة ليتعرفا على المشـكلة، أخرجهمــا بهدوء، موضحًا أنه سـيعوضهما عـن أي أضرار. كان يعـرف طبيعتي، ويعرف أن غضبي في حاجـة إلى فرصة للتعبير عن نفســه. لم يمنعني؛ لم يتجاهل والت، إذا صفعني العالم فعليَّ أن أرد له الصفعة.

إنه أمر عادل جدا؛ كان الأسـتاذ يهودي بارعًا فتركني أتصرف علــى هذا النحو، ولن ألومه إذا تصرفْتُ مثـل مغفل وبالغْتُ كثيرًا، فــي منتصــف ثورتي بالضبط، خطرت لي أغبــى فكرة في حياتي، خطــأ أبله ينهــي كل الأخطاء البلهاء. أوه، بدا الأمــر رائعا جدا في حينهــا، لكـن ذلك كان يرجع فقــط إلى أنني لا أسـتطيع مواجهة ما حــدث- وبمجرد أن تنكــر الحقيقة تبحث عن المشــاكل فقط، لكنني رغبت بشدة في إثبات أن الأستاذ مخطئ، وأن أوضح له أن نظرياته بشأن حالتي عديمة الأهمية تمامًا، وفي غرفة مستشفى فيلادلفيا، في اليــوم الثالث من نوفمبــر ١٩٢٩، قمت بآخر محاولة فجائية لإحياء مهنتــي، توقفــت عن ضرب الحائــط، التفتُّ وواجهْتُ الأسـتاذ، ثم فردْتُ ذراعي وارتفعت عن الأرض.

صحْتُ فيه: «انظرْ. انظر جيدا وأخبرْني بما ترى!»

تفحصني الأستاذ بتعبير عابس وحزين، وقال: «أرى الماضي، أرى والت الولد العجيب لآخر مرة. أرى شخصًا على وشك أن يأسف على ما فعله للتو».

صحت ردًا عليه: «إنني في حالة جيدة كما كنت دائما، وهذا أفضل ما في العالم!»

نظر الأستاذ إلى ساعته، وقال: «عشر ثوانٍ، مقابل كل ثانية تقضيها في الجو، تعاني ثلاث دقائق من الألم، أضمن ذلك».

تصورت أنني عبرت عن رأيي بوضوح، وهكذا بدلاً من أن أخاطر بنوبة أخرى طويلة من الوجع، قررت الهبوط، وقد حدث-بالضبط ما وعد به الأستاذ، في اللحظة التي لمست فيها أصابع قدمي الأرض؛ انفتح راسي مرة أخرى، منفجرًا بعنف امتص مني ضوء النهار وجعلني أرى النجوم، اندفع القيء من خلال بلعومي واستقر على الجدار على بعد ستة أقدام، انفتحت المطاوي في جمجمتي، حافرة بعمق في وسط مخي، ارتجفْتُ وصرخْتُ وسقطْتُ على الأرض، وفي هذه المرة لم أتمتع بترف الإغماء، تقلبْتُ مثل سمكة في عينها صنارة، وحين استغثت طلبا للمساعدة، مناشدًا الأستاذ أن يستدعي طبيبًا ليعطيني حقنة، اكتفى بهز راسه وابتعد، وقال: «ستتغلب عليه، في أقل من ساعة ستكون في حالة طيبة تمامًا». ثم، دون أن يقول لي كلمة مريحة، أصلح فوضى الغرفة تمامًا وبدأ يعد حقيبتي.

كان ذلك هو العلاج الوحيد الذي أستحقه، وقعت كلماته على أذن صماء، وقد تركه ذلك دون اختيار سوى أن يتراجع ويترك أفعالي تتحدث عن نفسها، وهكذا تحدث إليَّ الألم، وفي هذه المرة استمعْتُ، استمعْتُ سبعة وأربعين دقيقة، وحين انتهت الحصة، تعلمْتُ كل ما كنت في حاجة إلى معرفته، محاضرة عن فصل صادم في أساليب الدنيا، محاضرة عن التغلب على الأسى، أصلحني الألم بقسوة، وحين خرجْتُ من المستشفى في ذلك الصباح، كان رأسي سليمًا مرة أخرى إلى حد ما. عرفْتُ حقائق الحياة، عرفْتُها بكل خلجات روحي وكل مسام جلدي، ولم أكن مستعدا لنسيانها، انتهت أيام المجد، مات والت الولد العجيب، ولم تكن هناك فرصة ليطل بوجهه مرة أخرى.

عُدنا إلى فندق الأستاذ في صمت، ماضيين في طريقنا عبر شوارع المدينة مثل شبحين. استغرق الطريق عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، وحين وصلنا إلى المدخل لم أستطع التفكير في شيء أفضل من أن أرفع يدي وأحاول أن أودعه.

قلْتُ: «حسنا، أظن أن علينا أن نفترق هنا».

قال الأستاذ: «أوه؟ ولماذا؟»

«سوف تبحث عن ولد جديد الآن، وليس هناك معنى للبحث إذا كنت في الطريق».

«ولماذا أبحث عن ولد جديد؟» بدا مذهولا حقًا من الاقتراح.

«لأنني فاشل، هذا هو السبب. لأن الأمر انتهى، ولم أعد مفيدًا لك».

«هل تعتقد أن أتخلى عنك بهذه الطريقة؟»

«لِمَ لا؟ العدل عدل، وإذا لم أستطع أن أقدم ما تتمنى، فمن حقك أن تبدأ وضع خطط أخرى».

«وضعْتُ خططًا؛ وضعْتُ مائة خطة، ألف خطة، لدى خطط في كمي وخطط في جوربي، جسدي كله يمتلئ بالخطط، وقبل أن تدفعني الحكة إلى نوبة من الجنون، أود أن أخرجها وأضعها لك على الطاولة».

«لي؟»

«لمن آخر يا رفيق؟ لكن لا يمكن أن نتناقش بجدية ونحن نقف في المدخل، أليس كذلك؟ هيا إلى الغرفة. نطلب غداء ونتناول الحقائق الأساسية».

«ما زلت لا أفهم».

«ماذا تريد أن تفهم؟ ربما نكون قد انتهينا من التحليق، لكن هذا لا يعني أننا أغلقنا المحل».

«تقصد أننا لا نزال شريكين؟»

«خمس سنوات وقت طويل يا بني. بعد كل ما قضيناه معًا، نشأ بيننا نوع من الارتباط، لن أحصل على أي فتى، كما تعرف، لا معنى لأن أبدأ البحث عن شخص آخر، ليس الآن، في عمري هذا، قضيْتُ نصف عمري لأعثر عليك، ولن أتخلى عنك لأننا واجهنا بعض العوائق، مثلما قلْتُ، لدى بعض الخطط أناقشها معك. إذا أعجبتك هذه الخطط ووافقت عليها، اتفقنا، وإذا لم تعجبك، قسمنا النقود وافترقنا».

«النقود - يا يسوع الرب - نسيت كل ما يتعلق بالنقود».

«تشغلك أمور أخرى».

«كنت مكتئبا، وراسـي في إجازة؛ ما المبلغ الذي حصلنا عليه؟ ما الحصيلة تقريبًا يا ريس؟»

«سبعة وعشرون ألف دولار. إنها في خزانة الفندق، وهي كل ما لدينا بالتمام والكمال».

«وهنا أظن أنني انهار مرة أخرى، أنظر إلى الأمور من منظور مختلف، أليس كذلك؟ أقصد أن سبعة وعشرين ألف دولار غنيمة صغيرة لذيذة».

«ليست سيئة، كان من الممكن أن نعمل بشكل أسوأ».

«وهكذا لم تغرق السفينة رغم كل شيء».

«ليس بحال من الأحوال، عملنا لأنفسنا بشكل طيب، ومع أوقات صعبة قادمة، نستريح تماما، جافين ودافئين في قاربنا الصغير نبحر في بحار المحنة أفضل بكثير من معظم الناس».

«نعم، نعم يا سيدي».

«هذا كل ما في الأمر يا رفيق، بعيدًا تمامًا. بمجرد أن تهدأ الريح، نرفع المرساة - وبصيحة نقلع!»

كنت على استعداد للسفر معه إلى أقصى الأرض؛ بقارب، بدراجة، بالزحف على بطني - لم تكن وسيلة الانتقال مهمة، أريد فقط أن أكون حيث يوجد وأذهب حيث يذهب، حتى تلك المحادثة

أمــام الفندق، اعتقدْتُ أنني فقدْتُ كل شــيء، لــم أفقد مهنتي فقط، أو حياتــي فقط، لكنني فقدْتُ أســتاذي أيضًا، افترضْتُ أنه انتهى معي، سينبذني دون تفكير، لكنني عرفْتُ آنذاك أمرًا مختلفا. لم أكن مجرد شـيك بالنسـبة له، لم أكن مجرد آلة طائرة بمحـرك صدئ وأجنحة تالفـة، فـي كل الأحوال، حجزنا لفترة، وكان ذلك بالنسـبة لي أكثر أهمية من كل المقاعد في كل المسارح وملاعب كرة القدم مجتمعة، لا أقول إن الأمور لم تكن سوداء، لكن لم تكن سوداء بنصف ما كان يمكـن أن تكون عليه، لا يزال الأسـتاذ يهـودي معي، لم يكن وحده معي، كان يحمل حفنة من أعواد الثقاب لينير لي الطريق.

وهكذا صعدنا وتناولنا غداءنا. لا أعرف ألف خطة، لكن كان من المؤكد أن لديه ثلاثا أو أربعا منها، وقد فكر في كل منها بعناية تامة، ما كان الرجل ليترك العمل. خمس سـنوات من العمل الشاق طارت من النافذة، تحولت عقود من التخطيط والاستعداد إلى رماد في ليلة، وهـذا يطفح بأفكار جديـدة، يخطط لحركتنا التالية وكأن كل شــيء لا يــزال أمامنا. لــم يعد الوضع كما كان، كان الأسـتاذ يهودي آخر سـلالة، ولم أر أحدًا يشـبهه منذ ذلك الوقت: شخص يبدو مستريحًا تمامًــا في الغابة، ربما لم يكن الملك لكنه كان يفهم قوانينها أكثر من أي شـخص آخر، اضربه في أحشائه، ابصق في وجهه، حطمْ قلبه، وكان ينهـض مرة أخرى، مسـتعدًا للتغلب علــى كل ما يواجهه، لا تستسلم قط، لم يعش فقط بهذا الشعار، كان الرجل الذي ابتكره.

كانت الخطة الأولى الأكثر بســاطة، ننتقل إلى نيويورك ونعيش مثل الناس العاديين، أذهب إلى المدرســة وأتعلم بشــكل جيد، ويبدأ

عملاً ويكسـب مالاً، ونعيش معا بسعادة، لم أنطق بكلمة حين انتهى من كلامه، وانتقل إلى الخطة الثانية، قال: يمكن أن نخرج في جولة، ونلقى محاضرات في الكليات والكنائس ونوادي حدائق السيدات في فـن التحليق في الجو، سـتكون هناك حاجة كبيـرة إلينا، على الأقل في الشـهور الستة التالية أو نحو ذلك، ولماذا لا نواصل الكسب من والـت الولد العجيب حتى ينتهي آخر ما تبقى من شـهرتي؟ لم أحب هـذه الخطة أيضـا، وهكذا هز كتفيه وانتقل إلـى التالية، قال: نحزم أمتعتنا ونسـتقل السـيارة، وننطلـق إلى هوليوود. أبـدأ مهنة جديدة ممثلا للسينما، وسـيكون وكيلي ومدير أعمالي، مع كل الاهتمامات التـي لقيتها من العرض، لن يكون من الصعـب أن أخوض اختبار التمثيـل، كنت بالفعل اسـمًا كبيرًا، ونظرا لشـغفي بالملهاة الهزلية، ربما أقف على رجلي على الفور.

«آه، الآن تتحدث!»

قال الأسـتاذ، وقد مال للخلف في مقعده مشـعلاً سـيجارًا كوبيا غليظًا: «تصورت أنك ستوافق عليها، لذا ادخرتها للنهاية».

وعلى هذا النحو بالضبط، انطلقنا في السباق مرة أخرى.

خرجنا من الفندق في وقت مبكر من الصباح التالي، وفي الثامنة كنا على الطريق، مُتجهين غربًا إلى حياة جديدة في الهضاب المشمسة في هوليوود. كانت مسافة طويلة مرهقة في تلك الأيام. لم يكن هناك طرق سريعة أو سلسلة مطاعم هوارد جونسون، أو ممرات بها أماكن للعب البولينج تمتد من الشواطئ وإليها، وعليك أن تنحرف في طريقك إلى كل البلدات والقرى الصغيرة، متتبعًا أي طريق يأخذك في الاتجاه الصحيح، إذا اضطررْتَ للسير خلف فلاحٍ ينقل حملاً من القش بجرار على شكل حرف T، يكون حظك سيئًا، وإذا كانوا يحفرون طريقا في مكان ما، يكون عليك أن تلف وتبحث عن طريق آخر، وغالبًا يكون معنى ذلك أن تخرج عن طريقك لساعات، كانت تلك قواعد اللعبة في ذلك الوقت، لكنني لا أستطيع القول: إنني كنت منزعجا من السير ببطء، كنت مجرد مسافر، وإذا أحببت أن أغفو لساعة أو اثنتين في المقعد الخلفي، لم يكن هناك ما يمنعني، مرات قليلة، حين كنا نضرب في امتداد مهجور جدا من الطريق، كان الأستاذ يترك لي عجلة القيادة، لكن ذلك لم يحدث كثيرًا، وانتهى الأمر وقد قاد بنفسه ثمانية وتسعين في المائة من الطريق، كانت خبرة مخدرة، وبعد خمسة أيام أو ستة سقط في حالة تأمل كئيب، مستغرقًا أكثر وأكثر في أفكاره ونحن نندفع إلى وسط البلاد. عدنا إلى أرض السماوات الكبيرة الممتدة، الامتدادات الكئيبة، وبدا أن الهواء الذي يحيط به يسحب منه الحماس. ربما كان يفكر في مسز ويذرسبون، وربما في شخص آخر من ماضيه عاد ليحاصره، لكن من المرجح أنه كان يفكر في مسائل تتعلق بالحياة والموت، الأشياء الكبيرة المفزعة التي تزحف إلى رأسك حين لا يكون هناك ما يشتتك. لماذا أنا هنا؟ إلى

أيـن أمضـي؟ ماذا يحدث لي بعد أن أسـحب آخر نفس؟ أعرف أنها مواضيع ثقيلة، لكن بعد التفكير مليا في أفعال الأستاذ في تلك الرحلة لأكثر من نصف قرن، أعتقد أنني أعرف عما أتحدث. تبرز محادثة في ذاكرتي، وإذا لم أخطئ في تفسير ما قال، توضح طبيعة الأمور التي بدأت تنهش روحه. كنا في مكان ما في تكسـاس، مدينة فورت ورث، وكانـت مدينة صغيـرة في الماضي، على مـا أظن، وكنت أثرثر معه بطريقتي المرحة المتبجحة، متحدثًا لسبب وحيد وهو أن أسمع نفسي أتحدث.

قلْتُ: "كاليفورنيا، لم تسـقط الثلوج هناك قط، ويمكنك أن تسـبح فـي المحيط طوال العام، ومما يقول النـاس: إنها ثاني أفضل مكان بعد الجنة، تجعل فلوريدا بالمقارنة تبدو مستنقعًا حارا ورطبًا".

قـال الأسـتاذ: "ليس هناك مكان كامل يا بنـي، لا تنس الزلازل والانهيارات الأرضية والقحط، ربما تمر سنوات دون سقوط مطر، وحين يسـقط تتحول الولاية كلها إلى فرن، يمكن أن يحترق منزلك في وقت لا يكفي لتقليب بيضة".

"لا تقلق بشـأن ذلك، بعد سـتة أشهر سـنعيش في قلعة حجرية، لا يمكـن أن تحتـرق- ولكـن لمجـرد الأمـان، سـيكون لدينا قسـم للمطافـئ في المبنى، أقول لك، يا ريس، أنا والسـينما صنع كل منا للآخر، سأكسـب أموالاً كثيـرة، ويكون علينا أن نفتـح بنكا جديدًا. رولي للادخار والقروض، بمقر قومي رئيســي في شـارع سنسيت بوليفارد[1]. تراقب وترى؛ في أسرع ما يكون سأكون نجما».

«إذا سـار كل شـيء على ما يرام، ستكون قادرًا على أن تكسب قوت يومك، هذا هو المهم. لا يبدو الأمر وكأنني سأكون بجانبك إلى

---

(١) سنسيت بوليفارد: شارع في مقاطعة لوس أنجلوس، كاليفورنيا.

الأبد، وأريد أن أتأكد من أنك تستطيع أن تعول نفسك، لا يهم كيف تفعل ذلك، ممثلا أو مصورا أو مراسلاً- كلها جيدة، أحتاج فقط إلى أن أعرف أنه سيكون لك مستقبل بعد أن أرحل».

«كلام رجل عجوز يا أستاذ، لم تكمل حتى الخمسين».

«ست وأربعون، إنها في موطني سنوات طويلة جدا».

«قصيرة جدا، في شمس كاليفورنيا تصغر عشر سنوات في اليوم الأول».

«ربما يكون الأمر كذلك، لكن حتى لو فعلت ذلك، تبقى حقيقة أنني خلفتُ ورائي من السنوات أكثر مما تبقى لي، حسبة بسيطة يا والت، ولن يضرنا بحال من الأحوال أن نستعد لما هو قادم».

انتقلنا إلى موضوع آخر بعد ذلك، وربما توقفنا عن الكلام تمامًا، لكن تلك التعليقات القصيرة السوداء التي نطق بها بدت لي أكبر وأكبر والأيام تواصل زحفها. بالنسبة لرجل يعمل بجد على إخفاء مشاعره، كانت كلمات الأستاذ اعترافًا، لم أسمعه صريحًا بهذا الشكل من قبل، وحتى رغم أنه صاغها في لغة افتراضات، لم أكن غبيًا لأتجاهل الرسالة المختبئة بين السطور. عادت أفكاري إلى مشهد آلام المعدة في فندق نيو هافن، لو لم أكن منهمكا في مشاكلي منذ ذلك الوقت، لكنت أكثر يقظة. آنذاك، ولم يكن هناك ما أعمله أفضل من التحديق من النافذة وحساب الأيام حتى نصل إلى كاليفورنيا، صممتُ على مراقبة كل حركاته، ما كنت لأجبن هذه المرة، إذا رأيته يتلوى أو يمسك معدته مرة أخرى، فسوف أتحدث وأكشف خداعه - وأدفع به إلى أول طبيب أعثر عليه.

لابد أنه لاحظ قلقي، لأنه بعد هذه المحادثة بوقت قصير، كف عن الحديث الكئيب والمتشائم وبدأ يهمس أغنية مختلفة، حين غادرنا تكساس وعبرنا إلى نيو مكسيكو، بدا أنه يتعافى إلى حد كبير، ويقظًا لمراقبة علامات الاضطراب، لم أستطع تحديد أية علامة- أو حتى أصغر تلميح، تدريجيا نجح في أن يخدعني مرة أخرى، ولولا ما حدث على طول طريق يبلغ سبعمائة ميل أو ثمانمائة، لاحتاج الأمر إلى شهور قبل أن أخمن الحقيقة، وربما حتى سنوات. هكذا كانت قدرة الأستاذ. لا يمكن لأحد أن يباريه في معركة الدهاء، وكلما حاولْتُ أشعر في النهاية بأنني غبي، كان أسرع مني بكثير، وأكثر رشاقة وخبرة، يستطيع تجريدي من بنطلوني حتى قبل أن ألبسه، لم يكن هناك أي تنافس، كان الأستاذ يهودي يفوز دائمًا، وواصل الفوز حتى النهاية المريرة.

بدأ الجزء الأكثر مللاً من الرحلة. قضينا أياما بالسيارة في نيو مكسيكو وأريزونا، وبمرور الوقت شعرْتُ وكأننا الشخصان الوحيدان في العالم. لكن الأستاذ كان مغرما بالصحراء، وبمجرد أن دخل إلى ذلك المشهد القاحل بصخوره وصبَّاره، ظل يشير إلى تكوينات جيولوجية غريبة ويلقى محاضرات قصيرة عن العمر غير المعروف للأرض، وبصدق تماما، تركني فاترا تمامًا، لم أرغب في إفساد متعة الأستاذ، وهكذا أغلقت فمي وتظاهرت بالاستماع، لكن بعد أربعة آلاف هضبة وستمائة وادٍ، كان لدي ما يكفي من جولة المشاهد الطبيعية ليبقى معي طول العمر.

قلْتُ في النهاية: «إذا كانت هذه بلاد الرب، فليأخذها الرب إذًا».

قال الأستاذ: «لا تتركها تصيبك بالكآبة، تستمر هنا إلى الأبد، وعد الأميال لن يجعل الرحلة أقصر، إذا أردْتَ أن تصل إلى كاليفورنيا، فهذا هو الطريق الذي لابد أن نسلكه».

«أعرف ذلك، لكن كوني أتحمله لا يعني أنه ينبغي أن أحبه».

«ربما تحاول أيضًا، بهذه الطريقة يمضي الوقت أسرع».

«أكره أن أكون هادم الملذات يا سيدي، لكن هذا الشيء الجميل ممل جدا. أقصد من يبالي إذا كان مكانا يبدو قذرا أو غير قذر؟ مادام فيه بعض الناس، يكون شيقا بالضرورة. اطرح الناس، ماذا يتبقى؟ إنه خواء. والخواء لا يفعل لي شيئا سوى أن يخفض ضغط دمي ويسقط جفني».

«أغلق عينيك إذًا ونم بعض الوقت، وسوف أتواصل مع الطبيعة بنفسي، لا تغضب يا فتى؛ لم يعد أمامنا الكثير، قبل أن تعرف سيكون حولك كل من تريد».

بزغ أسود يوم في حياتي في غرب أريزونا في السادس عشر من نوفمبر. كان صباحًا جافًا جدا، مثل كل الصباحات الأخرى، وفي العاشرة كنا نعبر حدود كاليفورنيا لنبدأ الانزلاق خلال منطقة الموهاف، بين أريزونا وكاليفورنيا، باتجاه الساحل، أطلقت شهقة احتفال حين عبرنا ذلك المَعْلَم لنصل إلى المرحلة الأخيرة من الرحلة. كان الأستاذ يسير بسرعة معقولة، وتصورنا أننا سنصل إلى لوس أنجلوس وقت العشاء. أتذكر جدلا لصالح مطعم فخم لليلتنا الأولى في البلدة. قلت ربما نلتقي باستر كيتون أو هارولد لويد(١)،

(١) باستر كيتون (١٨٩٥-١٩٦٦)، وهارولد لويد (١٨٩٣-١٩٧١) ممثلان امريكيان.

ألا يكــون ذلك مثيــرًا؟ تخيل مصافحة هذين الرجلين على كومة من بيكد ألاســكا[1] في نادٍ يقدم عشــاءً فاخرًا، إذا كانا في حالة مزاجية مناسـبة، ربما اسـتطعنا أن نخوض معركة بالفطيرة ونمزقها إربا. كان الأسـتاذ قد بدأ يضحك للتو على وصفي لهذا المشــهد المجنون حين نظرت ورأيت شيئًا أمامنا على الطريق. قلت: «ما هذا؟» وقال الأستاذ: «ما هذا؟» وبعد لحظتين كنا نعدو من أجل حياتنا.

كانـتِ عصابةٍ من أربعة رجال ينتشــرون عبر طريق رئيســية ضيقة، يقفون صفًا - على بعد مائتي ياردة أو ثلاثمائة - وفي البداية كان من الصعب رؤيتهم. مع بريق الشــمس والحرارة المرتفعة من الأرض، بدوا أشــباحًا من كوكب آخر، أجسادًا تومض نورا وهواء رقيقًــا. بعد أن اقتربنا خمســين يــاردة رأيْتُ أيديهــم مرفوعة على رؤوسهم، كأنهم يشيرون لنتوقف، عند هذه النقطة ظننتهم مجموعة مــن عمال الطــرق، وحتى حيــن اقتربنا أكثر ورأيــت مناديل على وجوههم، لم أفكر في الأمر بجدية أكثر، قلت لنفسي إن الغبار ينتشر هنــا، وحيــن تهب الرياح يحتاج الإنســان إلى بعــض الحماية. لكن ونحن على بعد ستين ياردة أو سبعين رأيْتُ فجأة أن الأربعة يحملون أدوات معدنية براقة في أيديهم المرفوعة، بالضبط حين أدركت أنها بنادق، ضغط الأستاذ على الفرامل، مهدئا من السرعة ليقف وينطلق بالســيارة فــي الاتجاه المعاكس. لــم ينطق أحد منا بكلمة. ودواســة البنزين على الأرضية، تراجعنا والمحرك يئن وهيكل السيارة يرتج. انطلق المجرمون الأربعة وراءنا، يجرون على الطريق ومواســير البنــادق تومض في النور، أدار الأســتاذ يهودي رأســه إلى الاتجاه الآخــر لينظر من خلال الزجاج الخلفي، ولــم ير ما أرى، لكن وأنا

---

(١) بيكد ألاسكا: طبق حلوى عبارة عن آيس كريم وكيك.

أشـاهد الرجال يقتربون، لاحظْتُ أن أحدهم يجري وهو يعرج. كان نحيفًا وهزيلاً، ورغم إعاقته يتحرك أسـرع من الآخرين - بسرعة - كان متقدمـا وحده، وانزلق المنديـل من على وجهه لألقي عليه أول نظرة حقيقيـة، كان الغبار يتطاير في كل الاتجاهات، لكنني أعرف ذلك المغفل في أي مكان. إدوارد سـباركز، كان هو بالتأكيد، الخال سليم، وحين وضعت عيني عليه، عرفْتُ أن حياتي فسدت إلى الأبد.

كان حُكمًا قاسيًا، لم نستطع أن نسرع كثيرًا في الاتجاه المعاكس لنهرب، بالإضافة إلى أن الوقت الذي قضيناه لنلف جعلنا أكثر بطئا، لكـن كان علينـا أن نخاطر، إذا لم نزد من سـرعتنا في أربع ثوان، ربما لا تكون أمامنا فرصة.

انحرف الأسـتاذ يهودي بحدة إلى اليمين، مائلا إلى ملف مرعب ليعكس مسـاره، وهو ينتقل إلى السـرعة الأولى. أصدرت التروس صريرا بشـعًا، قفـزت الإطارات الخلفية عـن الطريق واصطدمت بصخور شـاردة، وأخذنـا نلف وندور دون سـحب والسـيارة تئن وترتج، اسـتغرق الأمر ثانية أو نحـو ذلك لتأخذ الإطارات وضعها مـرة أخـرى، ونحن ننطلق من هنـاك في الاتجـاه الصحيح، دوت البنـادق خلفنـا. أصابت رصاصـة إطارا خلفيا، وفـي اللحظة التي انفجـر فيهـا الكاوتش، مالـت البيرس أرو بشـدة إلى اليسـار. لف الأسـتاذ معها ولم يرفع قدمه قط عن الأرضية، موجها السيارة مثل مجنـون لنظل على الطريق، ونقـل بالفعل على الثالث حين اندفعت رصاصة أخرى خلال الزجاج الخلفي. أصدر صرخة وابتعدت يداه عن عجلة القيادة، قفزت السـيارة عن الطريق واندفعت على أرض صحراوية تتناثر عليها الصخور، وبعد لحظة بدأت الدماء تندفع من

كتفــه اليمنــى، لا يعرف إلا الرب من أين واتتــه القوة لكنه نجح في القبــض علــى عجلة القيادة مرة أخرى وحاول مــرة أخرى، لم تكن مجدية، ولم تكن غلطته، كانت الســيارة خارج الســيطرة، وقبل أن يتمكــن من تحويلها باتجاه الطريق، داس الإطار الأمامي على حافة حجر بارز ومالت السيارة كلها.

لا أتذكر شيئا عن الساعة التالية، أخرجتني الصدمة من مقعدي، وآخــر ما أتذكــره الطيران في الجو في اتجاه الأســتاذ. في مكان ما بيــن الانطلاق والهبوط لا بد أن رأســي اصطدم في لوحة العدادات أو عجلة القيادة، لأنه حين توقف السيارة، كنت بالفعل فاقدًا الوعى. حدثت عشــرات الأشــياء بعد ذلك، لكنني لم أدرك منها شــيئا. لم أر ســليم ورجاله ينقضون على السيارة ويسرقون الخزانة الحديدية من صنــدوق الســيارة. لم أرهم يمزقون الإطــارات الثلاثة الأخرى، لم أرهــم يفتحون حقائبنا ويبعثرون ثيابنــا على الأرض، ومازال عدم إطلاقهــم النــار علينا وقتلنا لغزا بالنســبة لي، لابد أنهــم تحدثوا في أمر قتلنا أو عدم قتلنا، لكنني لم أسـمع شــيئًا مما قالوا ولا أســتطيع أن أخمــن ســبب تركهم لنا. ربما كنا نبدو ميتيــن بالفعل، أو ربما لم يبالــوا بالأمر، أخــذوا الخزانة الحديدية وبهــا كل أموالنا، وحتى لو كنا نتنفس وهم ينصرفون ربما تصوروا أننا سنموت من الإصابات على أية حال، إذا كان هناك أي ارتياح لتجريدنا من كل ســنت، فقد أتى من صغر حجم المبلغ الذي أخذوه معهم، لابد أن سليم اعتقد أن معنا ملايين، لابد أنه اعتمد على أن تكون ضربة العمر، لكن كل ما حصل عليه من جهوده ســبعة وعشرون ألف دولار تافهة، وبتقسيم المبلــغ علــى أربعة، لا يكون نصيب كل فرد كبيــرًا، ليس أكثر من مقــدار صغير، حقا، وقد أســعدني أن أفكر في خيبة أمله. لســنوات وسنوات، استمتعت بتخيل الصدمة التي أصابته.

أعتقد أنني غبْتُ عن الوعي ساعة - لكن ربما أكثر، وربما أقل. بصرف النظر عن المدة، حين أفقت وجدت أنني أستلقي على الأستاذ، كان لا يزال فاقد الوعي، وكنا محشورين عند باب السائق، والأطراف متشابكة معا وملابسنا منقوعة في الدماء. أول ما رأيْتُ، حين ركزت عيناي في بؤرة، نملة تزحف على حجر صغير. كان فمي ممتلئًا بنتف قذرة، ووجهي مفلطحًا على الأرض، كان ذلك لأن الزجاج فتح عند الارتطام، وأفترض أن ذلك حظ، إذا كان يمكن استخدام كلمة الحظ لوصف مثل هذه الأمور، على الأقل لم يمر رأسي عبر الزجاج. أفترض أن حدوث ذلك يستحق الحمد؛ على الأقل لم يتمزق وجهي.

أُصيبت جبهتي بشدة وانتشرت الكدمات في جسدي كله، لكن لم أصب بكسور في العظام، اكتشفت ذلك حين نهضت وحاولت فتح الباب من فوقي، لو حدث ضرر حقيقي، ما استطعت الحركة، لكن لم يكن من السهل أن أخرج ذلك الشيء من مفصلاته. كان يزن نصف طن، ومع ميل السيارة بشكل غريب وصعوبة الحصول على أية رافعة، لابد أنني كافحت لخمس دقائق قبل أن أنفذ من الفتحة. ضرب هواء دافئ وجهي، لكنه بدا باردًا بعد الحبس في فرن البيرس أرو، جلست على مؤخرتي ثانيتين، أبصق القذارة وأمتص النسمة العليلة، لكن يدي انزلقتا بعد ذلك، وحين لمست السطح الساخن للسيارة، كان عليَّ أن أقفز مبتعدًا. انهرت على الأرض، نهضْتُ بصعوبة، وبدأت أترنح حول السيارة إلى الناحية الأخرى - في الطريق رأيت الصندوق المفتوح ولاحظت ضياع صندوق النقود، لكن حيث إن ذلك كان استنتاجا سابقًا، لم أتوقف للتفكير فيه. كانت الناحية اليسرى

من السيارة مستقرة علىً نتوء حجري، وكانت المساحة صغيرة بين الأرض والباب- ست بوصات أو ثمان تقريبًا، لم تكن واسعة بما يكفي لأن أنفذ برأسي خلالها، لكنني مستلقيا على الأرض استطعت أن أرى إلى مسافة أبعد في الداخل لألمح رأس الأستاذ يتدلى من الشباك، لا أستطيع تفسير كيف حدث ذلك، لكن حين لمحته من ذلك الشق الضيق، فتح عينيه. رآني أنظر إليه، وبعد لحظة لوى وجهه بما يشبه ابتسامة، وقال: «أخرجني من هنا يا والت، ذراعي منتهية تماما، ولا أستطيع أن أتحرك بنفسي».

جريْتُ إلى الناحية الأخرى من السيارة مرة أخرى، وخلعْتُ قميصي، وضممته في يدي، صانعًا قفازًا بدائيا لأحمي كفيً من المعدن الحارق، ثم سارعْتُ إلى القمة، واستندت بطول حافة الباب المفتوح، ومددت يدي لأدفع الأستاذ خارج السيارة. لسوء الحظ، كانت الإصابة في كتفه اليمنى، ولم يستطع مد تلك الذراع، بذل جهدا ليلف بجسمه ويعطيني ذراعه الأخرى، لكن ذلك احتاج إلى عمل، عمل حقيقي، ورأيت كم كان الألم موجعا بالنسبة له، طلبت منه أن يبقى ثابتا، وخلعْتُ الحزام من بنطلوني، وحاولْتُ مرة أخرى أن أنزل الحزام الجلد إلى السيارة. بدا أن ذلك يفي بالغرض، قبض عليه الأستاذ يهودي بيده اليسرى، وبدأت الشد، لا أريد أن أتذكر كم مرة ارتطم، كم مرة انزلق، لكننا كافحنا معًا، وبعد عشرين دقيقة أو ثلاثين خرج.

وهكذا تقطعت بنا السبل في صحراء موهاف. كانت السيارة محطمة، وأقرب بلدة على بعد أربعين ميلاً، لم يكن معنا ماء، لكن أسوأ ما في ورطتنا جرح الأستاذ، فقد قدرًا كبيرًا من الدماء في

الساعتين السابقتين. انكسرت عظامه وتمزقت عضلاته، واستنفد آخر جزء من قوته في الزحف خارج السيارة، أجلسته في ظل البيرس أرو وابتعدت لأجمع بعض الملابس التي تناثرت على الأرض. التقطْتُ قمصانه البيضاء الرائعة واحدا بعد الآخر وربطات العنق الحرير المصنوعة حسب الطلب، وحين امتلأت يداي ولم أعد قادرًا على حمل المزيد، عدْتُ بها لأستخدمها ضمادات، كانت أفضل فكرة يمكن أن أفكر فيها، لكنها لم تفد كثيرًا. ربطْتُ ربطات العنق معًا، وقطعت القمصان إلى شرائط طويلة ولففته بإحكام قدر المستطاع- لكن الدماء نزت من خلالها قبل أن أنتهى.

قلْتُ: "نستريح هنا بعض الوقت، وبمجرد أن تبدأ الشمس في الغروب، نرى إمكانية أن تقف على قدميك ونتحرك من هنا".

قال: "ليست فكرة فعالة يا والت، لن أنفذها إطلاقًا".

"من المؤكد أنك ستنفذها. سنبدأ السير على الطريق، وبسرعة، تمر بنا سيارة وتلتقطنا".

"لم تمر هنا سيارة طول اليوم".

"لا يهم، لابد أن يظهر شخص ما، إنه قانون الاحتمالات".

"وماذا إذا لم يأت أحد؟"

"حينها أحملك على ظهري - بشكل أو آخر - نصل بك إلى جرَّاح ليقدم لك الإسعافات الأولية".

"أغلق الأستاذ يهودي عينيه وهمس بين الألم: "أخذوا النقود، أليس كذلك؟".

"هذا ما حدث بالضبط. ضاع كل شيء، إلى آخر بنس".

قال ساعيًا بأقصى ما يستطيع ليرسم ابتسامة على وجهه: "أوه حسنا. ما يأتي بسهولة يضيع بسهولة، أليس كذلك يا والت؟"

بدأ الأستاذ يهودي يضحك، لكن الحركة آلمته بشدة فلم يواصل، توقف ليسيطر على نفسه، ثم، دون مناسبة، نظر في عيني وأعلن: "ثلاثة أيام من الآن كان يمكن أن نكون في نيويورك".

"إنها قصة قديمة يا ريس، يوم من الآن سنكون في هوليوود".

نظر إليَّ الأستاذ طويلاً ولم يقل شيئا. ثم وعلى غير توقع، مد يده وأمسك ذراعي بيده اليسرى، وقال أخيرًا: "مهما تكن، فإن ذلك بسببي. أليس كذلك يا والت؟"

"بالطبع، لم أكن إلا متسكعا سيئًا قبل أن تعثر عليَّ".

"أود فقط أن تعرف أن ذلك صحيح في الاتجاهين - مهما أكن - فإن ذلك كان من أجلك".

لم أعرف كيف أرد، ولم أحاول، كان في الأفق شيء غريب، وفجأة لم أعد أعرف إلى أين نمضي، لا أقول إنني كنت مفزوعا - على الأقل حتى ذلك الوقت- لكن معدتي بدأت ترتجف وترفرف، وكان ذلك دائما علامة مؤكدة لاضطراب قادم، حينما تبدأ في داخلي إحدى تلك الرقصات، كنت أعرف أن تغيرا في الطقس على وشك الحدوث.

واصل الأستاذ: "لا تقلق يا والت؛ سيكون كل شيء على ما يرام".

"أتمنى ذلك، الطريقة التي تنظر بها إليَّ الآن، إنها كافية لإثارة قلقي بشدة".

"أفكر، هذا كل ما في الأمر، أفكر بأقصى ما أستطيع من اهتمام، لا تجعل ذلك يزعجك".

"لستُ منزعجا، مادمت لا تخدعني، لن أنزعج إطلاقًا".

"تثق في، أليس كذلك يا والت؟"

"بالتأكيد أثق فيك".

"تفعل أي شيء من أجلي، أليس كذلك؟"

"بالتأكيد، تعرف ذلك".

"حسنا، ما أريده من أجلي الآن أن تدخل السيارة وتأتي بالمسدس من الدرج".

"المسدس؟ لماذا تريده؟ ليس هناك لصوص لتطلق عليهم النار الآن، ليس هناك إلا نحن والريح- وباستثناء الريح هنا، لا يوجد شيء".

"لا تطرح أسئلة، افعل ما أطلبه وأحضرْ لي المسدس".

هل كان أمامي اختيار؟ نعم. ربما كان أمامي، ربما كان عليَّ أن أرفض، وربما أنهى ذلك المسألة على الفور، لكن الأستاذ أعطاني أمرًا، ولم يكن من الممكن أن أرفض - حينذاك، في وقت كهذا، كان يريد المسدس، وكانت مهمتي أن أحضره له. وهكذا، دون كلمة أخرى، أسرعت إلى السيارة وأحضرته.

قال حين أعطيته له بعد دقيقة: "لتحل بك البركة يا والت، أنت شبيهي".

قلت: "كن حذرا، السـلاح مشـحون، ولسنا في حاجة إلى حادث آخر".

قـال، وهو يربت على الأرض بجواره: "تعـال إلى هنا يا بني، اجلس بجواري واستمع إلى ما ينبغي أن أقوله".

كنت قد بدأت بالفعل أندم على كل شـيء، كان الإيقاع العذب في صوته إفشـاء غير مباشر، وحين جلسْـتُ كانت معدتي تتقلب، تثب مباشـرة إلى المريء. كانت بشـرة الأستاذ شـاحبة تماما، وقطرات قليلة من العرق عالقة على شـاربه، وأطرافـه ترتجف من الحمى، لكن نظرته ثابتة، وكل القوة التي لا يزال يتمتع بها كامنة في عينيه، وأبقى هاتين العينين ثابتتين عليَّ طوال حديثه.

"هـذا مـا وصلنا إليه، يا والـت؛ إننا في بقعة بشـعة، وعلينا أن نخرج منها، إذا لم نفعل ذلك بأسرع ما يكون، سنموت".

"يمكـن أن يحدث ذلـك، لكن ذلك لا يعنـي أن ننصرف قبل أن تنخفض الحرارة قليلا".

"لا تقاطعْنـي، اسـمعني أولاً، ثـم تكلم براحتـك". توقف لحظة ليبل شـفتيه بلسانه، لكن فمه كان جافًا حتى بدت هذه الحركة عديمة الأهمية، "علينا أن ننهض ونبتعد عن هنا، ذلك أكيد، وكلما انتظرنا أكثـر كانت الأمور أسـوأ، المشـكلة أنني لا أسـتطيع الوقوف ولا أسـتطيع المشـي، لا شـيء يغير هذه الحقيقة. حين تغرب الشمس، سأكون أضعف مما أنا عليه الآن".

"ربما نعم وربما لا".

”لا يوجـد ربما في هذه الحالة، وهكذا بدلاً من الجلوس وتضييع وقت ثمين، لديَّ اقتراح“.

”أجل، ماذا؟“

”أبقى هنا وتنطلق في طريقك“.

”انـسَ، لن أتزحزح من جانبك يا أسـتاذ، قطعـت هذا العهد منذ زمن بعيد، وأنوي الالتزام به“.

”إنها مشاعر طيبة يا بني، لكنك لن تجني من ورائها إلا المشاكل، ينبغـي أن تنصرف من هنا، ولن تسـتطيع أن تفعل ذلك وأنا أجرك إلى أسـفل، واجه الحقائق. هذه آخر ليلـة نقضيها معًا، تعرف ذلك، وأعرف ذلك، وكلما تصارحنا أكثر كان ذلك أفضل لنا“.

”مستحيل، لن أفكر في ذلك ثانية“.

”لا تريـد أن تتركنـي، ليس هذا ما عليك التفكيـر فيه، لكن فكر في آلامي مسـتلقيا هنا في هذه الحالة، لا تريد أن أعاني، وأنا ممتن لك. يبدو انك تعلمْتَ دروسـك جيـدًا. لكنني أعرض عليك مخرجا، وبمجرد أن تفكر فيه قليلاً تدرك أنه الحل الأفضل لنا“.

”ما المخرج؟“

”بسيط جدا. تأخذ هذا المسدس وتطلق النار على رأسي“.

”هيا يا أستاذ، ليس هذا وقت النكت“.

”ليست نكتة يا والت، تقتلني ثم تسير في طريقك“.

"أثرت الشمس على رأسك، وذهبت بعقلك. أصبت برصاصة في كتفك، هذا كل ما في الأمر، من المؤكد أنها مؤلمة، لكن ذلك لا يعني أن تقتل نفسك. يمكن للأطباء علاج هذه الأمور مرة واثنتين وثلاثًا".

"لا أتحدث عن الرصاصة، أتحدث عن السرطان في بطني، لم يعد علينا أن نمارس الخداع في هذا، أمعائي كلها مشوَّهة ومدمَّرة، وليس أمامي أكثر من ستة شهور أعيشها، حتى إذا استطعت الخروج من هنا، فقد انتهيت على أية حال، وهكذا لماذا لا ننفذ الأمر بأيدينا؟ ستة أشهر من الألم والوجع - هذا كل ما يمكن أن أتطلع إليه، كنت أتمنى أن تبدأ طريقًا جديدًا قبل أن أرحل، لكن لم يكن مقدرًا أن يحدث ذلك، أمر سيئ جدا سيئ جدا بشأن أمور كثيرة، لكنك تقدم لي خدمة كبيرة حين تسحب الزناد الآن يا والت. أعتمد عليك، وأعرف أنك لن تخذلني".

"كف عن هذا، توقف عن هذا الكلام يا أستاذ، لا تعرف ما تقول".

"الموت ليس مُفزعًا إلى هذه الدرجة يا والت، حين يصل الإنسان إلى نهاية الخط، يكون الشيء الوحيد الذي يريده حقًا".

"لن أفعلها، لن أفعلها حتى بعد ألف سنة، تستطيع أن تطلب مني حتى يوم القيامة، لكنني لن أرفع أبدًا يدًا ضدك".

"إذا كنت لن تفعلها فسوف أفعلها بنفسي، ستكون أصعب بكثير، وأتمنى أن تجنبني المشكلة".

”يا رب، يا أستاذ، اترك المسدس“.

”آسف يا والت، إذا لم تكن تريد أن ترى ذلك، ودعني الآن“.

”لن أودعك، لن تسمع مني كلمة حتى تترك هذا المسدس“.

لكنه لم يعد يسمع، وهو لا يزال ينظر في عيني، رفع المسدس إلى رأسه واستعد. بدا وكأنه يشجعني على أن أوقفه، يشجعني على أن أمد يدي وأقبض على المسدس، لكنني لم أستطع أن أتحرك، اكتفيت بالجلوس والمراقبة، ولم أفعل شيئًا.

كانت يده ترتجف والعرق يتدفق على جبهته، لكن عينيه كانتا ثابتتين وصافيتين؛ وقال: ”تذكر الأوقات الطيبة، تذكر الأشياء الطيبة التي علمتك إياها“، ثم بلع ريقه، وأغلق عينيه وضغط الزناد.

III

استغرق الأمر ثلاث سنوات لأتتبع الخال سليم؛ لأكثر من ألف يوم طفت البلاد متتبعا ابن الزانية في كل مدينة من سان فرانسيسكو إلى نيويورك. عشت يومًا بيوم، أستجدى وأحتال بقدر ما أستطيع، وتدريجيا عدت متسولا مرة أخرى كما ولدْتُ. سافرت متطفلاً، وعلى قدمي، وركبت القطارات، نمت في المداخل، وفي معسكرات المتشردين، وفي نزل رخيصة، وفي منتجعات مفتوحة، في بعض المدن ألقيت قبعتي على الرصيف ولعبت بالبرتقال للمارة، وفي مدن أخرى، مسحت أرضيات وأفرغت صفائح قمامة، وفي مدن أخرى سرقت. سرقت طعامًا من مطابخ المطاعم، ونقودًا من ماكينات النقد، وجوارب وملابس داخلية من الصناديق في محلات «وولورث»- ما تصل إليه يداي. وقفْتُ في طوابير المعدمين ونمت خلال المواعظ في جيش الخلاص، رقصت في أركان الشوارع، غنيت مقابل العشاء، ذات مرة في دار للسينما في سياتل، كسبت عشرة دولارات من رجل عجوز طلب أن يمص عضوي، وفي مرة أخرى، في شارع هينبين في مينيابوليس، عثرت على ورقة بمائة دولار ملقاة في بالوعة. أثناء تلك السنوات الثلاث، اقترب مني عشرات الناس في أمكنة كثيرة مختلفة وسألوني إن كنت والت الولد العجيب. فوجئت أول مرة، لكن بعد ذلك كان ردي جاهزا، كنت أقول: «آسف يا رفيق، لم أسمع عنه قط، لابد أنك تخلط بيني وبين شخص آخر». وقبل أن يلحوا، أحييهم وأتلاشى في الزحام.

كنت على مشارف الثامنة عشرة حين وجدته، بلغ طولي خمسة أقدام وخمس بوصات ونصف، ولم يمر على تنصيب روزفلت

إلا شــهران فقــط، كان المهربون لا يزالــون يعملون، لكن مع قرب انتهاء قانون منع الخمور، كانوا يبيعون آخر مخزونهم ويستكشفون خطوطًا جديدة للاســتثمار المشــبوه. هكذا وجدت خالي. بمجرد أن أدركت أن هوفر(١) ســيتم التخلص منه، بدأت الطرق على باب كل مهـرب خمور أعثر عليه، كان ســليم من النوع الــذي يتعلق بعملية طريقها مســدود مثل الخمور المهربة، وكانت الفرصة أنه إذا توسل لشــخص من أجل وظيفة، فســوف يقوم بها في مــكان مغلق. وذلك يســتبعد الشواطئ الشــرقية والغربية، وكنت قد ضيعْتُ بالفعل وقتًا طويــلاً في تلك الأمكنـــة، وهكذا بدأتُ أركز تمامًــا في كل مزاراته القديمة، وحين لم يحدث شــيء في ســانت لويس أو مدينة كانســاس أو أوماهــا، وانطلقــت خلال رقع أوســع وأوســع من الميدويســت. ميلوكي، وسينســينتي، ومينيابوليس، وشــيكاجو، وديترويت. ومن ديترويــت عــدْتُ إلى شــيكاجو، ورغــم أنني لم أتوصل إلى شـــيء في ثلاث زيارات ســابقة إلى هناك، غيــرت الزيارة الرابعة حظي. انــس ما يتعلــق بالحظ في المرة الثالثة، ثــلاث ضربات ولا تصيب الهـدف، لكن الرابعة تصيبُ فــورًا، وحين عدْتُ إلى شــيكاجو في يناير ١٩٣٣، وصلت في النهاية إلى القاعدة الأولى. قاد الزحف إلى روكفورد في ولاية إلينوي - ثمانون ميلاً فقط على الطريق - وهناك وجدته: يجلس في مســتودع في الثالثة فجرًا، يحرس مائتي صندوق مهرب من الويسكي الكندي.

---

(١) هوفــر (١٨٩٥-١٩٧٢): مدير المخابــرات الفيدرالية (١٩٢٤-١٩٧٢)، يُعــرف بمحاربته للعصابات في فتــرة منع الخمور (١٩١٩-١٩٣٣)، وبحملته الشرسة ضد الشيوعيين بعد الحرب العالمية الثانية.

كان يمكن أن أطلق النار عليه مباشرة في تلك اللحظة هناك، كان معي مسدس مشحون في جيبي، ونظرًا لأنه كان المسدس نفسه الذي استخدمه الأستاذ في الانتحار قبل ثلاث سنوات، كان هناك عدل مؤكد في أن أوجه ذلك المسدس إلى سليم، لكن كانت لدي خطط مختلفة، وقد تدبرْتُها لفترة طويلة جدا، ولم أكن أنوي التخلي عنها، لم يكن يكفيني أن أقتل سليم. ينبغي أن يعرف جلاده، وقبل أن يموت، أتركه يعيش مع موته لبعض الوقت، العدل عدل رغم كل شيء، وإذا لم يكن الانتقام لذيذًا، لماذا أفكر فيه في المقام الأول؟ وقد دخلت محل الفطائر، أسعى إلى التهام قدر كبير مما لذ وطاب.

كانت الخطة معقدة تمامًا، كانت مختلطة تماما بذكريات من الماضي، ولم يكن من الممكن أن أفكر فيها من دون الكتب التي قرأها لي أيسوب في المزرعة في سيبولا، وكان أحدها، مجلدًا ضخما بغلاف أزرق ممزق، عن الملك أرثر[1] وفرسان المائدة المستديرة. باستثناء سير والتر الذي أحمل اسمه، كان أولئك الفتيان في بدلهم المعدنية أبطالي المفضلين، وكنت أطلب منه تلك المجموعة أكثر من سواها، حين كنت في أشد الحاجة إلى صحبة (للاهتمام بجروحي، مثلا، أو لمجرد الشعور بالكآبة بسبب نزاعي مع الأستاذ). كان أيسوب يقطع دراساته ويصعد ليجلس معي، ولم أنس إطلاقا ارتياحي وأن أستمع إلى تلك الحكايات عن السحر الأسود والمغامرات، وقد صرْتُ وحيدًا في العالم، كثيرًا ما عادت

(١) الملك أرثر: بطل بريطاني أسطوري، يقال إنه كان ملك البريطانيين في القرن السادس.

إلى ذاكرتي، كنت في رحلة البحث عن نفسي رغم كل شيء؛ أبحث عن كأسي المقدسة، وبعد سنة تقريبًا من البحث، بدأ شيء غريب يحدث: بدأت الكأس في القصة تتحول إلى كأس حقيقية. اشربْ من الكأس وستمنحك الحياة، لكن الحياة التي كنْتُ أبحث عنها لا يمكن أن تبدأ إلا بموت خالي، كانت تلك كأسي المقدسة، ولم يكن من الممكن أن تكون لي حياة حقيقة حتى أعثر عليها، اشربْ من الكأس وستمنحك الموت. تدريجيا تحولت الكأس إلى الكأس الأخرى، وأنا أواصل الانتقال من مكان إلى مكان، خطر في ذهني كيف أقتله. كنت في لنكولن في ولاية نبراسكا حين تبلورت الخطة بشكل نهائي- وأنا ألتهم سلطانية من الحساء في الإرسالية اللوثرية لسانت أولاف- وبعد ذلك لم تكن هناك أي شكوك. سأملأ كأسا بمادة الاستركنين وأجعل ابن الزانية يشربها، تلك هي الصورة التي رأيتها، ومنذ ذلك اليوم لم تفارقني قط، أوجه المسدس إلى رأسه وأجعله يتجرع موته.

وهكذا كنت هناك، أتسلل خلفه في ذلك المستودع الخالي البارد في روكفورد في ولاية إلينوي، قضيت الساعات الثلاث السابقة قابعًا خلف ركام من الصناديق الخشبية، منتظرًا أن ينعس سليم ويغط في النوم، والآن حانت اللحظة، نظرًا للسنوات الكثيرة التي مضت في التخطيط لهذه اللحظة، كنت هادئًا جدا.

قلْتُ هامسا في أذنه: «كيف حالك يا خال، لم أرك منذ فترة طويلة».

كان المسدس مضغوطًا على مؤخرة رأسه، لكن لمجرد التأكد من أنه يدرك الأمر، نقرت الزناد بإبهامي، وكانت هناك لمبة عارية أربعون وات معلقة على الطاولة التي يجلس عليها سليم، وكانت كل

أدوات حارس ليلي متناثرة أمامه: تُرْمُس القهوة، زجاجة ويسكي، كأس صغيرة، وملذات الأحد، ومسدس ٣٨».

قال: «والت، هل أنت والت؟»

«بلحمي، يا رفيق، ابن أختك المفضل».

«لم أسمع شيئا، بحق الجحيم كيف تكلمني بهذا الشكل؟»

«ضع يديك على الطاولة ولا تلتفت، إذا حاولت أن تمد يدك إلى المسدس ستموت في الحال، تفهم؟»

أطلق ضحكة عصبية: «أجل، فهمْتُ».

«نوع مما كان يحدث في الماضي، هوه؟ أحدنا يجلس في مقعد، والآخر يوجه مسدسًا إليه، ظننْتُ أنك ستقدر التزامي بتقاليد الأسرة».

«ليس هناك سبب لهذا يا والت».

«اسكتْ، إذا توسلْتَ، أطلقْتُ النار عليك في الحال».

«يسوع، يا بني، امنحني مهلة».

تنشقت الهواء خلف رأسه: «ما هذه الرائحة يا خال؟ تبرزت في بنطلونك بالفعل، أليس كذلك؟ ظننت أنك صلب، كل هذه السنوات، كنت أتجول متذكرًا أي رجل صلب كنْتَ».

«أنت مجنون، لم أفعل شيئًا».

«بالتأكيد رائحتك تشبه رائحة الغائط، أم أن هذا مجرد خوف؟ هذه رائحة خوفك، يا جامد؟»

كان المسدس في يدي اليسرى، وفي اليمنى حقيبة مدرسية، قبل أن يواصل الحديث - وكان بالفعل يوتر أعصابي - أرجحت الحقيبة

حول مؤخرة رأســه وألقيتها أمامه على الطاولة، وقلت: «افتحْها». وهو يفتح الحقيبة، اســتدرت إلى الناحية الأخرى والتقطْتُ مسدسه، ثم ببطء وأنا أبعد مسدسي عن رأسه، واصلْتُ السير حتى صرت في مواجهته مباشرة، أبقيت المسدس موجهًا إلى وجهه وهو يمد يده في الحقيبة ويخرج محتوياتها: في البداية برطمانًا ممتلئا بلبن مســموم، ثم كأسًا فضية، سرقته من محل رهن في كليفلند قبل عامين وظللت أحملهــا معي من حينها، لم يكن المعدن نقيا- مجرد إناء فضي- لكنه كان مزخرفــا بأشــكال صغيــرة على صهوة حصــان، وصقلته في ذلك المســاء حتى لمع، بمجرد أن اســتقرت الكأس على الطاولة مع البرطمان، رجعت قدمين ليتسع المشهد لي، كان العرض على وشك أن يبدأ ولم أكن أريد أن يضيع مني شيء.

بدا لي ســليم عجوزًا، عجوزا مثل الهضاب، كبر عشــرين عاما منذ رأيتــه آخر مرة، وكان التعبير في عينيه مؤذيا جدا، مليئا بالألم والارتباك، ربما شــعر رجل أقل مني ببعض الشفقة عليه، لكنني لم أشــعر بشــيء، كنت أريده ميتًا، وحتى وأنا أنظر إلى وجهه، باحثا عن أصغر علامة للإنسانية أو الطيبة، انتشيت بفكرة قتله.

قال: «ما هذا كله؟»

«ســاعة كوكتيل، تصب لنفســك شــرابا قويا طيبًــا، يا صديق، وتشرب في صحتي».

«يبدو مثل اللبن».

«مائة في المائة - وأكثر، مباشرة من البقرة ‘بِسّي’».

«اللبن للأطفال، لا أطيق طعم هذا الخرا».

«طيب بالنسـبة لك، يسـاعد على تقوية العظـام ويجعل المزاج مشـرقًا، عجوزا كما تبدو الآن يا خال، ربما لا تكون فكرة سيئة أن ترشـف من نبع الشباب، سـيصنع العجائب، صدقْني، رشفات قليلة من هذا السائل، ولن تبدو يومًا أكبر مما تبدو عليه الآن».

«تريد أن أصب اللبن في الكأس، أليس هذا ما تقول؟»

«صـب اللبن فـي الكأس، وارفعْه في الهـواء وقل 'طول العمر لك يا والت'، ثم ابدأ الشـرب، اشرب الكمية كلها. اشربها حتى آخر قطرة».

«ثم ماذا؟»

«لا شيء؛ ستقدم خدمة عظيمة للعالم يا سليم، ويكافئك الرب».

«في هذا اللبن سم، أليس كذلك؟»

«ربما فيه وربما ليس فيه، هناك طريقة واحدة لمعرفة ذلك».

«خرا؛ ستكون مجنونا إذا تخيلت أنني سأشرب هذا الشيء».

«إذا لم تشربه ستنطلق رصاصة في رأسك، تشربه وربما تكون أمامك فرصة».

«مؤكد، بالضبط مثل ذلك الصيني في الجحيم».

«لن تعرف أبدًا، ربما أفعل ذلك لمجرد أن أفزعك، ربما أريد أن أشرب نخبًا معك قبل أن نبدأ العمل».

«العمل؟ أي عمل؟»

«العمل القديـم، العمل الحالي، ربما حتى العمل المسـتقبلي، أنا محطـم يا سـليم، وأحتاج إلــى وظيفة، ربما أكون هنــا لأطلب منك المساعدة».

«مؤكد، ساسـاعدك في الحصول على وظيفة، لكن ليس عليَّ أن أشــرب لبنا لأفعل هذا، إذا أردْتَ أن أساعدك، فسيكون أول ما أفعله في صباح الغد أن أتحدث إلى بينجو».

«حسنًا، سألزمك بذلك، لكننا سنتناول فيتامين 'د' أولاً». خطوت إلى حافة الطاولة، ومددت يدي بالمسدس، ووخزته تحت ذقنه- بقوة جعلته يرجع برأسه إلى الخلف. «وسنشرب الآن».

كانت يدا سـليم ترتجفان، لكنه مضى قدمًا وفتح البرطمان، قلت وقد بدأ يصب اللبن في الكاس: «لا تسكبه. إذا سكبْتَ نقطة ضغطْتُ الزناد». تدفق السائل الأبيض من إناء إلى الآخر، ولم يقع شيء منه على الطاولة، قلْتُ: «حسـنـا. حسنا جدا. والآن ارفع الكاس وقل في صحتك».

«حياة طويلة لك يا والت».

كان الحقير يتصبب عرقا، شـممت رائحة عفونته البشـعة وهو يرفع الكاس إلى شفتيه، وكنت سعيدًا، سعيدًا لأنه كان يعرف ما هو آت، راقبْـتُ الهلع يتصاعد في عينيه، وفجأة ارتجفْتُ معه؛ ليس من العار أو الندم - لكن من البهجة.

قلْتُ: «تجرعه، أيها العجوز اللعين، افتح مرينك وتجرع».

أغلق عينيه، وأمسك بأنفه مثل طفل على وشك أن يتناول دواءه، وبدأ يشـرب، كان ملعونا إذا فعل وملعونـا إذا لم يفعل، لكنني على الأقل قدمت له بعض الأمل، ذلك أفضل من المسدس، يقتله المسدس بشكل مؤكد، لكنني ربما كنت أزعجه فقط باللبن، وحتى لو لم أفعل ذلك، ربما يكون محظوظا ويحتمل السم، حين يكون أمام الإنسـان اختيار وحيد، يتناوله، حتى لو كان أطول لقطة. وهكذا سد أنفه وبدأ دون تفكير، ورغم شـعوري تجاهه، سـأقول هذا عن هذا البغيض: تنـاول دواءه مثـل ولد طيـب، تجرع موته وكأنـه جرعة من زيت الخـروع، ورغم أنـه ذرف بعض الدمـوع أثناء ذلـك، وهو يلهث وينشج بعد كل رشفة، واصل الرشف حتى النهاية.

انتظرْتُ حتى يبدأ مفعول السم، وقفت أشاهد وجه سليم بحثًا عن علامات المعاناة، مرت ثوان ولم ينهر ابن الزانية، كنت أتوقع نتائج فورية- الموت بعد رشفة أو اثنتين- لكن لابد أن اللبن خفف الوخز، وحيـن دفع خالي الكأس الخالية على الطاولة، كنت أتسـاءل بالفعل عن الخطأ.

قال: «عليك اللعنة، عليك اللعنة، أيها المخادع يا ابن العاهرة».

لابد أنه رأى الدهشـة في وجهي، شـرب كمية من الاسـتركنين تكفي لقتل فيل، ولا يزال منتصبًا يدفع مقعده على الأرضية، مبتسمًا ابتسـامة عريضـة مثل جـن فاز في عمـل مثير، قلت مشـيرا إليه بالمسدس: «ابق حيث أنت، ستندم إذا لم تفعل».

ولم يفعل سـليم سـوى الانفجار في الضحك: «لا تملك الشجاعة يا أهبل».

وكان مصيبـــا، التفت وبدأ يبتعد، ولم أسـتطع إطلاق النار، كان يعطينـــي ظهره هدفًا، وكنت أراقبـــه فقط، مرتجفا بدرجة تجعلني لا أسـحب الزناد، خطا خطوة، ثم خطوة أخرى، وبدأ يختفي في ظلال المسـتودع، اسـتمعت إلى ضحكه السـاخر المجنون يهز الجدران، وفقط حين لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر، فقط حين ظننت أنه تفوق عليَّ إلى الأبد، تمكن منه السـم، كان قد تمكن من أن يخطو عشرين خطـوة أو ثلاثيـن، لكن كان ذلك أقصى ما يمكن أن يذهب إليه، مما يعني أن الضحكة الأخيرة كانت من نصيبي رغم كل شيء، سمعْتُ قرقرة مفاجئة مختنقة، سمعت صوت ارتطام جسد بالأرض، وحين شـققت في النهاية طريقي في الظـلام وعثرْتُ عليه، كان ميتا تمامًا وكأنه حجر.

لـم أرغب في التسـليم بأي شـيء، وهكذا سـحبت جثتـه باتجاه الضــوء لألقي نظـرة أفضل، دافعا وجهه إلى أسـفل من الياقة عبر الأرض الإسمنتية، توقفت على بعد بضع خطوات من الطاولة، لكن بالضبط وأنا على وشك أن أجثم وأضع طلقة في راس سليم، أوقفني صوت من خلفي.

قــال الصوت: حسـنا يا غلام: «اترك المسـدس وارفع يديك في الهواء».

تركْـتُ المسـدس، ورفعْتُ يدي، ثـم ببطء شـديد التفتُّ لأواجه الغريب، لم يصدمني بشــيء مميز: رجل يصعب وصفه في أواخر الثلاثينيات من العمر أو أوائل الأربعينيات، يرتدي بدلة زرقاء أنيقة وحذاء أسود غاليًا ويضع منديلاً قرنفليا في جيبه الأمامي، في البداية ظننت أنه أكبر سـنا، لكن ذلك كان لبياض شـعره. بمجرد أن تنظر إلى وجهه، تدرك أنه ليس كبيرا على الإطلاق.

قــال: «قتلْتَ للتو أحــد رجالي، ذلك أمر غيــر مقبول يا بنـي، لا يهمني صغر سنك. فعلتها وسوف تنال العقاب».

قلت: «أجل، صحيح. قتلت ابن الزانية، يستحق القتل فقتلته، إنـها الطريقة المناسبة للتعامل مع الحشرات يا مستر، تزحف إلى منزلك وعليـك التخلص منها، أطلق النــار علي إذا أحببت- لا أبالي- فعلْتُ مــا أتيْــتُ لأجله، وهذا كل ما يهمني؛ إذا مت الآن، فإنني على الأقل أموت سعيدا».

ارتفع حاجبا الرجل حوالي مليمتر ونصف، وارتعشــا لحظة في دهشـــة، أربكته كلماتي القليلة ولم يكن متأكدًا من الطريقة التي عليه أن يرد بها، بعد التفكير في الأمر لثانيتين، بدا وكأنه قرر أن يتسلى. قال: «وهكذا تريد أن تموت الآن، أليس كذلك؟».

«لم أقل ذلك، أنت من يمســك بالمسدس، وليس أنا، إذا أردت أن تسحب الزناد، فليس هناك ما يمكن أن أفعله».

«ومــاذا إذا لــم أطلق النار عليـك؟ ماذا يفتــرض أن أفعل معك حينذاك؟».

«حســنا، أرى أنك فقــدت واحدا مــن رجالك، وربمــا تفكر في اســتخدام شخص مكانه. لا أعرف المدة التي قضاها سليم في العمل معك، لكن لابد أنها كانت طويلة بشــكل يكفي لأن تكتشــف أي غبي كان سليم، لو لم تكن تعرف ذلك ما كنت أقف هنا الآن، أليس كذلك؟ كنت سأكون ملقيًا على الأرض ورصاصة في قلبي».

«كان لسليم أخطاؤه، لن أجادلك في ذلك».

«لم تخسر كثيرًا يا مستر، احسب المكسب والخسارة تر أنك أفضل من دونه، لماذا تتظاهر بالأسف على شخص تافه وسيئ مثل سليم، مهما يكن ما فعله لك، سأفعله بشكل أفضل. وعد».

«حدثني عن نفسك، باختصار».

«بعد ما مررت به في السنوات الثلاث الماضية، إنها تقريبًا الشيء الوحيد الذي تبقى لي».

«وماذا عن الاسم؟ هل لك اسم من الأسماء؟»

«والت».

«والت ماذا؟»

«والت رولي يا سيدي».

«هل تعرف من أنا يا والت؟»

«لا يا سيدي، لا أعرف».

«الاسم بينجو والش؛ ألم تسمع به قط؟»

«من المؤكد أنني سمعتُ عنك، أنت مستر شيكاجو، اليد اليمنى لبوس أومالي، أنت ملك اللوب(١)، بينجو، الآمر والناهي الذي يسيِّر كل شيء».

لم يستطع إلا أن يبتسم للتعظيم، تقول للرجل الثاني إنه الأول، ويكون عليه أن يقدر المجاملة، ونظرًا لأنه لم يكن قد أنزل المسدس بعد، لم أكن في حالة مزاجية تسمح لي بالبوح بكلمات قاسية عنه،

---

(١) لوب Loop: الحي التجاري الرئيسي في شيكاجو، إلينوي.

مادام أبقَى عليَّ حيا، كان عليَّ أن أقف هناك أنافقه حتى ينتهي الأمر على خير.

قال: «حسنا يا والت، سنجرب، شهران أو ثلاثة، ثم نرى أين نقف، فترة اختبار لنلم بالأمر؛ لكن إذا لم تثبت جدارتك فسوف أتخلص منك، سأرسلك في رحلة طويلة.

إلى المكان نفسه الذي ذهب إليه سليم، على ما أظن».

«هذه هي الصفقة التي أعرضها، وافق أو ارفض يا بني».

«تبدو لي منصفة، إذا لم أقم بوظيفتي اقطع رأسي بفأس، أجل أستطيع أن أوافق على ذلك، لماذا لا بحق الجحيم؟ إذا لم أستطع أن أفي بعهدي معك يا بينجو، ما فائدة الحياة على أية حال؟».

هكذا بدأت مهنتي الجديدة. دربني بينجو وعلمني، وبالتدريج صرت مساعده. كانت فترة الاختبار التي استمرت شهرين صعبة على أعصابي، لكن رأسي لا يزال متصلاً بجسدي عند نهايتها، وبعد ذلك وجدت نفسي متحمسًا للعمل. كان لأومالي واحد من أكبر المشاريع في مقاطعة كوك[1]، وكان بينجو مسئولا عن إدارة المعرض. قاعات القمار، عمليات الأرقام، المستودعات، فرق الحماية، الآلات التي تعمل بالنقود- كان يدير كل هذه المشروعات بيد قوية، لحساب الريس فقط، التقيْتُ به في لحظة صاخبة، فترة انتقالية وفرص جديدة، وبانتهاء العام رسخ مكانته واحدًا من أمهر الموهوبين في الميدويست، كنت محظوظا حين عثرت عليه مُعلِّمًا. أخذني بينجو تحت جناحه، أبقيت عيني مفتوحتين وكنت أستمع لما يقول، وتحولت حياتي تماما، بعد ثلاث سنوات من اليأس والجوع، كان في معدتي طعام، وفي جيبي نقود، وعلى ظهري ملابس أنيقة. كنت فجأة في طريقي مرة أخرى، وحيث إنني كنت مساعد بينجو، كانت الأبواب تفتح لي وقتما أطرقها.

بدأْتُ مراسلاً، أنقل له الرسائل الشفهية وأقوم بمهام صغيرة وغريبة، أشعل له السجائر وآخذ بدله إلى المغسلة؛ وأشتري الزهور لصديقاته وألمع أغطية إطارات سيارته؛ وألبي أوامره مثل جرو حريص. يبدو الأمر مهينا، لكن الحقيقة أنني لم أهتم بكوني تابعًا، كنت أعرف أن فرصتي آتية، وأثناء ذلك كنت ممتنا لأنه وفر لي وظيفة، كان الكساد، رغم كل شيء، وأين يمكن لشخص مثلي أن يحصل على صفقة أفضل؟ لم أحصل على أي قدر من التعليم، ولم

---

(١) مقاطعة كوك: مقاطعة في ولاية إلينوي.

أكن أتمتع بأية مهارات، ولم أكن مدربًا على شــيء باســتثناء مهنة انتهت، وهكـذا ابتلعت كبريائي وفعلت ما يطلب مني. إذا كان عليَّ أن ألعــق الحذاء لأكســب قوت يومي، فليكـن، وتحولت إلى أفضل لاعق أحذية، من يبالي إن كنت أســتمع إلى قصص بينجو وأضحك على نكاته؟ لم يكن الرجل راوية سيئا، والحقيقة أنه كان من الممكن أن يكون ممتعًا تمامًا حين يريد.

بمجــرد أن برهنت على إخلاصي له، لم يوقف تقدمي. في أوائل الربيع كنت أتســلق السلم، ومنذ ذلك الوقت كان السؤال الوحيد بأية سرعة أصعد إلى الدرجة التالية. جمع بينجو بيني وبين ملاكم سابق اســمه ســتوترز جروجان، وبدأت أنا وســتوترز نتنقل بين البارات والمطاعــم ومحــلات الحلــوى لنجمع أمــوال الحماية الأســبوعية لأومالــي. وكما يوحي هذا الاســم، لم يكن ســتوترز[١] يتكلم كثيرًا، وكنــت أتمتــع بقدرة بارزة على اســتخدام الكلمــات، وحيثما مررنا بمتهرب أو مماطل، ألون تلك الصور القوية لما حدث للزبائن الذين لم يفوا بدفع ما عليهم حتى كان من النادر أن يستخدم رفيقي قبضتيه. كان سندًا مفيدًا، ومن الرائع أن يكون معك لأغراض استعراض إما أو، لكننــي كنت أزهو بقدرتي على تهدئة الخلافات دون اللجوء إلى خدماته. في النهاية، كان الكلام يصل إلى بينجو عن ســجل مساري الجيــد، فنقلني إلى وظيفة في الأرقام الجارية في ســاويث ســايد[٢]. عملت أنا وستوترز معًا بشكل جيد، لكنني فضلت أن أكون بمفردي،

(١) ستوترز Stutters: الاسم يعني تمتمة أو تهتهة.

(٢) الأرقــام الجاريــة: عمليات إجرامية صغيرة في اللوتــرى (حين كان غير قانوني في الولايات المتحدة). ســاويث ســايد: جزء رئيسي من مدينة شيكاجو، يقع في مقاطعة كوك.

وخلال الشــهور الستة التالية ســرت على أرصفة كثير من الأحياء البــارزة المختلفــة، متحدثًا مــع أتباعي وهم يقدمــون نقودهم لرمية حظ لكســب بضعــة دولارات أخرى. كان لكل شــخص نظامه، من موزع الصحف في ركن إلى القندلفت في الكنيسة، أحببت الاستماع إلى النــاس وهم يحكون لي كيف كونوا مجموعاتهم، جاءت الأرقام من كل مكان، من أعياد الميلاد والأحلام، من متوســطات الضرب بالمضرب وأســعار البطاطس، من الشقوق في الرصيف، ولوحات الرخــص، وقوائم الغســيل، والحضور في اللقــاء الأخير في صلاة الأحد، كانت فرص الكســب منعدمــة تقريبًا، ومن ثم لم يتهمني أحد حين يخســر، لكن في أحيان نادرة حين يفوز شــخص، كنت أتحول إلى رسول الأخبار الطيبة، كنْتُ كونت الحظ، ودوق الهبات الكبيرة، وأحببت مشــاهدة وجوه الناس تســطع وأنا أوزع النقود. عموما، لم تكن وظيفة سيئة، وحين رقاني بينجو مرة أخرى، كدت آسف عليها.

من الأرقــام انتقلت إلى القمار، وبحلول عام ١٩٣٦ كنت رئيس عمليــات صالــة الرهان في شــارع لوكســت، مكان حميــم ممتلئ بالدخــان يقبع في الغرفة الخلفية من مؤسســة للتنظيف الجاف، كان الزبائن يصلون في قمصانهم وبنطلوناتهم المجعدة، ويخلعونها على المنضدة الأمامية، ثم يشقون طريقهم بجوار أرفف الملابس المعلقة إلى الغرفة الســرية في الخلف، كل من دخل هذا المكان تقريبا ثرثر بعض الشيء عن التعود على مغسلة، كانت نكتة دائمة لكل الرجال الذيــن يعملون تحت يدي، وبمرور بعض الوقــت بدأنا نراهن على عــدد مــن يقولونها فجأة وعلى غير توقع في يــوم معين. وكما عبر عنها ذات مرة كاتب حساباتي وَلْدو ماكنير: «هذا هو المكان الوحيد في العالم الذي يفضون فيه جيوبك ويكوون بنطلونك في الوقت ذاته. اصرف كل ما في جيبك، ولن تفقد قميصك».

أدرْتُ عمــلاً صغيرًا جيدًا في غرفة خلف مغسـلة «بنِّي». كان العمل كثيفا، لكنني اسـتأجرت صبيا لينظمه لي جيدًا، وأوضحت له دائمــا أن أعقاب السـجائر تطفأ في الطفايــات وليس على الأرض، كانت ماكينات التذاكر أحـدث ابتكار في عالم المعدات الحديثة، في كل ميادين السباق الرئيسية في البلاد، وأبقيت القانون خلف ظهري بتبرعات منتظمة لصناديق تقاعد خاصة لسـتة من رجال الشرطة، كنت في الحادية والعشــرين من العمــر، وكنت في وضع طيب في كل الأحوال. أعيش في غرفة فخمة في فندق «فيذرستون»، وعندي خزانة مليئة بالبدل فصلها لي ترزي إيطالي بنصف الثمن، وأستطيع الذهــاب إلى نادي «ريجلــي» وحضور مباراة لفريــق كبز[1] حين أحب في عصر أي يوم، كان ذلك رائعا بالفعل، لكن على القمة كانت هناك النســاء، نساء كثيرات، وكنت أتأكد من حصول عضوي على كل مــا يمكن من متع. بعد مواجهة ذلك القرار المرعب في فيلادلفيا قبل ذلك بســبع ســنوات، صارت خصيتاي نفيســتين جـدا. تخليت عن الشــهرة والحظ من أجلهما، ولم يعد هناك والت الولد العجيب، تصــورت أن الطريقــة المثلى لتبرير اختياري أن أسـتخدمهما قدر ما أســتطيع. لم أكن بكرًا حين وصلْتُ إلى شـيكاجو، لكن رجولتي لـم تكتمل حتى التحقــت بالعمل مع بينجو وصار معــي نقود لأدفع مقابـل الوصول إلى أية امرأة أتخيلها. وانهزمت رغبتي أمام فلاحة اســمها «فيلمَا تشـيلد» في مكان مــا في غرب بنسـلفانيا، لكن ذلك كان موضوعًــا بدائيــا جـدًا: نتلامس بملابســنا في حظيــرة باردة، ووجهانــا مبللان باللعاب ونحن نتلمــس طريقنا ونصارع للوصول إلــى الموضع، دون أن نتأكد بالضبط ممــا يحدث هناك. بعد بضعة أشــهر، مع قوة ورقة بمائة دولار وجدتهــا في مينيابوليس، خضت

(١) ريجلي: نادي بيسبول في شيكاجو. كبز: فريق بيسبول في شيكاجو.

تجربتين أو ثلاثا مع عاهرات، لكنني تقريبًا كنت في عداد المبتدئين حين ضربْتُ في شوارع «هوج تاون»، بمجرد أن استقر بي الحال في حياتي الجديدة، فعلت كل ما أستطيع لأعوض ما فات.

هكذا سارت الأمور، بنيت بيتا لنفسي في المنظمة، ولم أشعر قط بأي وخز بشأن الانخراط مع رجال سيئين، رأيت أنني واحد منهم، أمثل ما يمثلونه ولم أنطق قط لأحد منهم بكلمة عن الماضي: لا لبينجو، أو الفتيات اللائي نمت معهن، أو لأي شخص، مادمت لا أعتمد على الماضي، يمكن أن أخدع نفسي بالتفكير بأن لي مستقبلا، كان الأمر مؤلمًا بدرجة تجعلني لا أنظر إلى الخلف، وهكذا أبقيْتُ عيني مثبتتين على ما هو أمامي، وكلما خطوت خطوة أخرى إلى الأمام، ابتعدت عن شخصيتي مع الأستاذ يهودي. كان أفضل جزء مني يرقد تحت الأرض معه في صحراء كاليفورنيا. دفنْتُه هناك مع نسخته من كتاب سبينوزا، وقصاصات الصحف التي جمعها عن روائع والت الولد العجيب، والقلادة بالعقلة المقطوعة من إصبعي، لكن حتى رغم عودتي إلى هناك كل ليلة في أحلامي، كنت أصاب بالجنون حين أفكر في الأمر بالنهار، يفترض أن يكون قتل سليم قد أنهى الحكاية، لكنه على المدى البعيد لم يحسن من الأمر شيئا. لم آسف على ما فعلْتُ، لكن الأستاذ يهودي لا يزال ميتا، وكل من على شاكلة بينجو في العالم لا يعوضونني عنه. كنت أتبختر في شيكاجو وكأنني ذاهب إلى أمكنة معينة، وكأنني مستر فلان، لكنني في أعماقي لم أكن أحدا، دون الأستاذ، لم أكن أحدا، ولن أكون في أي مكان.

كانت أمامي فرصة لأنجو قبل فوات الأوان، فرصة واحدة لخفض خسائري والابتعاد، لكنني كنت أعمى بدرجة لا تسمح لي بأن أقتنصها حين سقط العرض في حجري. في أكتوبر ١٩٣٦،

وكنت منتفخًا جدا بأهميتي، معتقدًا أن الفقاعة لن تنفجر أبدًا. تجنبت المغسلة عصر أحد الأيام لأقوم ببعض الأعمال الشخصية: حلاقة الذقن وقص الشعر في صالون حلاقة «برروير»، وتناول الغداء في مطعم «ليميل» في شارع «واباش»، ثم إلى فندق «رويل بارك» للهو مع راقصة اسمها ديكسي سينكلير، وكان الموعد محددًا في الثانية والنصف في جناح رقم ٤٠٩، وقد انتفخ بنطلوني مقدمًا، لكن قبل أن أصل إلى باب مطعم ليميل بست ياردات أو سبع، بالضبط وأنا على وشك الدخول لتناول الغداء، تطلعت لأرى آخر شخص في العالم أتوقع رؤيته. وقفت متصلبًا تمامًا في مكاني. كانت مسز ويذرسبون وذراعاها ممتلئتان بحزم، تبدو جميلة وأنيقة كما كانت دائمًا، مندفعة باتجاه تاكسي بسرعة مائة وعشرة أميال في الساعة، وقفْتُ هناك وورم يتشكل في حنجرتي، وقبل أن أنطق بكلمة، حدقتْ، وألقت بعينيها في اتجاهي، وتجمدتْ. ابتسمْتُ. ابتسمْتُ من أذن إلى الأخرى، وتبع ذلك واحدة من أغرب ردود الفعل المتأخرة التي رأيتها في حياتي. فتحت فكها بكل معنى الكلمة، انزلقت الحزم من يديها وتبعثرت على الرصيف، وبعد ثانية كانت تلف ذراعيها حولي وتطبع أحمر الشفاه على وجهي المحلوق للتو.

قالت وهي تعصرني بكل قوتها: «هذا أنت، أنت نذل، الآن وصلت إليك، أنت ابن عاهرة مراوغ، بحق الجحيم أين كنت يا بني؟»

قلت: «هنا وهناك، ألف وأدور، فوق وتحت، تحت وفوق، القصة المعتادة. تبدين رائعة يا مسز ويذرسبون. عظيمة حقًا. أم ينبغي أن أناديك بمسز كوكس؟ اسمك الآن، أليس كذلك؟ مسز أورلفيل كوكس».

تراجعت لتلقي نظرة أفضل عليَّ، وهي تبقيني على بعد ذراعين وابتسامة كبيرة تنتشر في وجهها. «ما زلت ويذرسبون يا حبيبي؛ قطعت كل الطريق إلى مذبح الكنيسة، لكن حين كان عليَّ أن أقول «موافقة» وقفت الكلمات في حلقي، تحولت الموافقة إلى رفض، وهنا بعد سبع سنوات ما زلت دون زوج وأفتخر بذلك».

«أمر جيد بالنسبة لك، عرفْتُ دائما أن الارتباط بكوكس خطأ».

«لولا الهدية، ربما وفيت بالعهد، حين عاد بيلي بيجلو بتلك الرزمة من كيب كود، لم أستطع مقاومة إلقاء نظرة خاطفة، لا يفترض أن تفتح العروس هداياه قبل العرس، لكنها كانت هدية خاصة، وبمجرد أن فتحتها، عرفت أن الزواج لن يكتمل».

«ماذا كان في العلبة؟»

«اعتقدْتُ أنك تعرف».

«لم أسأله قط».

«أعطاني كرة أرضية، كرة العالم».

«كرة أرضية؟ ما الخاص جدا في ذلك؟»

«لم تكن الهدية يا والت، كانت الكلمة التي أرسلها معها».

«ولم أر ذلك أيضًا».

«جملة واحدة، كانت كل شيء. «حيث تكونين أكون معك»، قرأْتُ تلك الكلمات، وتمزقت، كان هناك رجل واحد لي، حبيبي، إذا لم أكن له، لن أتسكع مع بدائل ومقلدين حقراء».

وقفت هناك تتذكر تلك الكلمات وحشود وسط المدينة يمرون بنا. هزت الريح حافة قبعتها الخضراء المصنوعة من اللباد، وبعد لحظة بدأت عيناها تمتلئان بالدموع. وقبل أن تتمكن من الدخول في الجد، انحنيْتُ وجمعت أشياءها، وقلت: «لندخل يا مسز ويذرسبون. أشتري لك غداء، ثم نطلب زجاجة من النبيذ ونقضي وقتا طيبًا».

أعطيت عشرة دولارات لمسؤول القاعة عند الباب وأخبرته بأنني أريد موقعًا خاصا، هز كتفيه وأوضح أن كل الطاولات الخاصة محجوزة، وهكذا سحبت عشرة أخرى من محفظتي. كان المبلغ كافيا ليحدث إلغاء غير متوقع، وبعد أقل من دقيقة قادنا أحد مرؤوسيه خلال المطعم إلى الخلف، حيث أجلسنا في مختلي مريح مضاء بالشموع ومؤثث بمجموعة من الستائر القطيفة الحمراء لتحجبنا عن الزبائن الآخرين. كان يمكن أن أفعل أي شيء لأثير إعجاب مسز ويذرسبون في ذلك اليوم، ولا أظن أن أملها خاب. رأيت وميض البهجة في عينيها ونحن نستقر في مقعدينا، وحين أخرجت ولاعتي الذهبية التي عليها الحروف الأولى من اسمي لأشعل لها سيجارتها الشيسترفيلد، بدا فجأة أنها دهشت لأن والت الصغير لم يعد صغيرًا.

قالت: «تسير الأمور معنا بشكل جيد، أليس كذلك؟»

قلت: «ليست سيئة. مررْتُ بظروف صعبة جدا منذ رأيْتِني آخر مرة».

تحدثنا في مواضيع شتى، لف كل منا على الآخر في الدقائق القليلة الأولى، لكن الأمر لم يستغرق وقتا طويلاً لنشعر بالارتياح

مــرة أخــرى، وحين دخــل النادل بالقائمـــة، كنا نتحــدث عن الأيام الخوالي. وتبين أن مسز ويذرسبون تعرف عن شهوري الأخيرة مع الأســتاذ أكثر مما أظن. قبل موته بأسبوع، بعث إليها برسالة طويلة من الطريق، وباح لها بكل شيء: نوبات الصداع، نهاية والت الولد العجيب، وخطة الذهاب إلى هوليوود لأصبح نجمًا سينمائيا.

قلْــتُ: «لا أفهــم. إذا كانت العلاقة بينك وبين الأســتاذ منتهية ما معنى أن يكتب لك رسالة؟».

«لم تكن العلاقة بيننا منتهية، فقط لم نكن لنتزوج، هذا كل ما في الأمر».

«لم أفهم بعد».

«كان يموت يا والت، تعرف ذلك، لابد أنك كنت تعرف؛ اكتشــف السرطان بعد فترة قليلة من اختطافك، ورطة، أليس كذلك؟ حديث عن الجحيم، حديث عن أربطتك القاسـية. كنا نهرول في ويتشـيتا نحاول توفير النقــود لنحررك، ويصيبه مرض مميت، هكذا بدأ الحديث عن الزواج في البداية، تحمسْتُ للزواج منه، كما ترى، لم أبالِ بالمدة التي يعيشها، أريد فقط أن أكون زوجته، لكنه لم يوافق، وقال: 'تتزوجينني، تتزوجيــن جثة. فكري في المســتقبل يا ماريون'- ربمــا قال لي تلك الكلمات ألف مرة. 'فكري في المســتقبل يا ماريون. كوكس ليس سيئًا جدًا. يعطينا النقود لنخلص والت، وتعيشين في رخاء بقية أيامك؛ إنها صفقة جيدة يا أخت، وستكونين حمقاء إذا لم تنتهزيها'».

«يا ربي، كان يحبك حقا، أليس كذلك؟ أقصد أنه كان يحبك بقوة حقا».

«أحبَّنا كلينا يا والت، بعد ما حدث لأيسوب والأم سيوكس، كنت أنا وأنت كل عالمه».

لم تكن لدي نية لأحكي لها كيف مات، أردْت أن أجنبها التفاصيل العنيفة، ونجحت خلال تناول المشروبات أن أحجب التفاصيل عنها- لكنهـا ظلت تضغط عليَّ لأحكي لها عـن الجزء الأخير من الرحلة، أو أوضــح ما حدث لنا بعد الوصول إلــى كاليفورنيا. لماذا لم نذهب للعمل في السينما؟ المدة التي قضاها على قيد الحياة؟ لماذا أنظر إليها بتلــك الطريقة؟ بدأتُ أحكي لها كيف اســتغرق في نومه بهدوء ذات ليلة، لكنها كانت تعرفني جيدًا بدرجة تجعلها لا تقبل ذلك؛ نظرت إليَّ أربع ثوانٍ تقريبا وحين فهمتْ أنني أخفي شيئًا، لم يعد ادعائي مجديًا؛ وهكذا حكَيت لها. حكيت لها القصة البشعة كلها، وتدريجيا تسلل إليَّ الهلع مرة أخرى. لم أترك شيئًا. من حق مسز ويذرسبون أن تعرف، وبمجرد أن بدأتُ، لم أتوقف. أتحدث وتبكي، وأشاهد مكياجها يتلطخ والمسحوق يتدفق على وجنتيها والكلمات تتساقط مني.

حين وصلْتُ إلى النهاية، فتحْتُ ســترتي وســحبت المسدس من جـراب ملفوف حول كتفي. أمســكته في الهواء لحظــة أو اثنتين ثم وضعْتُــه علــى الطاولــة بيننا، وقلت: «هذا هو، مســدس الأســتاذ، لتعرفي شكله فقط».

قالت: «والت المسكين».

«تافه مسكين، لم يبق معي غيره».

حدقتْ مســز ويذرســبون في المســدس الصغير بمقبضه البلوط لعشــر ثــوان أو اثنتــي عشــرة ثانية. ثم، بتردد شــديد، مــدت يدها

ووضعتها عليه. اعتقدت أنها ستلتقطه لكنها لم تفعل، أبقته في موضعه وأخذت تنظر إلى أصابعها وهي تقبض على المسدس، وكان لمس ما لمسه الأستاذ يجعلها تلمسه مرة أخرى.

وأخيرا قالت: «ما كان يمكن أن تفعل غير ما فعلْتَ».

«خذلْتُه بتصرفي، توسل لأسحب الزناد، ولم أستطع. آخر أمنياته- أدرْتُ له ظهري وجعلته يسحب الزناد بنفسه».

«تذكر الأوقات الطيبة، ذلك ما قاله لك».

«لا أستطيع، قبل أن أصل إلى الأوقات الطيبة، أتذكر ما كان عليه حين طلب أن أتذكرها، لا أستطيع الاقتراب من ذلك اليوم الأخير، ولا أستطيع أن أعود كثيرًا إلى الوراء لأتذكر أي شيء قبله».

«انس المسدس يا والت، تخلص من هذا الشيء اللعين وانس الماضي».

«لا أستطيع. إذا فعلْتُ ذلك، يضيع الأستاذ إلى الأبد».

نهضتْ من مقعدها وتركت الطاولة، لم تقل إلى أين تذهب، ولم أسأل، صارت المحادثة ثقيلة جدا، بشعة جدا لكلينا، لم نكن لننطق بكلمة أخرى دون أن نصاب بالجنون. أعدْتُ المسدس إلى الجراب ونظرت إلى ساعتي، الساعة الواحدة. لدي وقت كاف قبل الموعد مع ديكسي. ربما تعود مسز ويذرسبون، وربما لا تعود. بطريقة أو أخرى، سأبقى جالسًا هناك وأتناول غدائي، وبعد ذلك أثب إلى فندق رويل بارك وَأقضي ساعة مع حبيبتي الجديدة، أتقلب على السرير وساقيها الحريريتان تلتفان حول خصري.

لكن مسز ويذرسبون لم تنصرف، ذهبت فقط إلى غرفة السيدات لتجفف دموعها وتستعيد رونقها، وحين عادت بعد عشر دقائق تقريبًا، كانت قد وضعت طبقة جديدة من أحمر الشفاه وأعادت تزيين رموشها؛ كانت عيناها لا تزالان حمراوين حول الحواف، لكنها ابتسمت لي ابتسامة رقيقة حين جلستْ، ورأيْتُ أنها مصممة على دفع المحادثة إلى موضوع مختلف.

قالت، وهي تأخذ قضمة من الجمبري: «وهكذا يا صديقي، ما حال التحليق هذه الأيام؟»

قلت: «محفوظ في النفتالين. تلاشت الرشاقة، وتدريجيًا بعْثُ الأجنحة بالفتات».

«ولا تشعر برغبة في أن تعطيه جولة أخرى؟»

«ليس للمعتوهين في كالامازو»[1].

«كان الصداع سيئًا جدا، أليس كذلك؟»

«لا تعرفين معنى سيئ يا حلوتي، نتحدث هنا عن صدمات بتيار كهربي شديد، حروق شديدة تهدد الحياة».

«غريب. أستمع أحيانا إلى محادثات- تعرف- وأنا أجلس في قطار أو أسير في الشارع، أسمع نتفًا. يتذكر الناسُ يا والت، الولد العجيب أثار ضجة، ولا يزال أناس كثيرون يفكرون فيك».

«أجل، أعرف، إنني أسطورة محيرة؛ المشكلة أنه لا أحد يصدقها الآن، أعرف الأحاديث التي تقصدينها، اعتدْتُ أيضًا أن

(١) كالامازو: مدينة جنوب غرب ميتشجان.

أسـمعها، تنتهي دائما بجدل، يقول رجل إنها جدل، ويقول الآخر قد لا تكون جدلاً، وبسـرعة ينزعجان بشـدة ويتوقفان عن الكلام. لكن ذلك كان منذ فترة، ما عدت تسـمعين ذلـك كثيرًا، يبدو وكأن الأمر كله لم يحدث».

«منذ عامين تقريبًا نشـر مقال عنك في مكانٍ ما، نسـيت اسـم الصحيفة. والت الولد العجيب، الفتى الذي أثار مخيلة الملايين. ماذا حدث له، وأين هو الآن؟ هذا النوع من المقالات».

«سـقط من على وجه الأرض، هذا ما حدث له، حملته الملائكة عائدة به من حيث أتى، ولن يراه أحد مرة أخرى».

«إلا أنا».

«إلا أنت، لكنه سر صغير بيننا، أليس كذلك؟»

«كلمة أمٍّ يا والت، ماذا تعتبرني على أية حال؟»

بعد ذلك خفت حدة الأمور قليلا، دخل مساعد النادل ليأخذ أطباق المشهيات، وحين عاد النادل بالوجبة الرئيسية، كنا قد شربنا ونستعد لقنينة ثانية.

قلت: «أرى أنك لم تفقدي تذوقك للأمور».

«الخمور والنقود والجنس، تلك هي الحقائق الأبدية».

«بهذا الترتيب؟»

«بأي ترتيب تحبه، من دونها يكون العالم مكانًا بائسًا وموحشًا».

«متحدثة عن الأمكنة البائسة، ما الجديد في ويتشيتا؟»

«ويتشـيتا؟» وضعتْ كأسها وابتسمت لي ابتسامة مدهشة. «أين تقع؟»

«لا أعرف، أخبريني».

«لا أتذكر، حزمْتُ حقائبي منذ خمس سـنوات ولم أضع قدمًا في تلك البلدة منذ ذلك الوقت».

«من اشترى المنزل؟»

«لـم أبغْه. يعيش بيلى بيجلـو هناك مع زوجتـه الثرثارة وبنتيه الصغيرتين. اعتقدت أن الإيجار سيدر عليَّ مبلغا إضافيا، لكن الغبي المسـكين فقد وظيفته في البنك بعد شهر من انتقالهم إليه، وتركته له مقابل دولار في العام».

«لابـد أن الأمـور طيبة معـك إذا كان باسـتطاعتك أن تتحملي ذلك».

«انسـحبت مـن السـوق فـي الصيـف السـابق علـى الانهيار الاقتصادي، شـيء ما له علاقة برسائل الفدية، وتسليم النقد، ونقاط الهبوط - مشـوش كله قليلا الآن، وتبين أنه كان أفضل ما حدث لي على الإطلاق، شقاؤك أنقذ حياتي يا والت. بصرف النظر عما كنت أملكه، أمتلك عشرة أضعافه الآن».

«لمـاذا تقيمين في ويتشـيتا بكل هذه الثـروة، صحيح؟ منذ متى انتقلت إلى شيكاجو؟»

«أنا هنا في عمل، سأعود إلى نيويورك صباح الغد».

«في الشارع الخامس[1]، أراهن».

«رهانك صحيح، يا مستر رولي».

«عرفتُ ذلك في الثانية التي رأيتك فيها، تبدين ثرية جدا الآن. للثروة رائحة خاصة، إنها تبعث عطرًا جميلاً، أليس كذلك؟»

كانت مسز ويذرسبون القديمة نفسها، لا تزال تحب الشراب، ولا تزال تحب الحديث عن المال، وبمجرد أن تفتح زجاجة وتقودها إلى موضوعها المفضل، يمكنها أن تتفق مع أي رأسمالي يدخن السيجار مثل دادي ورباكس[2]. قضيت بقية تناول الوجبة الرئيسية وهي تحدثني عن الصفقات والاستثمارات، وحين رفعت الأطباق مرة أخرى وعاد النادل بقائمة الحلوى، طقطق شيء ما، ورأيت تألق ذهنها، كانت الثانية إلا ربعا في ساعتي. مهما يكن أنوي الخروج خلال نصف ساعة.

قالت: «إذا أحببت، أكون سعيدة بأن أوفر لك مكانًا».

«مكان؟ أي مكان؟»

«تكساس. حصلت على حفارات متطورة، وأحتاج إلى شخص يشرف على الحفر».

«لا أعرف شيئا عن البترول».

---

(١) شارع رئيسي في مانهاتن، يفصل الجانب الشرقي عن الغربي.
(٢) شخصية خيالية في القصة المصورة «آني اليتيمة الصغيرة». ظهر أول مرة في ١٩٢٤.

«أنت ذكي، ستفهم الأمر بسرعة، انظر إلى التقدم الذي أحرزته بالفعل، ملابس رائعة، مطاعم فاخرة، نقود في جيبك. قطعْتَ طريقا طويـلا، يا رفيق، ولا تظن أنني لم ألاحـظ تقدمك في النحو، لم تعد الشخص الذي يكرر كلمة 'ليس'[1] طوَال الوقت الذي قضيناه معًا».

«أجل، عملت بجدية على ذلك، لم أعد أرغب في أن أبدو جاهلاً، وهكـذا قرأت بعـض الكتب وجددت معجمي، تصـورت أنه آن أن أخرج من البالوعة».

"تلـك هي قضيتي، تسـتطيع أن تفعل ما تريـد، مادمت عزمت على أمر، لا أحد يعرف النجاح الذي يمكن أن تحققه، فكر يا والت، تعال معي، وبعد عامين أو ثلاثة سنكون شريكين".

كانت موافقة صعبة، لكن بمجرد أن اسـتوعبت مديحها سـحبت سـجائري ماركة الجمل وهززت رأسي، وقلت: "أحب عملي. لماذا أذهب إلى تكساس وأنا أحصل على كل ما أريد في شيكاجو".

"لكنه عمل خطأ، هذا هو السـبب، ليس هناك مسـتقبل في لعبة العسكر واللصوص، إذا واصلت هذا العمل تموت أو تسجن قبل أن تبلغ الخامسة والعشرين".

"أية لعبة عسكر ولصوص؟ إنني نظيف مثل أظافر الجراح".

"أكيد، والبابا ثعبان ساحر هندي بقناع".

---

(١) ليس ain't: اسـتخدام عامي للنفي، وكان يكثر من استخدام هذه الكلمة في الأجزاء الأولى من الرواية.

جاءت الحلوى بعد ذلك، وقضمنا فطائرنا في صمت، كانت طريقة سيئة لإنهاء الوجبة، لكننا كنا عنيدين بشكل لا يجعلنا نتراجع، في النهاية، تحدثنا قليلاً عن الطقس، وأدلينا بملاحظات غير مهمة عن الانتخابات القادمة. انتهى الحماس وما كان ليعود. لم تكتف مسز ويذرسبون بالغضب مني لرفضي عرضها، جمعتنا الصدفة مرة أخرى، ويمكن لأخرق فقط أن يرفض نداء القدر بمثل هذا التهور، لم تكن مخطئة في أن تشعر بالاشمئزاز مني، لكن كان لي مسار أتبعه، وكنت مغرورًا بدرجة تجعلني لا أفهم أن مساري مسارها نفسه، لولا الرغبة الشديدة في أن أفر وأغرس عضوى في ديكسي سينكلير، لاهتممت بالبحث عن الروح في ذلك اليوم. هكذا تجري الأمور. بمجرد أن تكون لشهوتك اليد العليا تفقد القدرة على التفكير.

لم نتناول القهوة، وحين أتى النادل بالشيك إلى الطاولة في الثانية إلا عشر دقائق، اختطفته من بين أصابعه قبل أن تمسك به مسز ويذرسبون.

قلت: "دعوتي".

"حسنا، مستر مهم. تباهَ إذا كان ذلك يسعدك، لكن إذا عقلت في أية لحظة، لا تنس مكاني. ربما تعود إلى رشدك قبل فوات الأوان"، وأثناء ذلك مدت يدها في كيسها، وأخرجت كارت عملها، ووضعته برقة في راحتي، وأضافت: "إذا كنت مفلسا حين تتذكرني، اطلب فقط من مشغل التليفون أن يحملني تكلفة المكالمة".

لكنني لم أتصل قط، وضعت الكارت في جيبي، بنية تامة للحفاظ عليه، لكن حين بحثت عنه قبل الذهاب إلى السرير في تلك الليلة لم أعثر عليه في أي مكان، ونظرا لما تعرض إليه البنطلون بعد الغداء مباشرة من شد وجذب، لم يكن من الصعب تخمين ما حدث، وقع الكارت، وإذا لم تكن خادمة الغرفة وضعته في سلة القمامة، فهو ملقى على الأرضية في الجناح ٤٠٩ في فندق رويل بارك.

كنت قـوة لا يوقفهـا شــيء في تلك الأيـام، أتغلب علــى كل ما يقابلني، وكنت أســتقل القطار الســريع بتذكرة ذهاب فقط إلــى مدينـــة القطط الســمان، بعد أقل من ســنة من غدائي مع مســز ويذرســبون، حققت نقلتي التالية الكبيــرة حين ذهبت إلى أرلينجتون في عصــر أحد الأيام شــديدة الحرارة في أغســطس ووضعت ألف دولار فــي مخاطرة شــديدة لأفوز بالســباق الثالــث، وإذا أضفت أن الحصان كان يلقب بـ"الولــد العجيب"، وإذا أضفت أيضًا أنني كنت لا أزال أســيرًا لخرافاتــي القديمة، فمن غير المعقول أن يســتوعب القارئ الســبب الذي يجعلني أراهن على مقامــرة لا أمل فيها، قمت عادة بأشــياء مجنونة في تلك الأيام، وحين وصل الرهان على المهر في منتصف المسافة إلى أربعين إلى واحد، عرفتُ أن في السماء ربا وأنه يشجع جنوني.

مدنــي الفــوز بالضربة التــي أحتاجها لتحقيق رغبتــي الكبرى، واندفعــت فجأة لأحقق حلمي. طلبت استشــارة خاصة مع بينجو في شقته المستقلة التي تطل على بحيرة ميتشجان، وبمجرد أن طرحت عليــه الخطة وتغلب على صدمته الأولى، أعطاني الضوء الأخضر علــى مضض؛ ليس لأنـــه كان يعتقد أن الاقتراح تافــه، لكنني أظن أن أملــه خــاب في لتدنــي طموحــي، كان يهيئني لمــكان في دائرة النفــوذ، وهــا أنا أخبره بأنني أريد أن أشــق طريقــي الخاص وأفتح ملهى ليليا يمكن أن يشغل طاقاتي لأستبعد كل شيء آخر، رأيت أنه ربمــا اعتبر الأمر خدعــة، وكان عليَّ أن أحرص على عدم الوقوع في ذلك الشــرك بحركة خيالية، لحســن الحظ، كان لساني موفقا في ذلك المســاء، وبتوضيح المزايا الكثيرة التــي تعود عليه فيما يتعلق بالأرباح والمتعة، أقنعته في النهاية.

قلـت: «يمكن أن تغطي الأربعون ألفـا التي معي الصفقة، يمكن لرجـل آخر في موقفـي أن يرفع قبعته ويقول إلـى اللقاء، لكنني لا أتصـرف بهذه الطريقة. أنت صديقي يـا بينجو، وأريد أن يكون لك نصيـب فـي الأمر، لن تسـاهم بنقود، لـن تقوم بعمـل، ولن تتحمل مسئوليات، لكن من كل دولار أكسبه أعطيك خمسة وعشرين سنتا، الحـق حق، صحيح؟ أعطيتنـي فرصتي، والآن أنـا في وضع أرد فيـه الجميـل. يجب أن يكـون للإخلاص مكان في هـذا العالم، ولن أنسـى من أين جاء حظي، ولن يكون ملهى رخيصا للعامة، أتحدث عن سـاحل الذهب[1] بـكل فخامته؛ مطعم راق بـه طاهي ضفادع، وعروض رائعة، وفتيات جميلات يظهرن فجأة في ملابس ملتصقة في أجسادهن. تسـتثار بمجرد الدخول هناك يا بينجو، يخصص لك أفضـل مقعد في المكان، وفي الليالي التي لا تأتي فيها تبقى طاولتك خاوية- بصرف النظر عن عدد المنتظرين على الباب».

سـاومني حتى خمسين في المائة، لكنني كنت أتوقع بعض الأخذ والـرد ولم أجعل من الأمر قضية. كان المهـم أن أحظى بمباركته، وحظيـت بها بإدهاشـه، مفنـدًا دفاعاته باسـتمرار بموقفـي الودى المجامل، وفي النهاية، فقط ليظهر رقيه، عرض أن يسـاهم بعشـرة آلاف إضافية ليضمن إنشـاء المكان بشـكل صحيح، لم أبال. لم أكن أريد إلا ملهاي الليلي، وبخصم الخمسـين في المائة الخاصة ببينجو من العائد، ظللتُ أتقدم، كانت هناك فوائد عديدة في أن يكون شريكًا لي، وما كان لي أن أخدع نفسـي بالاعتقاد بأنني يمكن أن أسـير في طريقي دونه. كان النصف الذي أدفعه له ضمانا بحمايتي من أومالي (وقد صار بالطبع الشـريك الثالث) ومسـاعدتي في ألا يقتحم رجال

---

(١) ساحل الذهب: منطقة سكنية راقية في شيكاغو على طول بحيرة ميتشياجن.

الشـرطة المكان. نظـرا لارتباطاته بمهربي الخمور في شـيكاجو، وشـركات المغاسـل التجارية، والوكالات المحليـة للممثلين، لم تبد خسارة خمسين في المائة حلا جائرًا على أية حال.

سميت المكان مطعم مستر فيرتيجو، كان في قلب المدينة بالضبط في القسم الغربي وشمال شارع لاسال، وكانت يافطته النيون البراقة تتحول من القرنفلي إلـى الأزرق إلى القرنفلي كراقصة تتناوب مع رجاجـة الكوكتيل في سـماء الليل. كان إيقـاع رومبا هذه الأضواء يسرع ضربات قلبك ويدفئ دمك، وبمجرد أن تدرك هذا الاضطراب الضئيل في نبضك، لا ترغب في أن تكون إلا حيث تكون الموسيقى. في الداخل، كان الديكور مزيجًا متنوعًا، نوعًا أنيقًا من رفاهية المدن الكبيـرة ممتزجا بإيماءات سـاحرة وفتنة نُزُلٍ بسـيط. عملت بجدية لخلق هذا الجو، وخططْـتُ كل صغيرة وكبيرة بأدق التفاصيل: من أحمر الشـفاة على شـفتي فتاة القبعات إلى لون أطباق العشـاء، من تصميم قوائم الطعام إلى الجوارب في قدمي عامل البار. كانت هناك مسـاحة لخمسـين طاولة، ومسـاحة كبيرة للرقص، وخشبة مسرح مرتفعة، وبار طويل من الماهوجني بطول جدار؛ أنفقت خمسين ألفا كاملة لأنفذه كما أحب، وحين فُتِح المكان في النهاية في ٣١ ديسمبر ١٩٣٧، كان مكتمـلاً تمامًـا. افتتحته بواحدة مـن الحفلات العظيمة بليلة رأس السنة في تاريخ شيكاجو، وبحلول صباح اليوم التالي كان مستر فيرتيجو على الخريطة، وعلى مدى السنوات الثلاث والنصف التاليـة كنـت هناك كل ليلة، أتجـول بين الزبائن بسـترتي البيضاء وحذائـي الجلدي الفاخر، ناشـرًا البهجة بابتسـامات الزهو وكلمات

سريعة، كانت بقعة هائلة بالنسبة لي، وأحببت كل دقيقة قضيتها في ذلك المركز الصاخب، لو لم أرتبك وأدمر حياتي، ربما كنت لا أزال هناك اليوم. لم أقض فيه إلا ثلاث سنوات ونصف. كنت مسؤولاً مائة في المائة عن سقوطي، لكن معرفة ذلك لا يخفف الشعور بالألم حين أتذكر ذلك؛ في القمة دائما حتى تعثرت، وانتهى الأمر نهائيا بالنسبة لي، مجرد بجعة مدهشة غطست في طي النسيان.

لكن دون أسف، غامرت بمالي، ولن أنفي ذلك. تحول الملهى إلى البؤرة الساخنة الأولى في شيكاجو، وبطريقتي البسيطة كنت مشهورًا مثل أي شخص عظيم الشأن يأتي إلى هناك. عاشرت قضاة وأعضاء مجلس المدينة ولاعبي بيسبول، وحدث ولا حرج عن فتيات الاستعراض وفتيات الكورس للاختبار بعروض حية أقدمها في الحادية عشرة كل ليلة، ولم أفوت فرصة للانهماك في رياضات غرفة النوم. كنت أنا وديكسي لا نزال رفيقين حين فتح مطعم مستر فيرتيجو، لكن استمراري في المجون جعل صبرها ينفد، وفي خلال ستة أشهر انتقلت إلى مكان آخر. ثم جاءت سالي، ثم جويل، ثم أخريات كثر: سمراوات فارعات الطول، حمراوات الشعر لا يتوقفن عن التدخين، وشقراوات بأعجاز ضخمة. في وقت ما عاشرت فتاتين في وقت واحد، ممثلتين سابقتين تدعيان "كورا" و"بيلي"؛ أحببت الاثنتين بالقدر نفسه، وكانت كل منهما تحب الأخرى بقدر ما يحبانني، وبالاندفاع معًا نجحنا في إنتاج تنويعات شيقة على ألحان قديمة. من وقت لآخر، قادتني عاداتي إلى مشاكل طبية (الإصابة بالسيلان، الإصابة بقمل العانة) لكن لم يبعدني شيء عن مهامي وقتًا طويلاً جدا. ربما كانت طريقة فاسدة للحياة، لكنني سعدتُ بالطريقة التي كنت أعامل بها، وكان طموحي الوحيد أن تبقى الأمور على حالها. ثم، في سبتمبر ١٩٣٩، بعد ثلاثة أيام فقط

من غزو الجيش الألماني لبولندا، جاء ديزي دين[1] إلى مطعم مستر فيرتيجو وبدأ كل شيء ينهار.

علـيَّ أن أعود لأفسـر ذلك، أعود تمامًا إلى طفولتي السـيئة في سـانت لويس، حيث وقعت في غرام البيسـبول، وقبل أن أشب عن الطوق كنت من المتحمسـين لفريق كاردينال، متعصبًا جدا له. وقد ذكرت مدى نشـوتي حين فازوا ببطولة سـنة ٢٦، لكن ذلك لم يكن إلا مثـالاً على إخلاصي، وبعد أن علمني أيسـوب القراءة والكتابة، اسـتطعت متابعـة لاعبيه في الصحـف كل صباح. مـن أبريل إلى أكتوبـر لم يفتنـي ملخص مباراة قط، ويمكنني أن أسـرد متوسـط ضربـات كل لاعب في الفرقـة، من البارزين مثـل فرانكي فريش وبيبـر مارتين إلى أقل اللاعبين شـأنا على مقاعد البدلاء. واسـتمر هذا في السـنوات الطيبة التي قضيتها مع الأسـتاذ يهودي، واستمر أيضا في السـنوات السيئة بعد ذلك، عشـتُ مثل ظل، أجوس البلاد بحثًا عن الخال سـليم، لكن بصرف النظر عن سواد الأمور بالنسبة لي، بقيت مع فريقي، فازوا ببطولة سـنة ٣٠ وسنة ٣١، وقدم هذان الانتصاران الكثير لرفع روحي المعنوية، واسـتمراري في احتمال كل المشاكل والمحن التي ألمت بي في ذلك الوقت، مادام كان فريق الكاردينال يفوز، يبقى شيء صحيح في علاقتي بالعالم، ولم يكن من الممكن أن أقع في حالة يأس تام.

هنا يدخل ديزي دين القصة؛ هبط الفريق إلى المركز السـابع سنة ٣٢، لكن ذلك لم يكن مهما تقريبًا. كان «دين» المبتدئ الأبرز والأكثر لفتا للأنظار الصاعد بشـكل يتفوق على كل الكبار، حول النادي الذي كان في وضع سيئ إلى سيرك رائع. مزهوًا ومرحًا كعادته كان، دعم

(١) ديزى دين Dizzy Dean (١٩١١-١٩٧٤): لاعب بيسبول أمريكي.

ذلك الريفي الســاذج مفاخره ببعض أجمل الضربات في ذلك الجانب من الســماء، كانت ذراعه المرنة تطلق قاذفات؛ وكان تحكمه غريبًا؛ وكانــت حركاتــه حركات آلة مدهشــة مــن ذراعين وســاقين، تتميز بالقوة، شــيئًا جميلاً يستحق الرؤية. وحين عدت إلى شيكاجو واستقر بــي المقام في حماية بينجو، كان ديزي نجمًا مرموقا، قوة عظيمة في المشهد الأمريكي؛ أحبه الناس لاندفاعه وموهبته، وتحطيمه المجنون للغة الإنجليزية، ومشــاجراته، وتهريجــه الصبياني والإثارة اللعينة، وأحببته أيضًا، أحببته بقدر ما أحبَّه أي شــخص في العالم، ومع زيادة الراحة في الحياة بالنسبة لي في ذلك الوقت، كنت في وضع يسمح لي برؤيــة فريق الكاردينال في الملعب كلما جاءوا إلى المدينة. في ســنة ٣٣، الســنة التي حطم فيها دين الرقم المسجل بإطلاق ٧٠ ضربة في مبــاراة، عاد الفريق مرة أخرى فريقًا من الطراز الأول. ضم الفريق إلى القائمة لاعبين جددًا، ومع وجود ســفاحين مثل «جوى ميدويك» و«ليو دوروشــير» و«ريب كولينز» حوله ليعجلوا الســرعة، بدأت عصابة مصنع الغاز تتبلور. وتبين أن سنة ٣٤ سنة مجدهم، ولا أظن أنني استمتعت بموسم بيسبول قدر استمتاعي بذلك الموسم. كسب بول الشقيق الأصغر لديزي تسع عشرة مباراة، وفاز ديزي بثلاثين، وكافح الفريق في عشــر مباريات ليتجاوز فريق الجاينت ويكســب البطولة. كانت السنة الأولى التي تذاع فيها بطولة العالم في الراديو، واستمعت إلى كل المباريات الســبع التي أقيمت في شــيكاجو. هَزم ديزي فريق التيجــر في المبــاراة الأولى، وحيــن وضعه «فريــش» على مقاعد البــدلاء، في المبــاراة الرابعة، تلقى الأخرق فجــأة رمية خطيرة في الرأس وسقط فاقد الوعى، وأعلنت العناوين الرئيسية في اليوم التالي: **لم تظهر أشــعة إكس على رأس دين وجود أي خلل.** عاد إلى الملعب عصر اليــوم التالي لكنه عاد فاقد التركيز، وبعــد يومين فقط، منع ديترويت

من تسـجيل أية أهداف ليفوز فريقـه ١١- صفر في المباراة النهائية، سـاخرًا من ضاربـي التيجر كلما ترنحوا وفشـلوا في مواجهة كراته السـريعة. ابتكرت الصحف أسـماء متنوعة لذلك الفريق: «العصابة الراكضة»، «مشاغبو النهر» من الميسيسبي، «الكرادلة الهادرون». كان أولئك العاملون في شـركة الغـاز يحبون الإثارة، وحين خرجت نتيجة المباراة النهاية عن السيطرة في الجولات الأخيرة، رد مشجعو التيجر برشـق ميدويك لعشـر دقائق بوابل من الفواكه والخضروات في يسـار الملعب. كانـت الطريقة الوحيدة لإنهـاء البطولة أن يدخل الحكـم لانديس، عضو لجنة البيسـبول، ويدفع ميدويك خارج الملعب في الأشواط الثلاثة الأخيرة.

بعد سـتة أشـهر، كنت أجلس في مقصورة أنـا وبينجو والأولاد حين افتتح «دين» الموسـم ضد فريق الكبز في شيكاجو. في الجولة الأولى، مع طرد اثنين ورجل على القاعدة، أرسل فريدي ليندستروم الرامـي المنظف لنـادي كبز ضربة حادة شـريرة إلـى المنتصف أصابت ديزي في السـاق وأسـقطته على الأرض؛ اختل نبض قلبي حين رأيت حاملي النقالـة يجرون ويحملونه خارج الملعب، لكن لم يصب بعاهة دائمة، وبعد خمسـة أيام عاد إلى الحلبة في بيتسـبرج، حيث قذف خمس ضربات سـاحقة ليحقق أول فوز له في الموسـم، واصل ليحقق سـنة أخـرى ممتازة، لكن كبز كان فريق القدر سـنة ٣٥، وبكسـر سلسـلة من واحد وعشـرين فـوزًا متتاليًا فـي نهاية الموسـم، اندفع خلف فريق الكاردينال وانتزع الراية، لا أستطيع أن أقول: إنني اهتممت كثيرًا جدا. جئت المدينة من أجل الكبز، وما كان طيبا لشـيكاجو كان طيبا للشغل، وما كان طيبًا للشغل كان طيبًا لي. بدأت المقامرة في تلك البطولة، وبمجرد أن هدأ الأمر، ناورت بذلك الوضع القوى الذي كافأني به بينجو بعريني الخاص.

مـن ناحية أخرى، في تلك السـنـة بدأ نجـاح ديزي وإخفاقه يؤثر علـيَّ بطريقة شـخصية جدا. ما كنت لأسـمي ذلك هوسـا في ذلك الوقت، لكن بعد مشـاهدته يسـقط في الجولة الأولى من الافتتاح في «ريجلي»- بسـرعة بعد اصطـدام جمجمته في بطولـة ٣٤- بدأت أشـعر بغيمة تتجمع حوله. لم أهتم حين أصيب ذراع أخيه سنة ٣٦، لكن كان الأسوأ ما حدث مباراة ضد فريق الجاينت في ذلك الصيف حين رمى برجس وايتهيد كرة حادة أصابته فوق أذنه اليمنى مباشرة، كانت الكرة قوية جدا حتى إنها ارتدت في يسار الملعب على طرف راية. سـقط «دين» مرة أخرى، ورغم أنه اسـتعاد وعيه في غرفة الملابس بعد سـبع دقائق أو ثمان، كان التشخيص المبدئي كسرًا في الجمجمة. وتبين أنه ارتجاج سيئ في المخ، جعله مشوش الذهن لمدة أسبوعين، وكان قيد أنملة الطريق الآخر، وكان يمكن للرجل الكبير أن يقطـف زهور الربيع بدلاً من أن يواصل الفوز بأربع وعشـرين مباراة في الموسم.

في الربيع التالي، اسـتمر رجلي يلعن ويتشاجر وينهض، ولم يكن ذلك يحدث إلا لأنه لا يعرف الأفضل. أثار مشاجرات برمياته القوية، وطلـب منـه التوقف مباراتيـن متتاليتين وقرر أن ينظـم إضرابا في وسط الملعب، وحين وقف في وليمة ووصف الرئيس الجديد للاتحاد بالمحتال، أدت المشـاجرات الناجمة عن ذلك إلى ما يشـبه مسـرحًا رائعًا لرعاة البقر، وخاصة بعد أن رفض ديزي أن يضع توقيعه على تراجع رسمي عن الاتهام، وقال «لن أوقع على أي شيء»، ودون هذا التوقيع لـم يكن أمام فورد فريك إلا أن يتراجع ويلغي إيقاف «دين». كنت فخورًا به لتصرفه مثل أحمق بشكل مبالغ فيه، لكن الحقيقة كان الإيقـاف يمكـن أن يمنعه من مباراة النجوم، وإذا لم يشـارك في ذلك الاستعراض التافه، ربما استطاع أن يؤجل ساعة الهلاك قليلاً.

لعبوا في واشـنطن في تلك السنة، وبدأ ديزي مع الاتحاد القومي. انطلق في أول جولتين بطريقة بارعة، وبعد انتهاء جولتين والدخول في الثالثة، تخلى عن ضربة ساحقة لـ«دي ماجيو» وعن رمية طويلة بهدف محقق لـ«جهريج». وكان التالي إيرل أفريل، وحين رد مدافع كليفيلند الرمية الأولى لدين إلى وسـط الملعب، نزلت السـتارة فجأة علـى أعظـم أيمن في القرن، لم يبدُ الأمر مقلقًـا جدا في ذلك الوقت. اصطدمت الكرة في قدمه اليسرى، وارتدت إلى «بيلي هيرمان» في ثانية، ورماها هيرمان إلى القاعدة الأولى للخروج، حين خرج ديزى من الملعب وهو يعرج، لم ينشغل أحد بالأمر، حتى ديزي نفسه.

كان ذلك الإصبع الشـهير المكسور في القدم. إذا لم يندفع للعودة للعب قبل أن يجهز، ربما كان من الممكن أن يلتئم في الوقت المناسب، لكن فريق الكاردينال كان يبتعد عن سـباق البطولة ويحتاج إليه في وسط الملعب، وأكد لهم الأحمق الساذج أنه على ما يرام، كان يعرج على عكاز، وكان إصبعه وارما بدرجة تجعله لا يسـتطيع أن ينتعل حذاءه، لكنه ارتدى ملابسـه وخرج ورمـى الكرة. مثل كل العمالقة بيـن الرجـال، اعتقد ديزي ديـن أنه خالد، وحتى رغـم أن الإصبع كان يؤلمـه بدرجه لا تجعله يرتكز على قدمه اليسـرى، فقد احتمله طوال الجولات التسع كلها؛ جعله الألم يعدل رميته الطبيعية، وكانت النتيجـة أنه ضغط على ذراعه بشـكل كبير جدا، أصيب بقرحة بعد تلك المباراة الأولى، ثم، ليتفاقم الضرر، واصل الرمي شـهرًا آخر. بعد سـت مرات أو سـبع، سـاءت حالته ولم ينتزع إلا ثلاث رميات فقـط في إحدى بداياته. كان ديـزي يتحرك ببطء، ولم يكن أمامه إلا أن يتوقف ويبتعد عن اللعب بقية الموسم.

ومع ذلك لم يعتقد مشجع في البلاد أنه انتهى، كانت الحكمة السائدة أن شتاء من الكسل والراحة يمكن أن يصلح ما حل به وبحلول أبريل يمكــن أن يعود مرة أخــرى إلى طبيعته القديمة التـــي لا تُهزَم. لكنه كافــح في تدريب الربيــع، ثم، في واحدة مــن المفاجآت الكبرى في تاريخ الرياضة، باعه ســانت لويس إلى نادى كبز مقابل ١٨٥٠٠٠ دولار نقدا وشــخصين أو ثلاثة. كنـــت أعرف أنه لم يكن هناك حب مفقود بين «دين» و«برنش ريكي»، المدير العام لفريق الكاردينال، لكننـــي كنت أعــرف أيضًا أن ريكي لــم يكن من الممكــن أن يبيعه إذا اعتقــد أنه بقي بعض الخلل في ذراعه. كنت في منتهى الســعادة بحضور ديزي إلى شيكاجو، لكن في الوقت نفسه كنت أعرف أيضا أن حضــوره يعنـــى أنه في نهايـــة الطريق، تحققت أســوأ مخاوفي، وفي سن النضج، في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين، انتهى أفضل رامي كرة في العالم.

ويبقــى أنه قدم لحظات رائعة في تلك الســنة مع فريق الكبز، لم يكن عمر مطعم مســتر فيرتيجو إلا أربعة شــهور حين بدأ الموسم، لكنني نجحت في أن أتسلل إلى الملعب ثلاث مرات أو أربعا لأشاهد ديزميســتر ينتزع بضع جولات إضافية من ذراعه المصابة. كانت هنــاك مبــاراة مبكرة ضد الكاردينـــال أتذكرها جيدًا، مبــاراة ثأرية كلاســيكية تؤلب الأعضاء القدامى في الفريق ضد بعضهم البعض، وفاز بتلك المكاشــفة في المكر والدهاء، مشــتتا انتباه الرماة بتشكيلة من أشـــخاص يؤدون مهام متنوعة وضربــات خادعة. ثم، في وقت متأخر من الموســم، وفريــق الكاردينال يتقدم بجديـــة للفوز ببطولة أخرى، أذهل جابي هرتنيت، مدير شــيكاجو، الجميع بإعطاء ديزي

موافقــة على بدء مخاطرة رهيبــة ضد فريق البيرت، كانت المباراة مثيــرة حقا، المتعة واليأس في كل رمية، وأضاف «دين»، ولم يكن لديه ما يقدمه، فوزا لموطنه الجديد. وكاد يكرر المعجزة في المباراة الثانيــة من بطولة العالم لكن فريق اليانــك أرهقوه أخيرًا في الجولة الثامنــة، وحين اســتمر الاعتداء عليه في الجولة التاســعة وأخرجه هرتنيت واســتبدل به رام، ترك ديزي وســط الملعب بأكثر تصفيق دويًا ســمعته في حياتــي، كانت الرابطة كلها واقفــة تصفق وتهتف وتصفر للاعب الكبير، واســتمر الأمر وقتا طويلاً جدًا وكان مدويًا جدًا، وكان بعضنا يذرف الدموع حين انتهى الأمر.

كان ينبغــي أن تكــون هذه نهايته، يأخذ المحارب الشــجاع قوســه الأخيــر ويغرب، كان يمكــن أن اقبل ذلك وأعطيه عذره، لكن «دين» كان أغلــظ من أن يتأثر بذلك، ولــم يلق صخب الوداع إلا أذنا صماء. هــذا ما أغضبنــي: لم يكن ابــن العاهرة يعرف متــى يتوقف. واضعا الكرامة جانبًا، عاد ولعب مرة أخرى لنادي كبز، وإذا كان موســم ٣٨ مثيرًا للشفقة- مع بعض البقع المضيئة التي تناثرت فيه- كان موسم ٣٩ عتمــة خالصة صرفة. كانت ذراعه تؤلمه ويرمي الكرة بالكاد. مباراة بعد أخرى يدفئ مقاعد البــدلاء، واللحظات القصيرة التي يقضيها في الملعب لحظات ارتباك؛ كان قذرًا، أقذر من كلب متشــرد، ليس حتى صورة شاحبة لما كان عليه ذات يوم؛ عانيت من أجله، تأسيت له، لكن في الوقت ذاته اعتقدْتُ أنه أغبى جلف على وجه الأرض.

كانــت الأمور رائعة جدا حيــن دخل مطعم مســتر فيرتيجو في سبتمبر. كان الموسم يوشك على الانتهاء، ومع ابتعاد نادي كبز عن ســباق البطولة، لم يحدث مزيد من الجلبة حين ظهر «دين» في ليلة

جمعــة مزدحمة مــع زوجته ومجموعة من زوجيــن أو ثلاثة، ومن المؤكد أنها لم تكن لحظة لحديث من القلب إلى القلب عن مســتقبله، لكنني قررت أن أذهب إلى طاولته وأرحب به في الملهى. قلت مادا يدي له: «يســرني حضورك يا ديزي. أنا نفســي من ســانت لويس، وأتابعك منذ يوم ظهورك. كنت مشجعك الأول دائما».

قال، قابضًا على يــدي الصغيرة بقبضته الهائلة وصافحني بود: «الســرور من نصيبي أنا يا رفيق». بدأ يطلق واحدة من ابتســاماته الســريعة القاطعــة، حين بدا عليه الارتباك، عبــس لثانية، باحثًا في ذاكرته عن شيء ضائع، وحين لم يتوصل إليه، نظر بعمق في عيني وكأنه يعتقد أنه يســتطيع أن يعثر عليه هناك. وقال: «أعرفك، أليس كذلك؟ أقصد، ليست المرة الأولى التي نلتقي فيها، فقط لا أستطيع أن أعرف أين، في وقت ما في مكان ما، ألست على حق؟»

«لا أظــن ذلك يــا ديزي. ربما رأيتني ذات يــوم في المدرجات، لكننا لم نتحدث من قبل قط».

«خرا. أقســم بأنك لســتَ غريبا عليَّ؛ إنه ألعن شعور في العالم، أوه، حســنا»، هز كتفيه، وابتســم لــي واحدة من ابتســاماته الكبيرة الخرقــاء، «لا يهم، على ما أظن، من المؤكد أنك أقمت ملهى رائعًا هنا، يا صاحبي».

«شكرا يا بطل، الطلب الأول على حسابي، أتمنى أن تقضي وقتًا طيبًا مع أصدقائك هنا».

«نحن هنا لذلك يا رفيق».

«استمتع بالعرض، إذا احتجت أي شيء، نادني فقط».

تصرفت بهدوء بقدر ما أستطيع، وابتعدت وأنا أشعر بأنني عالجت الموقف بشكل رائع تمامًا. لم أتملقه، وفي الوقت ذاته لم أتهمه على تدهور مستواه. كنت مستر فيرتيجو، ابن المدينة اليقظ صاحب اللسان السلس والسلوك الرائع، ولم أكن على وشك أن أترك «دين» يعرف كم كانت محنته تشغلني. كسرت رؤيته على الطبيعة السحر إلى حد ما، وربما كان الطبيعي أن أعتبره مثل أي رجل آخر رائع خذله حظه. لماذا ينبغي أن أهتم به؟ كان «ويزي ديزي» في طريقه إلى النهاية، وبعد وقت قصير جدًا يمكن أن أكف عن التفكير فيه، لكن الأمور لم تسر على هذا النحو، كان «دين» نفسه هو الذي أبقاها حية، وبينما لا يمكن أن أدعي أننا أصبحنا صديقين حميمين، إلا أنه بقى قريبًا جدا بحيث يستحيل أن أنساه، لو انحرف فقط عن الطريق التي كان يفترض أن يسير عليها، ما بدا شيء من هذا بالسوء الذي بدا عليه.

لم أره ثانية حتى بداية الموسم التالي. كنا في أبريل ١٩٤٠، والحرب في أوروبا مشتعلة تمامًا، وعاد ديزي - عاد لتلقي طعنة أخرى عند إحياء مساره المتداعي. حين التقطت الصحيفة وقرأت أنه وقع عقدًا آخر مع نادي كبز، أصبت بغصة تقريبًا وأنا أتناول سندوتش السجق. ممن كان يسخر؟ قال: «ذراع عجوز لم تعد سوطا كما كانت»، لكن يا يسوع، أحبَّ اللعبة كثيرًا جدا بحيث لا يحاول أن يلعبها مرة أخرى. قلت لنفسي: حسنا، أيها الغبي، انظر لو اهتممْتُ. إذا أردْتَ أن تهين نفسك أمام العالم، فهذا شأنك، لكن لا تعتمد عليَّ أن آسف عليك.

وعلى غير توقع، عاد إلى الملهى ذات ليلة وحياني مثل أخ غاب لفترة طويلة. لم يكن «دين» يشرب، ومن ثم لا يمكن أن يكون الشراب هو الذي جعله يتصرف على ذلك النحو، لكن وجهه أضاء

حين رآني، وخلال الدقائق الخمس التالية أعطاني جرعة شاملة من المودة غير المتوقعة. ربما لا يزال متمسكا بفكرة أننا كنا معرفة قديمة، أو ربما يعتقد أنني شخص مهم، لا أعرف، لكن النتيجة أنه كان في أسعد حالاته برؤيتي. كيف أقاوم رجلا مثل هذا؟ فعلتُ كل ما أستطيع لأجمد قلبي عليه، لكنه جاء بهذا الود بحيث لم يكن أمامي إلا أن أستسلم للاهتمام به. لا يزال «دين» العظيم، رغم كل شيء، صديق روحي الغارق في الظلام وأناي البديلة، وبمجرد أن بدأ يتحدث معي بهذا الشكل، عدت فورًا إلى معاناتي القديم.

لا يمكن أن أقول أنه صار يأتي بانتظام إلى الملهى، لكنه كان يأتي إليه بما يكفي على مدى الأسابيع الستة التالية لأن نتحدث حديثا يتجاوز المعرفة العابرة. جاء وحده بضع مرات ليتناول عشاء مبكرًا (مغرقًا كل طبق بمقدار كبير من الصلصة وشرائح اللحم)، وكنت أجلس معه أثرثر وهو يتناول طعامه. تجنبنا الحديث عن البيسبول وجاء معظم حديثنا عن الخيول، وحيث إنني قدمت له فكرتين ممتازتين لاستثمار أمواله، بدأ يسمع نصائحي. لابد أنني تحدثت وقلت له ما أعتقده بشأن استعادته لوضعه السابق، لكن حتى بعد أن ارتبك في بداياته الأولى في الموسم، جالبا الخزي لنفسه كلما دخل الملعب، لم أنطق بكلمة. كنت مغرمًا جدًا به، ومع محاولة التعيس بذل جهد كبير ليحقق نتائج طيبة، لم أجرؤ على أن أصارحه.

بعد شهرين، أقنعته زوجته «بات» بأن ينزل إلى دوري الدرجة الثانية ليبدأ بداية جديدة، لم تكن فكرة أنه يمكن أن يتقدم بشكل أفضل بعيدًا عن الأضواء إلا خدعة رهيبة، حيث لم يتم إلا دعم الوهم بأنه لا يزال هناك أمل له، وحين ذلك عزمت أخيرًا على أن أقول شيئًا، لكن لم تواتني الشجاعة لأندفع بقوة كافية.

قلْـتُ: «ربما حـان الوقت يا ديـزي. ربما حـان الوقت لتتوقف وتتجه إلى المزرعة».

«أجـل»، قال، وهو يبـدو مكتئبًا بأقصى ما يمكن أن يبدو رجل. «ربما تكون محقا. المشكلة أنني لست مناسبًا لشيء إلا رمى كرات البيسبول، علي أن أغادر هذه المرة، وأنا في منتهى السوء، يا والت. أقصد، ماذا يمكن أن يفعل متسكع مثلي مع نفسه؟».

فكرت في أشـياء كثيرة، لكنني لم أبح بشـيء، ثم رحل في ذلك الأسبوع إلى تولسـا(١). لم يسقط قط شخص عظيم هذا السقوط بهذه السرعة. قضى صيفًا طويلاً مخزيًا في اتحاد تكساس، قاطعًا الدائرة القديمة نفسها التي دمرها بالكرات السريعة قبل عشر سنوات. وكان هذه المرة يستطيع بالكاد أن يمسك كرته، ويشتت التافهون والأقزام رمياتـه في كل موضع. بداية قديمـة أو جديدة، كان الحُكْم واضحًا، لكن ديزي اسـتمر يهين نفسه ولم يسـمح للمعاملة الخشنة أن تثنيه، بمجـرد أن يأخذ حمامه ويرتدي ملابسـه ويغادر الملعب، يعود إلى غرفته في الفندق بمجموعة من نماذج السباق ويبدأ الاتصال بوكلائه فـي المراهنات، قمت بعدد من المراهنات له في ذلك الصيف، وفي كل مـرة اتصل فيها كنا نثرثر لخمس دقائق أو عشـر ويتعرف كل منـا على أخبـار الآخر، وكنْتُ لا أصدق الهـدوء الذي كان يقبل به خزيه، تحـول الرجل إلى أضحوكة، وتبدو روحـه المعنوية جيدة، يثرثر وينكت كالمعتاد. ما فائدة الجدل؟ تصورت أنها مسـألة وقت، وهكذا جاريته واحتفظت بأفكاري لنفسـي- عاجلا أو آجلا- سيكون لزامًا عليه أن يرى النور.

---

(١) تولسا Tulsa: مدينة في شمال شرق أوكلاهوما.

استدعاه نادي كبز في سبتمبر، كانوا يريدون أن يعرفوا إن كانت خبرة الدوري الأدنى قد نجحت، وبينما كان أداؤه غير مشجع، فإنه لم يكن مفزعًا كما قد يُعتقَد. كانت كلمة متوسط الكلمة المناسبة- فوزان متقاربان، هزيمتان- وهنا يكمن الفصل الأخير من القصة. بمنطق غريب أحمق، قرر نادي كبز أن «دين» أظهر ما يكفي من حاسته القديمة ليبرر التعاقد معه موسمًا آخر، فتقدم وطلب منه العودة. لم أعرف بالعقد الجديد إلا بعد أن غادر البلدة في الشتاء، لكن حين عرفت، انتفض أخيرًا شيء في داخلي. أقلقني لشهور. اهتجت وانزعجت وعبست، ومع قدوم الربيع مرة أخرى، فهمت ما ينبغي القيام به، لم يبد الأمر اختيارًا. اختارني القدر أداة، ورغم بشاعة المهمة، لا يهمني إلا إنقاذ ديزي؛ إذا لم يفعل ذلك بنفسه، فعليَّ أن أتقدم وأفعل ذلك له.

وحتى الآن، من الصعب أن أفسر كيف خطرت على بالي تلك الفكرة المنحرفة الشريرة. اعتقدت بالفعل أن من واجبي إقناع ديزى دين بأنه لم يعد يريد الحياة. بهذا الشكل الصريح، كان الأمر كله جنونًا، لكن هكذا خططت لإنقاذه بدقة: إقناعه بقتل نفسه، إذا لم يكن هناك شيء آخر، يبرهن ذلك على ما بلغته روحي من اعتلال في سنوات ما بعد موت الأستاذ يهودي. تعلقْتُ بديزي لأنه ذكرني بنفسي، ومادامت مهنته ازدهرت يمكن أن أحيى مجدي القديم خلاله. ربما ما كان يحدث ذلك لو لم يكن يلعب لبلدة غير سانت لويس، ربما ما كان يحدث ذلك لو لم يكن لقبانا متماثلين[1]. لا أعرف، لا أعرف شيئًا، لكن الحقيقة أنني في وقت ما لم أعرف الفرق بيننا. كانت انتصاراته انتصاراتي، وحين لازمه الحظ السيئ

(١) الإشارة إلى لقب ديزي Dizzy ويعني دوخة أو دوار ولقب فيرتيجو Vertigo ويحمل المعنى نفسه.

في النهاية وتدهور مستواه، كان خزيه خزيي، لم أستطع العيش خلاله مرة أخرى، وتدريجيا بدأ الأمر يفلت من يدي. ينبغي أن يموت ديزي لمصلحته، وكان عليَّ فقط الإنسان أن أدفعه إلى اتخاذ القرار المناسب. ليس فقط من أجله، لكن من أجلي أيضًا. كان معي السلاح، وكانت معي البراهين، وكانت قوة الجنون في جانبي. يمكن أن أدمر ديزي دين، وبذلك يمكن أن أدمر نفسي أخيرا.

التقى نادي كبز نادي شيكاجو في افتتاح البطولة المحلية في العاشر من أبريل. اتصلت بديزي عصر اليوم نفسه وطلبت منه أن يأتي إلى مكتبي، مبررًا ذلك بأن شيئًا مهمًا قد حدث، حاول أن يعرف مني ذلك الشيء، لكنني قلت إنه أكبر من أن نناقشه في التليفون؛ قلت له: إذا كنتَ مهتما بفرضية ستغير حياتك تماما فتعال، كان مرتبطا حتى بعد العشاء، ومن ثم حددنا الموعد في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي؛ ظهر متأخرًا خمس عشرة دقيقة فقط، يسير متئدًا بخطوته المتراخية ويحرك عود خلة فوق لسانه. يرتدي بدلة زرقاء من الصوف وقبعة سمراء من قبعات رعاة البقر، ورغم أن وزنه زاد بعض الأرطال منذ رأيته آخر مرة، كانت بشرته بها أثر تحسن بعد ستة أسابيع في شمس دوري «كاكتوس». كالمعتاد، كان يبتسم ابتسامة عريضة وهو يدخل، وقضى أول دقيقتين يتحدث عن كيف يبدو الملهى مختلفا بالنهار دون زبائن، وقال: «إنه يذكرني بملعب خال. مثل مكان مرعب. هادئ مثل قبر ضخم جدا».

طلبت منه الجلوس وقدمت له مشروبًا غازيا من آيس بوكس خلف مكتبي، وقلت: «يستغرق الأمر بضع دقائق، ولا أريد أن تظمأ ونحن نتحدث». شعرت بيدي ترتجفان، فصببْتُ لنفسي كأسًا من الويسكي ورشفت رشفتين، قلت وأنا أجلس في مقعدي الجلدي باذلا أقصى ما أستطيع لأبدو هادئا: «كيف حال ذراعك، أيها العجوز؟».

«كما كان، يبدو وكأن عظاما تبرز من كوعي».

«سمعت أنك بذلت جهدًا شاقا تمامًا في تدريب الربيع».

«كانت مجرد مباريات للتدريب، لا تعني شيئا».

«بالتأكيد، انتظر حتى تأتي أكلها حقا، صحيح؟».

لاحظ السخرية في صوتي فهز كتفيه بشكل دفاعي، ومد يده ليخرج السجائر من جيب قميصه. وقال: «حسنا أيها الفتى، ما الخبر؟» أخرج سيجارة «لاكي» من علبته وأشعلها، نافثا هبة كبيرة من الدخان في اتجاهي. «من الطريقة التي تحدثت بها في التليفون، بدا أنها مسألة حياة أو موت».

«إنها كذلك. إنها كذلك بالضبط».

«كيف؟ هل حصلت على براءة اختراع فكرة جديدة أو شيء ما؟ يا يسوع، جلبت دواء لعلاج الذراعين المعتلتين يا والت، وأعطيك نصف ما أتقاضاه طوال السنوات العشر التالية».

«حصلْتُ على شيء أفضل من ذلك يا ديزي، ولن يكلفك سنتًا واحدًا».

«كل شيء يكلف يا رفيق. إنه قانون الأرض».

«لا أريد نقودك؛ أريد أن أنقذك يا ديزي. دعني أساعدك لينتهي العذاب الذي تعيش فيه في السنوات الأربع الأخيرة».

«أجل»، قال وهو يبتسم وكأنني قلت نكتة مسلية. «وكيف أطمح في ذلك؟».

«أية طريقة تحب، الطريقة ليست مهمة، الشيء الوحيد المهم أن توافق - وتفهم السبب».

«توهتني يا فتى، لا أعرف عما تتحدث».

«قال لي رجل عظيم: 'حين يصل الرجل إلى نهاية الخط، لا يريد إلا الموت'. هل صار الأمر أكثر وضوحًا؟ سمعْتُ هذه الكلمات منذ وقت طويل، لكنني كنت أغبى من أن أعرف معناها. الآن أعرف، وأقول لك شيئا يا ديزي - إنها صادقة. إنها أصدق ما نطق به إنسان».

انفجر «دين» ضاحكا: «تمزح يا والت، لديك إحساس غريب بالدعابة، لا يخفت أبدا، لهذا أحبك كثيرا جدا. ليس هناك شخص آخر في البلدة يأتي بالأشياء المتهورة التي تفعلها».

تنهدْتُ من غباء الرجل، كان التعامل مع مهرج مثل هذا عملا صعب، وكان آخر ما أريده أن أفقد صبري، أخذْتُ رشفة أخرى من كأسي، محركًا بقوة السائل اللاذع في فمي لثانيتين، وبلعته. وقلت: «اسمع يا ديزى. جربت ما تمر به. منذ اثنتي عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة، كنت أجلس على قمة العالم، أفضل شخص يقوم بما أقوم به، في مرتبة بمفردي، ودعني أقل لك إن ما حققْتَه في مجال الكرة لا يساوي شيئًا مقارنة بما كان يمكن أن أفعله، بجانبي، لسْتَ إلا قزما، حشرة، بقة لعينة في سجادة. هل تسمع ما أقول؟ لكنني لم أتلكأ وأجعل الناس يأسفون من أجلي، لم أحول نفسي إلى أضحوكة - توقفت - ثم واصلت وصنعت حياة أخرى لنفسي، ذلك ما كنت آمل وأدعو ليحدث لك، لكنك لم تقبله، أليس كذلك؟ دماغك الغبي الغليظ محشو جدا بالهراء بدرجة تجعلك لا تقبل ذلك».

«انتظــر ثانية»، قــال ديزي، هازًا إصبعه لــي وومضة مفاجئة وغير متوقعة من البهجة تنتشــر في وجهه. «انتظر ثانية فقط. الآن أعــرف من أنت. خرا. كنت أعرف طـوال الوقت. أنت ذلك الفتى، أليـس كذلك؟ أنت ذلك الفتى اللعين. والت... والت الولد العجيب- يا يسـوع العظيم- أخذني أبــي أنا وبول وإلمر إلــى العرض ذات يوم في أركانســاس، ورأيناك وأنت تقوم بألعابـك- يا له من عالم لعين- أتســاءل دائمًــا عما حدث لك، وأنت هنا، تجلس أمامي مباشــرة؛ لا يمكن أن أصدق ذلك».

«صدقْه يا صديقي، حين أخبرتك بأنني كنت عظيمًا، كنت أعني عظيما بدرجة لم يحققها أحد آخر، مثل مُذَنَّب يحلق في السماء».

«كنت عظيما حقا، أشهدُ على ذلك، أعظم من رأيتُ».

«وهكـذا كنْتَ أيهــا الرجل الكبيــر، كنت عظيمًا جــدا، ولم تعد تســتطيع القيام بذلك الآن، ويحطم قلبي ما أراك تفعله بنفسك. دعني أســاعدك يا ديزي. الموت ليس مرعبا جدا؛ يموت الجميع في وقت مــا، وبمجرد أن تتقبــل الفكرة ترى أن التعجيــل بالأمر أفضل، إذا منحتنــي الفرصــة، يمكــن أن أخلصك من العار، يمكــن أن أرد لك كرامتك».

«أنت جاد حقا، أليس كذلك؟»

«يمكن أن تراهن على أنني جاد، جاد كما لم أكن ذات يوم طوال حياتي».

«أنت غريب جدا يا والت. أنت على غير عادتك».

«دعني أقتلك، وسينســى الناس السنوات الأربع الأخيرة. وتكون عظيما مرة أخرى يا بطل، تكون عظيما مرة أخرى إلى الأبد».

كنت أنطلق بسرعة كبيرة جدا. أفقدني توازني بذلك الحديث عن الولــد العجيب، وبدل أن أغير اتجاهي وأعدل طريقتي، اندفعت إلى الأمام بسرعة فائقة، أريد أن أضغط ببطء، أن أهدهده ببراهين متقنة ومحكمة حتى يقرر لنفســه، تلك هي القضية: ألا أرغمه على ذلك، أن أجعله يرى حكمة الخطة بنفسه، أريد أن يريد ما أريد، أن يشعر بالاقتنــاع بالفرضية بحيث يتوسـل لأنفذها، لكنني أرعبته بتهديدات وملاحظــات تافهــة تفتقر إلــى النضج، لا غرابة فــي أن يعتقد أنني مجنون، تركت كل شــيء يفلت من يدي، وبالضبط حين كان ينبغي أن يبدأ، نهض وشق طريقه للخروج.

لم يزعجني ذلك، أغلقت الباب من الداخل ولا يمكن أن يفتح دون المفتــاح - وكان فــي جيبي، لكنني لم أكن أريد أن يســحب المقبض ويــرج الإطــار، ربما يبدأ الصياح لأتركه يخرج، ومع وجود ســتة أشخاص يعملون في المطبخ في تلك الساعة، من المؤكد أن الضجة ســتجعلهم يأتون جريا، وهكــذا، مفكرًا فقط في تلك النقطة الصغيرة ومتجاهــلاً التبعات الأكبــر، فتحت درج مكتبي وأخرجت مســدس الأستاذ. كانت الغلطة التي قضت عليّ. بتوجيه المسدس إلى ديزي، اجتــزت الحــدود التي تفصــل الحديث المتراخي عــن الجرائم التي تستوجب العقاب، والكابوس الذي بدأ يمكن ألا يتوقف. لكن المسدس كان حاســما، أليس كذلك؟ كان العنصر الأساســي في العملية كلها، وفــي لحظة أو أخــرى كان لابــد أن يخرج من الدرج. أشــد الزناد على ديزي- وهكذا أعود إلى الصحراء وأقوم بالمهمة التي لم تنجز قط. أجعله يستجدي الموت بالطريقة نفسها التي استجداه بها الأستاذ يهودي، ثم أصلح الخطأ باستجماع الشجاعة على القيام بالفعل.

لا شيء من هذا يهم الآن. نفذت الأمر بطريقة خرقاء حين وقف ديزي، ولم يكن إخراج المسدس أكثر من محاولة يائسة لحفظ ماء الوجه، طلبت منه أن يعود إلى الكرسي وفي الدقائق الخمس عشرة التالية أرهقته أكثر بكثير مما نويت، كان «دين» رغم زهوه وحجمه جبانا، وكلما اندلعت مشاجرة يختفي خلف أقرب قطعة أثاث، كنت أعرف سمعته، لكن المسدس أصابه برعب أكثر حتى مما ظننت. جعله يبكي حقًا، وهو يجلس في مقعده يئن وينتحب، سحبت الزناد لأسكته، توسل من أجل حياته- ليس لقتله بل لأتركه يعيش- وهكذا انقلب كل شيء رأسًا على عقب، اختلف تمامًا عما تخيلت، ولم أعرف ما أفعل، وكان يمكن أن تستمر المواجهة طوال اليوم، لكن حينذاك، قرب الظهيرة، طرق شخص الباب. وكنت قد تركت تعليمات واضحة بألا يزعجني أحد، لكن واصل شخص طرق الباب بوتيرة واحدة.

جاء صوت امرأة: «ديزي؟ هل أنت بالداخل يا ديزي؟».

كانت زوجته «بات»: شخصية مستبدة لا تعرف الهزل. جاءت لتأخذ زوجها لموعد غداء في مطعم «ليمل»، وبالطبع كان ديزي قد أخبرها بالمكان الذي يمكن أن تجده فيه، وكانت عقبة أخرى محتملة لم أفكر فيها. جاءت إلى ملهاي لتبحث عن نصفها الأفضل الذي تهيمن عليه، وبمجرد أن قبضت على كبير الطباخين في المطبخ (وكان مشغولا بتقطيع البطاطس والجزر)، آذته جدا حتى إن المسكين دلق البسلة في النهاية. قادها عبر السلالم والقاعة، وهكذا كانت تقف أمام باب مكتبي، تضرب بقوة على القشرة الخشبية البيضاء بمفاصل عاهرة غاضبة.

باستثناء غرس رصاصة في رأس ديزي، لم يكن هناك ما يمكن أن أفعله إلا إبعاد المسدس وفتح البـاب، وكان من المؤكد عند تلك اللحظة أن المشاكل ستنفجر - إلا إذا فعل الرجل الكبير المطلوب لي وقرر أن يلعب دور الأم. لعشـر ثوان كانـت حياتي متدلية من ذلك الخيط الرقيق: إذا كان مرتبكا جدا بدرجة لا تسمح له بأن يحكي لها عـن مقدار هلعه، يمكن ألا يبوح بشـيء عـن الارتباك الذي حدث. رسمت على وجهي أحر ابتسامة وأكثرها لطفا ومسز "دين" تدخل الغرفـة، لكن زوجها الباكي كشـف عن الأمر كلـه حين رآها. قال، بصوت حاد يعبر عن الشك: "العاهر الصغير كان سيقتلني! صوب مسدسًا إلى رأسي، وكان العاهر الصغير سيطلق النار!"

تلـك هـي الكلمات التي منعتنـي من مواصلة العمـل في الملهى الليلـي. بدلاً من يحافظ بـات وديزي على الحجز في مطعم «ليمل» خرجـا من مكتبـي واتجها مباشـرة إلى نقطة شـرطة محلية ليقدما شـكوى ضـدي؛ أخبرتني «بـات» بأنهما ذاهبان للقيـام بذلك وهي تصفع الباب في وجهي ولم تهتز لي شـعرة، اكتفيت بالجلوس خلف مكتبي والتعجب من غبائي، محاولاً أن أجمع أفكاري قبل أن يظهر رجال الشـرطة ويأخذوني، استغرق الأمر أقل من ساعة، وغادرت المـكان في هدوء، أبتسـم وألقـي بالنكات حين وضعـوا القيد حول رسغي. لولا بينجو، ربما قضيت وقتًا صعبًا نتيجة طعنتي الصغيرة في رب اللعب، لكن كانت له ارتباطات كثيرة، وقد عقدت صفقة قبل أن تصـل القضية إلى المحكمة، كان الأمـر جيدًا لي بتلك الطريقة، ولديزي أيضا، لم يكن من الممكن أن تكون المحاكمة جيدة بالنسـبة

لــه- لا يمكن أن تكون جيدة مع كل الانتقــاد وترويج الفضيحة التي يمكــن أن تصاحبهــا ـ وكان ســعيدًا تمامًا بقبول التســوية. خيرتني المحكمة. اعتراف بالذنب لتخفيف الحكم وقضاء من ستة أشهر إلى تسـعة أشــهر في جوليت[1]، أو مغادرة شيكاجو والالتحاق بالجيش. اخترت السـير في الطريق الثاني. لم يكن ذلك لرغبتي الشـديدة في ارتداء زي، لكنني تصورت أنني لم أعد محل ترحيب في شـيكاجو وقد حان الوقت لأنتقل إلى مكان آخر.

شــد بينجــو الحبال ودفع رشــى لأبقى خارج الســجن، لكن ذلك لـم يكــن يعني أنه كان متعاطفًا مع ما قمت بــه. اعتقد أنني مجنون، مجنون بنسـبة تسعة وتسعين فاصل تسـعة وتسعين في المائة. كان قتل رجل من أجل المال أمرًا أسـهل، لكــن أي أبله يمكن أن يطارد كنــزا قوميًا مثل ديزى دين؟ لابد أن تكـون مجنونًا تمامًا حين تدبر أمــرا مثــل هذا، قلت: إننــي ربما أكون كذلك، ولم أحــاول أن أبرر مــا أقدمت عليه. ليفكر فيما يشــاء وينتهي الأمر عنــد ذلك، بالطبع كان هنــاك ثمن علــيَّ أن أدفعه، لكنني لم أكن في وضع يســمح لي بالجــدل، بدلاً من دفع نقد مقابل خدمــات بينجو، وافقت أن أعوضه عــن المســاعدة القانونيــة التي قدمها لــي بالتوقيع علــى تنازل عن نصيبيــي في الملهــى، كان فقدان ملهى مســتر فيرتيجو صعبًا عليَّ، لكنه لا يساوي نصف صعوبة تنفيذ العقوبة، لا يساوي عُشْر صعوبة فقدان الأستاذ؛ لم أعد شخصا مميزا. مجرد ذاتي القديمة العادية مرة

---

(١) جوليت: مدينة في شــمال شـرق إلينوي إلى الجنوب من شـيكاجو، وهي منطقة صناعة وميناء نهري.

أخرى: والتر كليربورن رولي، جندي في السادسـة والعشـرين من العمر بشـعر قصير وجيبين خاويين، أهلا بالعالم الواقعي يا رفيق، أعطيت بِدَلِي لمساعدي النادل، قبلت صديقاتي قبلة الوداع، وأخذت قطار الفجر واتجهت إلى معسـكر التدريب. نظرًا لما كان يمكن أن يحدث، أفترض أنني كنت محظوظا.

بحلول ذلك الوقت رحل ديزى أيضًا. كان موسمه مباراة واحدة، وبعد أن صد بتسبرج رمياته لثلاث مرات متتالية في الجولة الأولى من بدايته الأولى، اعتـزل أخيرًا. لا أعرف إن كانت حيلي الرهيبة قد أثرت فيه، لكنني سـعدْتُ حين قرأت عن قراره. منحه نادي كبز وظيفـة مـدرب أول للقاعـدة الأولـى، لكنه تلقى بعد شـهر عرضًا أفضل من شركة «فلستاف برونج» في سانت لويس، فعاد إلى البلدة القديمـة ليعمل مذيعا إذاعيا لمباريات بـراون وكاردينال. قال: «لن تغيرنـي هذه الوظيفة؛ سـأتكلم الإنجليزية القديمة المباشـرة». كان يجب تسـليمها للفظ الكبير، انشغل الجمهور بالكلام التافه الذي كان يبثـه على موجات الأثير، وحقق نجاحًا، ليسـتمر في العمل خمسـة وعشرين عامًا. لكنها قصة أخرى، ولا أستطيع أن أقول: إنني أوليته كثيرًا من الاهتمام. تركت شيكاجو، ولم يعد الأمر يعنيني.

IV

كانت عينـاي ضعيفتين جدا مما حال دون التحاقي بمدرسـة الطيران، فقضيت السـنوات الأربـع التالية أزحف في الوحـل. صرت خبيرًا في عادات الـدود والمخلوقات الأخرى التي تسـعى علـى الأرض وتلتهم جِلد الإنسـان للحصولِ علـى غذائها. طلبـت المحكمة مـن الجيش أن يصنـع مني رجـلاً، وإذا كان أكل القاذورات ومشاهدة الأطراف تتطاير من أجساد الجنود برهانًا على الرجولة، فإنني أفترض أن المبجل تشارلز ماكجوفين عرَّفها بشكل صحيـح، بقدر ما يعنيني، كلما قل الكلام عن تلك السـنوات الأربع كان أفضل؛ أولا: فكرت بجدية في الحصول على إعفاء طبي، لكن لم تواتني الشجاعة قط للقيام بذلك، كانت خطتي أن أبدأ التحليق مرة أخرى سـرًا- وأجلب تلـك النوبات العنيفة المعوقـة من الألم بحيث أدفعهم إلى إرسـالي إلى البيت، وكانت المشكلة أنني لم يعد لي بيتَ أذهـب إليه، وبمجـرد أن فكرت في الوضع بعـض الوقت، أدركت أنني أفضل شك المعركة على يقين عذاب تلك النوبات من الصداع.

لم أشـعر بالتميز كجندي، ولم أشـعر بالخـزي أيضًا، كنت أقوم بوظيفتـي، وأتجنـب المشـاكل، وأتسـكع هنـاك ولم أُقتـلْ، وحين عدت فـي نوفمبر ١٩٤٥، كنـت منهكًا جدا، وعاجـزًا عن التفكير فـي المسـتقبلِ أو وضع خطط. انجرفـت لثلاث سـنوات أو أربع، صعودًا وهبوطًا على السـاحل الشـرقي غالبًا. كانت أطول فترة في بوسـطن. عملْتُ عامل بار هناك، معززًا دخلي بالرهان على سباق الخيول وبالجلوس أسـبوعيا للعب البوكر في قاعة سبيرو للعب في "الطرف الشـمالي". كان مجرد عمل متوسـط المخاطر، لكنك إذا واصلت كسـب الدولار والخمسة دولارات، تجمع مبلغًا. كنت على

وشـك إبرام صفقة لفتح مكان خاص بي حين سـاء حظي. ضاعت مدخراتي، اسـتدنت، وقبل مرور أشهر طويلة، كان عليَّ أن أتسلل مـن البلدة لأتخلص من حيتان القـروض الذين وقعت تحت أنيابهم. من هناك ذهبت إلى جزيرة "لونج" وحصلت على وظيفة في البناء، كانـت تلك هي السـنوات التي امتدت فيها الضواحـي حول المدن، وذهبْـتُ حيث النقود، مسـاهمًا بنصيبي في تغيير المشـهد الطبيعي وتحويـل العالم إلى ما يبدو عليه اليوم، كل منازل الحقول والمروج المنسقة والشجيرات المغزلية الملفوفة في الخيش- كنت الرجل الذي يضعها هناك، كان عملاً كئيبًا، لكنني التزمت به ثمانية عشر شهرًا، في لحظةٍ ما، لأسـباب لا أستطيع تفسيرها، تركت نفسي أتحدث في زواج، لم يستمر أكثر من نصف عام، والخبرة كلها ضبابية بالنسبة لي الآن، أجد مشكلة في تذكر شكل زوجتي، ولا أتذكر اسمها إذا لم أفكر فيه كثيرًا.

لـم تكن لـدي فكرة عما أصابني، كنت سـريعا جدا باسـتمرار، سـريعا جدا في الانقضاض على الفـرص وتحويلها في مصلحتي، لكنني حينذاك كنت أشـعر بالكسـل، لا أصل في الوقت المناسـب، عاجـزًا عن مسـايرة التيار، يتجاوزني العالـم، وأغرب ما في ذلك أننـي لا أبالي؛ ليـس لدي طموح، لا أحـاول أن أبحث عن مخرج، أريد فقط أن أترَك في سلام، لأمضي بأفضل ما أستطيع وأذهب إلى حيث يأخذنـي العالم. حلمت بالفعل أحلامي الكبرى، لم تأخذني إلى أي مكان، وصرت مُنهكًا بدرجة تحول بيني وبين التفكير في أحلام جديدة، ليحمل شخص آخر كرة التغيير، أسقطتها منذ زمن بعيد، ولم تعد تستحق جهد لأنحني وألتقطها.

في ١٩٥٠، انتقلت عبر النهر إلى شقة رخيصة في مدينة نيوارك، في ولاية نيوجيرسـي، وبدأت وظيفتي التاسـعة أو العاشرة منذ انتهاء الحرب. عينت شركة مايرهوف للمخابز أكثر من مائتي شخص، وفي ثـلاث ورديات من ثماني سـاعات كنا نخرج كل مـا يمكن تخيله من المخبوزات. كان هناك سـبعة أنـواع مختلفة من الخبز فقط: الأبيض، والجـاودار، والقمـح الخالـص، والبمبرنيـكل، والزبيـب، والزبيب بالقرفة، والأسـود البافاري. بالإضافة إلى اثنى عشر نوعًا من الكعك المحلًـي، وعشـرة أنواع من الكيك، وسـتة أنواع مـن الكعك المقلي، بالإضافة إلى البقسماط، ولفائف الخبز. وبالتالي يمكن فهم السبب الذي يجعـل المصنع يعمل أربعا وعشـرين سـاعة يوميا. بـدأت العمل في خط التجميع، أضبط وأجهز ورق السـيلوفان الذي يلف حول شـرائح الخبـز، تصورت أنني سـأبقى هناك لبضعة أشـهر على الأكثر، لكن بمجـرد أن اسـتوعبت الأمر، تبيـن لي أنه مكان جيد لكسـب العيش، كانت الروائح في المصنع طيبة جدا، ومع انطلاق نكهة الخبز الطازج والسكر باستمرار في الهواء، لم تكن الساعات تزحف ثقيلة كما كانت تزحـف في وظائفي الأخرى. كان ذلك جزءًا منها على أية حال، لكن الأكثر أهمية المرأة ذات الشـعر الأحمر التي بدأت تضع عينيها عليَّ بعـد أسـبوع تقريبًا من ذهابي إلـى هناك. لم تكن جميلـة جدا لأتطلع إليها، على الأقل مقارنة بفتيات الاستعراض اللاتي انهمكت معهن في شـيكاجو، لكن كان هناك ومضة محيرة في عينيها الخضراوين أثرت فيَّ، ولم أضيع وقتًا طويلاً للتعرف عليها. لم أتخذ في حياتي إلا قرارين جيدين. الأول اتباع الأسـتاذ يهودي في ذلك القطار وأنا في التاسـعة

من العمر. والثاني الزواج من "مولي فيتزسيمونز". وضعتني مولي على الطريق الصحيح مرة أخرى، ونظرًا للشكل الذي كنت عليه حين وصلت إلى نيوارك، لم تكن مهمة صغيرة.

كان اسمها قبل الزواج "كوين"، والتقينا وهي على مشارف الثلاثين، تزوجت زوجها الأول بعد الانتهاء من الثانوية مباشرة، وبعد خمس سنوات التحق بالجيش. طبقا لكل الروايات، كان فيتزسيمونز شخصًا ودودًا وجادًا، لكن حربه كانت أقل حظًا من حربي. أصابته رصاصة في ميسينا[1] سنة ٤٣، ومنذ ذلك الوقت عاشت مولي وحدها، أرملة دون أبناء ترعى نفسها وتنتظر ما يحدث. لا يعلم إلا الرب ما رأتْه في، لكنني وقعت في حبها لأنها جعلتني أشعر بارتياح، لأنها أحيت ذاتي القديمة اللبقة، وكانت تفهم النكتة الجيدة حين تسمعها، لم يكن فيها شيء مُبهر، ولم يكن فيها ما يميزها. مجرد زوجة أخرى لعامل قاس: امرأة بوركين سمينتين وبطن عريض، لا تضع مكياجًا إلا وهي ذاهبة إلى مطعم. لكن كانت لمولي روح طيبة، وكانت حازمة بطريقتها الهادئة اليقظة، كانت عطوفًا؛ لا تحمل ضغينة؛ تدعمني ولا تحاول قط أن تجعل مني شخصًا آخر، وكانت غير ماهرة بعض الشيء كربة بيت ولم تكن طباخة جيدة لكن ذلك لم يكن مهمًا. لم تكن خادمتي، رغم كل شيء، كانت زوجتي. وكانت صديقتي الحقيقية الوحيدة منذ كنت في كانساس مع أيسوب والأم سيوكس، المرأة الأولى التي أحببتها في حياتي.

عشنا في شقة في الدور الثاني في بناية دون مصعد في حي أيرنباوند في نيوارك، وحيث إن مولي لم تكن قادرة على الحمل، بقينا اثنين دائمًا. جعلتها تترك وظيفتها بعد العرس، وبقيْتُ في وظيفتي،

---

(١) ميسينا Messina: مدينة شمال شرق صقلية.

وبمرور السنوات رقيت في شركة ماير هوف. كان يمكن لزوجين أن يعيشا براتب واحد في ذلك الوقت، وبعد أن رقيت إلى رئيس عمال دورية الليل، لم يعد لدينا مخاوف مالية يمكن الحديث عنها، كانت حياة متواضعة بالمعايير التي وضعتها لنفسي ذات يوم، لكنني كنت قد تغيرت بدرجة تجعلني لا أبالي بذلك. كنا نذهب إلى السينما مرتين أسبوعيا، ونأكل خارج البيت في مساء السبت، ونقرأ الكتب ونشاهد التليفزيون، وفي الصيف، نذهب بالسيارة إلى الشاطئ في «أسبوري بارك»، ونذهب معًا كل أحد تقريبًا إلى أحد أقارب مولي. كان آل «كوين» أسرة كبيرة، وكان كل إخوتها وأخواتها متزوجين ولديهم أطفال. كان لها أربعة إخوة وأربع أخوات، لديهم ثلاثة عشر ابنا وبنتا؛ بالنسبة لرجل لم ينجب، كنت غارقًا تمامًا في الصغار، لكنني لا أستطيع أن أقول: إنني اعترضت على القيام بدور العم والت. كانت مولي رائعة عمة وخالة، وكنت مهرج البلاط: الرجل الضئيل المكتنز مع كل تلك الأعمال الغريبة والتهريج، روتي كازوتي(١) يتدحرج على سلالم الرواق الخلفي.

قضيت ثلاثة وعشرين عامًا مع مولي - أفترض أنها فترة طويلة بعض الشيء، لكنها لم تكن طويلة جدًا. نويت أن أشيخ معها وأموت بين ذراعيها، لكن السرطان جاء وأخذها مني قبل أن أكون مستعدا للتخلي عنها، في البداية ضاع ثدي، ثم الثدي الآخر، وحين بلغت الخامسة والخمسين لم تعد هناك. فعلت الأسرة ما تستطيع من مساعدة، لكنها كانت فترة بشعة. قضيت الشهور الستة أو السبعة التالية في غيبوبة كحول. ساءت حالتي حتى فقدت في النهاية وظيفتي

(١) روتي كازوتي: الشخصية الرئيسية في عرض تليفزيوني للأطفال في خمسينيات القرن العشرين.

في المصنع، ولو لم يسحبني اثنان من أخوة مولي إلى عيادة لعلاج الإدمان، ما كان يمكن التحدث عما يحدث لي. قضيت ستة أيام كاملة للشفاء في مستشفى «سانت بارناباس» في «ليفنجستون»، وأخيرا بدأت أحلم هناك من جديد، لا أعنى أحلام يقظة وأفكارًا عن المستقبل، أعني أحلاما حقيقية أثناء النوم: مشاهد سينمائية حية كل ليلة تقريبًا لمدة شهر، ربما كان لها علاقة بالعقاقير والمهدئات التي أتعاطاها، لا أعرف، لكن أربعة وأربعين عامًا بعد آخر عرض قدمته بوصفي والت الولد العجيب، اندفعت كلها عائدة إليَّ. عدت إلى الطواف مع الأستاذ يهودي، متنقلين من بلدة إلى أخرى في البيرس أرو، مُقدمًا عرضي مرة أخرى كل ليلة، وقد أسعدني ذلك بشكل لا يصدق، وأعاد إلى المتع التي نسيت منذ فترة طويلة أنني يمكن أن أشعر بها. أسير على المياه مرة أخرى، عارضًا أعمالي أمام جمهور هائل متدفق، وأتحرك في الجو دون ألم، طافيًا ومدوِّمًا وواثبًا بكل براعتي القديمة ويقيني. عملت جاهدًا جدًا على أن أدفن تلك الذكريات، وكافحت سنوات طويلة لأحتضن الأرض وأكون مثل أي شخص آخر، لكن ذلك كله يندفع مرة أخرى، متفجرًا في عرض ليلي للألعاب النارية لشركة تكنيكلر، قلبت تلك الأحلام كل شيء، أعادت لي زهوي، ولم أعد أخجل من النظر للماضي، لا أعرف كيف أعبر عن ذلك بطريقة أخرى. سامحني الأستاذ. شطب دَيني له بسبب مولي، بسبب حبي لها وحزني عليها، وكان يناديني ويطلب أن أتذكره، ليس هناك من سبيل لإثبات ذلك، لكن التأثير لا يمكن إنكاره. ارتفع شيء بداخلي، وخرجت من بركة السُّكْر يقظًا كما أنا الآن. كنت في الثامنة والخمسين من العمر، حياتي مدمرة، لكن شعوري لم يكن سيئًا جدا تجاهها، حين قيل كل شيء وتم، شعرت فعليا بأنني في حالة طيبة تمامًا.

أتت فواتير علاج مولي على كل النقود التي نجحنا في ادخارها. تأخر الإيجار أربعة أشـهر، والمالك يهددني بالطرد، ولم أكن أملك إلا سـيارتي- فـورد فيرلين عمرها سـبع سـنوات بشـبكة معطوبة وكاربريتـور تالف. بعـد حوالي ثلاثة أيام من مغادرة المستشـفى، اتصـل بي من دينفر[1] أحد أبناء إخوة مولـي، الابن المفضل لدي، بشـأن وظيفة. كان «دان» الشخص المرموق في العائلة- أول أستاذ جامعـي في الأسـرة على الإطلاق - يعيش هناك مـع زوجته وابنه منذ بضع سنوات، وحيث أخبره أبوه عما آل إليه حالي من سوء، لم أضيع لحظة لأبتكر أكاذيب عن حسابي الضخم في البنك. قال لي إن الوظيفة ليسـت كبيرة، لكن ربما يجعلني تغيير الجو أفضل، سألت: أيـة وظيفة؟ فردَّ: مهنـدس صيانة، محـاولاً ألا يجعل صوته مرحًا جدا. قلت: تعني بوابًا؟ قال: أجل، فارس الممسحة. وظيفة خالية في البنايـة التـي يدرس فيها فصوله، وإذا شـعرت بالرغبة في الانتقال إلى دينفر، فإنه سـيلتزم بكلمته معي ويبـرم الصفقة. قلت: بالتأكيد، لمـاذا لا، وبعد يومين، حزمت بعض أشـيائي فـي الفورد وانطلقت إلى جبال روكي.

لـم أصل قـط إلى دينفـر، ولا يرجع ذلـك إلى تحطم السـيارة، أو إعـادة التفكيـر في أن أصبـح بوابًا، لكن نتيجة ما حـدث في الطريق، وبـدل أن ينتهـي بـي الأمر إلى موضـع انتهى بي إلـى موضع آخر، وفي الحقيقة ليس من الصعب شـرح ذلك. جلبـت الرحلة، وقد جاءت بسـرعة بعد كل تلك الأحلام في المستشـفى، فيضا من الذكريات، وأنا أعبر حدود كانساس، لم أستطع مقاومة القيام بانعطافة عاطفية قصيرة إلى الجنوب. قلت لنفسـي إنها ليست بعيدة جدا عن الطريق، ولن يبالي

---

(١) دينفر: عاصمة ولاية كولورادو.

«دان» إذا تأخـرت هنـاك بعـض الوقت. أردت فقـط أن أقضي بضع سـاعات في ويتشيتا- وأعود إلى منزل مسز ويذرسبون لأرى ما يبدو عليه المكان القديم- ذات مرة- بعد الحرب بقليل، حاولت أن أبحث عنها في نيويورك، لكن لم تكن بياناتها مسـجلة في دليل التليفونات، ونسيت اسم شركتها. واعتقدت أنها ماتت، مثل كل الآخرين الذي اهتممت بهم.

كبرت المدينة قليلا منذ العشرينيات، لكنها لم تكن ما كنت أعتقده عن الزمن الجميل؛ زاد الناس، وزادت المباني، وزادت الشـوارع، لكـن بمجـرد أن تكيفت مع التغيـرات، تبين لي أنهـا المكان الراكد نفسـه الذي تذكرته. صارت تُسـمى «عاصمة الطيران في العالم»، وضحكـت ضحكـة كبيـرة حين رأيت ذلـك الشـعار ملصوقا على لوحـات الإعلانـات حول البلـدة. كانت الغرفة التجارية تشـير إلى كل شـركات الطيران التي أنشـأت مصانع هناك، لكنني لم أسـتطع مقاومة التفكير في نفسـي، الولد الطائر الأصلي الذي اعتبر ويتشيتا وطنه ذات يوم. وجـدت صعوبة في العثور على المنزل، مما جعل جولتـي أكبر قليلاً ممـا خططت. كان يقع في أطـراف البلدة، يقف وحـده على الطريق القذر الذي يـؤدي إلى ريف مفتوح، لكنه صار جزءًا من المحور السـكني، وتم تشـييد منازل أخرى حوله. سُـمِّي الشـارع «كورونـادو»، وكان به كل التجهيـزات الحديثة: أرصفة للمشاة، مصابيح الشوارع، وسطح من الإسفلت وشريط أبيض يمتد في المنتصف، لكن المنزل بدا جيدًا، لاشـك في ذلك: كانت الألواح تلمـع تحت السـماء الرمادية في نوفمبر، والأشـجار الصغيرة التي غرسها الأستاذ يهودي أمام الفناء ارتفعت فوق السطح مثل العمالقة، من امتلك المكان تعامل معه بشكل جيد، وقد صار قديمًا جدا، كانت له نكهة التاريخي، قصر فخم من عصرٍ ولّى.

أوقفت السـيارة وصعدت سـلالم الـرواق الأمامـي، كان وقت الأصيـل، وكان هنـاك ضوء في نافـذة الـدور الأول، وقد صرت هناك، تصورت أن عليَّ أن أواصل حتى النهاية وأرن الجرس، إذا لم يكن الناس غيلانا، ربما يسـمحون لي بالدخول والفرجة من أجل الماضي. كان ذلك كل ما أتمنى: مجرد إلقاء نظرة، كان الجو باردًا فـي الرواق، وأنا أقف في انتظار أن يظهر أحد، لم أسـتطع مقاومة التفكير في أول مرة أتيت فيها إلى هذا المنزل، شـبه ميت من فقدان طريقي في تلك العاصفة الثلجية الرهيبة. كان عليَّ أنِ أرن الجرس مرتيـن قبل أن أسـمع وقع أقدام فـي الداخل، وحين فُتِـح الباب في النهاية، كنت مُنغمسًا في تذكر مقابلتي الأولى مع مسز ويذرسبون، واسـتغرق الأمر ثانيتيـن قبل أن أدرك أن المـرأة التي تقف أمامي ليست إلا مسز ويذرسبون نفسها: نسخة أكبر وأضعف وأكثر تجعدًا بالتأكيد، لكنها مسـز ويذرسـبون نفسـها رغم كل شـيء، يمكن أن أعرفها في أي مكان، لم يزد وزنها رطلا منذ ١٩٣٦؛ وكان شعرها مصبوغًا بالظل الأنيق نفسـه من اللـون الأحمر؛ وعيناها زرقاوان مشـرقتان كما كانتا دائما، كانت في الرابعة والسـبعين أو الخامسة والسبعين، لكنها لم تبد يومًا فوق الستين- ثلاثة وستين على الأكثر، لا تزال ترتدى ملابس رائعة. منتصبة القوام، جاءت إلى الباب وبين شـفتيها سيجارة مشتعلة وفي يدها كأس من الويسكي، لابد أن تحب امرأة بهذا الشكل. مر العالم بتغيرات وكوارث لا توصف منذ رأيت مسز ويذرسبون آخر مرة، لكنها المرأة القوية نفسها كما كانت دائمًا.

تعرفـت عليها قبل أن تتعرف علـيَّ، كان ذلك مفهوما، حيث إن الزمن أثر بعنف على شـكلي أكثر مما أثر عليها، اختفى نمشي كله

تقريبًا، وتحولت إلى رجل بدين بشعر رمادي نحيل وعدسات سميكة تجثم على أنفي. بالكاد الشخص الأنيق الذي تعشت معه في مطعم «ليمل» قبل ثمانية وثلاثين عامًا. أرتدي ملابس عمل باهتة- سترة مربعات، وبنطلونًا كاكيًّا، وحذاءً قرطبيا، وجوربًا أبيض - وياقتي مرفوعة لتدفع البرد، ربما لم تر جزءًا كبيرًا من وجهي، وما رأته كان منهكًا جدًّا، ومتهالكا جدًّا من صراعي مع الخمر، ولم يكن أمامي إلا أن أخبرها بحقيقتي.

الباقي لا يحتاج إلى كلام، أليس كذلك؟ ذرفنا الدموع وحكينا القصص، تبادلنا أطراف الحديث بشكل مثير حتى الساعات الأولى من الصباح. كان وقتا رائعًا في شارع كورونادو، وأشك أنه يمكن أن يوجد اجتماع للشمل أفضل مما حدث في تلك الليلة، قدمت بالفعل خلاصة ما حدث لي، لكن قصتها لم تكن أقل غرابة، أو أقل مفاجئة من قصتي، بدلاً من أن تضاعف ملايينها أثناء الازدهار العشوائي في تكساس، غرست أدوات الحفر في أرض جافة وتبخر كل شيء؛ كانت لعبة البترول في ذلك الوقت مسألة حدس إلى حد بعيد، وقد خمنت كثيرًا جدا بشكل سيئ. بحلول ١٩٣٨ خسرت تسعة أعشار ثروتها. لكن هذا لم يجعلها في عداد الفقراء جدا، لكنها ما عادت في رابطة الشارع الخامس، وبعد خوض بضع مغامرات أخرى لم توفق فيها، حزمت أمرها في النهاية وعادت إلى ويتشيتا. اعتقدت أن ذلك سيكون مؤقتًا؛ بضعة أشهر في المنزل القديم لتقيم الوضع وتنتقل إلى الفكرة التالية المتألقة، لكن شيئا أدى إلى آخر، وعند قيام الحرب كانت لا تزال هناك، فيما يمكن فقط أن يسمى بداية تغيير مسار، انهمكت في الحماسة الوطنية التي سادت في ذلك الوقت وقضت السنوات الأربع التالية في العمل ممرضة متطوعة في مستشفى ويتشيتا لقدامى المحاربين. كنت تواقا لأتخيلها وهي تقوم

بدور فلورنس نايتيجيل، لكن مسز ويذرسبون كانت امرأة مدهشة جدًا، كان المال نقطة قوتها، لكنه لم يكن قطعًا الشيء الوحيد الذي تفكر فيه. بعد الحرب دخلت البيزنس مرة أخرى، لكنها بقيت في تلك المرة في ويتشيتا، وبالتدريج خططت بشكل مربح جدا. مع شركة لوندرومات(١). يبدو الأمر مضحكًا رغم المخاطر العالية نظريا في البورصة والبترول- لكن لمَ لا؟ كانت من أول من يرون الاحتمالات التجارية للغسالات، وتفوقت على منافسيها بدخول المجال مبكرًا. حين ظهرْتُ في ١٩٧٤، كان لديها عشرون فرعًا في مواضع متفرقة من المدينة، واثنا عشر أخرى في البلدات المجاورة. كانت تسميها «هاوس أوف كلين»، وقد حولتها كل تلك العملات إلى امرأة غنية مرة أخرى.

سألتُ: وماذا عن الرجال؟ فردَّتْ: أوه، رجال كُثر، رجال أكثر مما يمكن أن تحصيهم. وأوليف كوكس- ماذا عنه؟ قالت: مات ورحل، وبيلي بيجلو؟ لا يزال بين الأحياء. كان منزله في الحقيقة قريبًا جدًا. أدخلته بيزنس اللوندرومات بعد الحرب، وكان مديرها ويدها اليمنى حتى أحيل إلى المعاش قبل ستة أشهر، كان بيلي الشاب على مشارف السبعين، وبعد إصابته بنوبتين قلبيتين، طلب منه الأطباء أن يريح القلب، ماتت زوجته قبل سبع سنوات أو ثمانٍ، وحيث إن أبناءه كلهم كبروا ورحلوا، بقي بيلي ومسز ويذرسبون على علاقة وطيدة، وصفته بأنه أفضل صديق عرفته على الإطلاق، ومن الطريقة التي رق بها صوتها وهي تقول ذلك، عرفت أن العلاقة بينهما تتجاوز الأحاديث البسيطة في المحل عن الغسالات والمجففات. قلت: آه آه، فاز في النهاية الصبر الشديد، وحصل بيلي

(١) لوندرومات: علامة تجارية تستخدم مؤسسات تجارية مزودة بغسالات ومجففات تعمل بالعملة.

الضئيل اللطيف على ما أراد. رمتني بواحدة من نظراتها الشيطانية، وقالت: أحيانا وليس دائما. يعتمد الأمر على الحالة المزاجية.

لم تبذل كثيرا من الجهد لتبقيني، لم تكن مسألة البواب إلا إجراء مؤقتًا، وظهر شيء أفضل، ما كان لي أن أتردد في تغيير خططي، بالطبع لم يكن الراتب إلا جزءًا صغيرا من الموضوع. عُدْتُ إلى حيث أنتمي، وحين دعتني مسز ويذرسبون إلى التقدم وشغل الوظيفة القديمة التي كان يشغلها بيلي، أخبرتها بأنني سأبدأ في الصباح. لم تكن طبيعة العمل تَهمني. لو طلبت مني أن أبقى لأغسل الأواني في مطبخها لوافقْتُ أيضًا.

نمت في غرفة الدور العلوي نفسها التي شغلتها في صباي، وبمجرد أن تعلمت العمل، رأت أنني أؤديه بشكل جيد تمامًا. ظلت الغسالات تعمل، وارتفعت الأرباح، وأقنعتها بالتوسع في اتجاهات مختلفة: صالات بولينج، محلات بيتزا، أروقة بينبول. مع تدفق طلبة الجامعة إلى البلدة كل خريف، كان هناك احتياج لوجبة سريعة وتسلية رخيصة، وكنت فقط الرجل الذي يقدم هذه الأشياء، أقضي ساعات طويلة وأبذل قصارى جهدي، لكنني أحببت أن أكون مسئولاً عن شيء ما مرة أخرى، وتبين أن معظم الخطط كانت رائعة تمامًا. نادتني مسز ويذرسبون براعي البقر، وكان ذلك إطراء من فمها، وعلى مدار السنوات الثلاث أو الأربع الأولى اندفعنا في مرح. وفجأة، مات بيلي. أصيب بأزمة قلبية أخرى، لكن هذه الأزمة حدثت في نادي «شيروكي أكرس كونتري»، وحين وصل الأطباء كان قد لفظ بالفعل آخر أنفاسه. دخلت مسز ويذرسبون في حالة تشوش ذهني بعد ذلك، توقفت عن الذهاب إلى المكتب معي في الصباح، وتدريجيا بدا أنها تفقد الاهتمام بالشركة، تاركة معظم القرارات في

يدي، وكنت قد مررت بشــيء يشــبه ذلك مع مولي، لكن لم يكن من الملائــم أن أقول لهــا إن الزمن كفيل بمعالجة المســألة، كان الزمن الشــيء الوحيد الذي لا تمتلكه، عبدها الرجل خمسين سنة، ورحل، ولن يحل مكانه أحد.

وسط ذلك، سمعتها ذات ليلة تنتحب عبر الحائط وأنا أستلقي في الــدور العلوي أقرأ في الســرير، نزلت إلى غرفتهــا، تحدثنا بعض الوقــت، ثم أخذتها بين ذراعي حتى اســتغرقت في النوم. بشــكل أو آخر، استغرقت في النوم أيضا، وحين استيقظت في الصباح وجدت أنني راقد تحت الغطاء معها في ســرير كبير لشــخصين، الســرير الذي شــاركتْ فيه الأســتاذ يهودي في الأيــام الغابرة، وجاء دوري لأنــام بجوارها، لأكون الرجل الذي لا يمكــن أن تعيش دونه، كنت غالبًا مصدرا للارتياح، للصحبة، لتفضيل النوم في سرير واحد على النوم في ســريرين، لكن ذلك لا يعني أن الفراش لم يكن يشــتعل من وقت لآخر، مجرد أن تكبر لا يعني أن تكف عن الشــعور بالرغبة، ومهمــا تكن المخاوف التي انتابتني بشــأن الموضوع في البداية فقد تلاشتْ سريعًا. وعلى مدار السنوات الإحدى عشرة التالية عشنا معا مثــل زوج وزوجة، لم أشــعر قط بأن علــى أن أعتذر عن ذلك، في سالف العصر والأوان كنت صغيرًا بما يكفي لأن أكون ابنها، لكنني الآن أكبر مــن معظم الجدود، وحين تصل إلى ذلك العمر، لا يكون عليك أن تلعــب وفقا للقواعد، تذهب إلى حيث تذهب، وتفعل كل ما يجعلك تواصل الحياة، ذلك ما تفعله.

بقيتُ في صحة جيدة معظم الوقت الذي قضيناه معًا. في منتصف الثمانينيات من عمرها لا تزال تتناول كاسين من الويسكي قبل العشاء وتدخن الســجائر أحيانًــا، ورأيتها في معظم الأيام تواتيها الشــجاعة

لترتــدي ملابســها وتخرج فــي جولة في ســيارتها الكاديلــك الكبيرة الزرقاء. عاشــت حتى التسعين أو الحادية والتسعين (لم يكن واضحًا على الإطلاق في أي قرن ولدتْ)، ولم تسؤ بها الحال إلا في شهورها الأخيــرة مــن الثمانينيات أو نحو ذلــك، قرب النهاية صــارت كفيفة تقريبًا، صماء تقريبًا، عاجزة تقريبا عن النهوض من الســرير، لكنها بقيت كما كانت رغم كل ذلك، وبدلاً من أن أضعها في دار للمسنين أو أســتأجر ممرضة لتقوم برعايتها، تخلصت من أعمال الشركة وقمت بنفســي بالأعمال القــذرة؛ كنت مدينا لها بالكثيــر، أليس كذلك؟ كنت أحميها وأسرح لها شعرها؛ وأحملها في المنزل بين ذراعي؛ وأجفف البراز من مؤخرتها كلما فعلتها، بالضبط كما جففتني ذات يوم.

كانــت الجنــازة رائعة، تأكدت مــن ذلك ولم أقصــر الأمر على الخاصة. صار كل شــيء ملكــي- المنزل والســيارات، النقود التي كســبتها لنفسها، والنقود التي كسبتها لها - وحيث إنه كان في الجرة ما يكفيني لأعيش خمســا وسبعين ســنة أخرى أو مائة سنة، قررت أن أعد لها وداعا ضخما، أضخم حدث رأته ويتشيتا على الإطلاق، مائة وخمسون ســيارة في موكب إلى المقبرة. كان المرور متشابكًا لعــدة أيــام، وبمجرد انتهاء مراســم الدفــن، احتشــدت الجموع في المنزل حتــى الثالثة صباحًا، يتجرعون الخمــور ويلتهمون الديوك الرومي والكيك. لست بصدد أن أقول: إنني كنت شخصًا مرموقًا في المجتمع، لكنني اكتســبت بعض الاحترام لنفســي بمرور السنوات، وكان الناس في البلدة يعرفون حقيقتي. حين طلبت منهم أن يأتوا من أجل ماريون، جاءوا في جموع هائلة.

كان ذلك قبل عام ونصــف، على مدى شــهرين كنت أتسكع حول المنزل، غير متأكد مما عليَّ أن أفعله بنفســي، لم أغرم يومًا بتنسيق

الحدائــق، وأصابنــي الملل من الجولف حين لعبتــه مرتين أو ثلاثا، وفي السادســة والسـبعين لم تكنِ لدي أية رغبة للدخول في البيزنس مرة أخرى. كان البيزنس جميلاً بسـبب ماريون، لكن دون وجودها حولي لتحيي الأشـياء، لم يكن هناك هـدف. فكرت في الابتعاد عن كانسـاس لبضعة أشـهر ورؤية العالم، لكن قبـل أن أضع أية خطط محددة، أنقذتني فكرة كتابة هذا الكتاب، لا يمكن أن أعرف حقًا كيف حـدث ذلك. طرأت لي الفكرة ذات صباح وأنا أبرح السـرير، وبعد أقل من ساعة كنت أجلس إلى مكتب في بهو الدور العلوي وفي يدي قلم، أكتب الجمل الأولى. لم يكن لدي شك في أنني أفعل شيئا ينبغي أن يُفعَـل، وكانــت قناعتي قويــة جـدا، وأدرك الآن أن الكتاب لابد أنــه أتاني في حلـم- لكنه أحد تلك الأحلام التي لا يمكن أن تتذكرها، الأحلام التي تتلاشى بمجرد أن تنهض وتفتح عينيك على العالم.

أعمــل فيــه يوميا منذ أغســطس الماضي، مندفعا مــن كلمة إلى أخرى بخط رجل عجوز يفتقر إلى البراعة. بدأت بكراســة مدرسية للتعبير من متجر يبيع أشياء متنوعة، كراسة بغلاف سميك مرمري أبيض وأسـود وسـطور زرقاء متباعدة، وملأت الآن ثلاث عشرة منها تقريبا، أعمل باسـتمرار في كراســة شهريا، لم أطلع أحدًا على كلمة منه، والآن وأنا على وشك النهاية، أبدأ التفكير في أنه ينبغي أن يبقى على هذه الحال - على الأقل ما دام يرمش لي جفن، كل كلمة في هذه الكراســات الثلاث عشــرة حقيقية، لكن يمكنني أن أراهن تمامًا علــى أنه ليس هناك كثيــر من الناس يمكن أن يستسـيغوا ذلك، ولا يرجع ذلك إلى أنني أخشــى أن يُقال عليَّ كذاب، لكنني الآن عجوز جدا بشـكل لا يسـمح لي بأن أضيع وقتي في الدفاع عن نفســي أمام الحمقى. غرقت فيما يكفي من الشك في توماس وأنا والأستاذ يهودي

على الطريق، ولدي ما هو أكثر أهمية، أشياء أخرى لأبقى مشغولاً بعد الانتهاء من هذا الكتاب، أول شيء في صباح الغد، سأذهب إلى البنك وسط المدينة وأضع المجلدات الثلاثة عشر في الصندوق الخاص بي. وأذهب إلى المحامي جون فوسكو، وأطلب منه أن يضيف عبارة إلى وصيتي تنص على أن محتويات الصندوق ينبغي أن تترك لابن أخي زوجتي، دانيل كوين. سيعرف «دان» كيف يتصرف بشكل جيد مع ما كتبت، يصحح الأخطاء الإملائية ويكلف أحدًا بكتابة نسخة منقحة، وبمجرد نشر «مستر فيرتيجو»، لن أكون هناك لأشاهد المستقلين والبلهاء يحاولون قتلي، سأكون ميتا بالفعل، ويمكنك أن تتأكد من أنني سأسخر منهم - من أعلي أو أسفل، مهما تكن الحالة.

على مدى السنوات الأربع الماضية كانت شغالة تأتي إلى المنزل عدة مرات أسبوعيا. اسمها يولاندا أبراهام، وهي من إحدى الجزر الحارة- جاميكا أو ترينيداد[1]، نسيت. لا يمكن أن أقول إنها امرأة ثرثارة، لكننا تعارفنا بما يكفي لأن نكون على علاقة حميمة إلى حد ما، وقد ساعدتني كثيرا في الشهور الأخيرة من حياة ماريون. عمرها يتراوح بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، امرأة سوداء ملتفة القوام بمشية بطيئة رشيقة وصوت جميل. بقدر ما أعرف، يولاندا ليست متزوجة، لكن لديها طفل، ولد في الثامنة اسمه يوسف. كل يوم أحد على مدار السنوات الأربع الماضية، تبقى ابنها في المنزل معي وهي تقوم بعملها، وبملاحظة هذا الطفل عمليا لفترة تزيد على نصف عمره، يمكن أن أقول بكل إنصاف إنه مزعج جدا،

(١) جاميكا: جزيرة في البحر الكاريبي جنوب كوبا. ترينيداد: جزيرة في الأطلنطي، شمال شرق فنزويلا.

مشـاغب صغير ينطق بالحكمة، رسالته الوحيدة على الأرض نشر الفوضى والضغينة. وكان يوسـف من أبشـع الأطفـال الذين وقعت عيناي عليهم، له وجه من تلك الوجوه الصغيرة الخشنة الهزيلة غير المتناسـقة، وجسـد ترافقه حزمة نحيلة محزنة من العظام - حتى لو قـورن رطلاً لرطـل يكون أقوى وأكثر ليونة من أجسـام المدافعين في الاتحاد الوطني لكرة القدم. أكره الطفل لما فعله بقصبتي ساقي، وإبهامي، وأصابع قدمي، لكنني أيضًا أرى نفسـي فيه حين كنت في عمره، وحيث إن وجهه يشبه وجه أيسوب إلى درجة مروعة تقريبًا- مما جعل أنفاسـنا أنا وماريون تتوقف حين رأيناه يدخل المنزل أول مرة- فإنني أغفر له باسـتمرار كل شيء، لا حيلة لي في ذلك. الولد بداخله الشـيطان؛ إنه مندفع وفظ وغير قابل للتقويم، لكنه متقد بنار الحياة، ويسـعدني أن أشـاهده وهو يندفع مباشـرة إلى لجة مشكلة، بمشـاهدة يوسـف أعرف الآن ما رآه في الأسـتاذ، وأعرف ما كان يعنيه حين قال لي إن لدي الموهبة، هذا الولد لديه الموهبة أيضًا. لو استطعت أن أحشد شجاعتي وأتحدث إلى أمه، لأخذته تحت جناحي في ثانية، وأحوله في ثلاث سـنوات إلى الولد العجيب التالي، ويبدأ حيـث حلقتُ، وبعـد وقت قصير يمكنه أن يمضي أبعد مما ذهب أي شـخص آخر- يا يسـوع- يمكن أن يكون ذلك ما أعيش لأجله، أليس كذلك؟ يمكن لذلك أن يجعل العالم كله يغني مرة أخرى.

المشكلة ثلاث وثلاثون خطوة. أن أخبر يولاندا بأنني أستطيع أن أعلـم ابنها أن يطير مجرد خطوة، لكن بمجرد أن نجتاز تلك العقبة، ماذا عن بقية العقبات؟ ربما حتى أشـمئز مـن التفكير في ذلك، وقد مـررت أنا نفسـي بكل ذلـك العذاب وتلك البشـاعة، كيف يمكن أن أحتمل ممارستها على شخص آخر؟ لم يعد هناك رجال مثل الأستاذ

يهـودي ولم يعد هناك ولـد مثلي أيضا: غبي وحسـاس وعنيد، كنا نعيـش في عالم مختلف، ولم تعد الأشـياء التي فعلتها أنا والأسـتاذ ممكنة اليوم، لا يمكن أن يقبلها البشـر. قد يسـتدعون الشرطة، وقد يكتبون لنائبهم في الكونجرس، وقد يستشيرون طبيب العائلة، لم نعد أقويـاء كما كنـا، وربما يكون العالم أفضل نتيجـة لذلك، لا أعرف. لكننـي أعـرف أنك لا تسـتطيع أن تحصل على شـيء دون مقابل، وكلما كان ما تريده أكبر، يكون عليك أن تدفع أكثر.

ويبقى أنني حين أفكر في بدايتي المفزعة في سيبولا، لا أستطيع إلا أن أتسـاءل عن قسـوة طرق الأسـتاذ يهودي، حين حلقت بعيدًا عن الأرض لأول مرة، لم يكن ذلك نتيجة لشـيء علّمني إياه، فعلته بنفسـي علـى أرض المطبخ البارد، وجاء ذلك بعـد فترة طويلة من النحيـب واليـاس، حين بدأت روحـي تندفع من جسـدي ولم أدرك حقيقتي. ربما كان اليأس الشيء الوحيد المهم حقا، في تلك الحالة، لا تكون المحن الجسدية التي عرضني لها إلا عارًا، انحرافا ليخدعني بالاعتقاد بأنني أصل إلى مكان ما - ولم أكن في الحقيقة في أي مكان حتى وجدت نفسي أرقد ووجهي على أرض ذلك المطبخ. ماذا لو لم تكن هناك خطوات في العملية؟ ماذا لو حدث كل شـيء في لحظة - قفزة- لحظة مشرقة من التحول؟ تدرب الأستاذ يهودي في المدرسة القديمـة، وكان سـاحرًا فـي جعلي أؤمن بما قدمه مـن هراء وكلام كبيـر، لكن ماذا إن لم تكن طريقتـه الطريقة الوحيدة؟ ماذا لو كانت هناك طريقة أبسـط ومباشرة أكثر، مقاربة تبدأ من الداخل وتتجاوز الجسد تمامًا؟ ماذا إذن؟

لا أؤمــن، في أعماقي، بأن الشــخص يحتــاج إلى موهبة خاصة ليرتفــع عــن الأرض ويحلق في الجــو، نمتلك جميعا هــذه الموهبة فــي داخلنا- كل رجــل وامرأة وطفل- وبقدر كاف مــن العمل الجاد والتركيز، يســتطيع كل إنســان تكرار المآثر الذي حققتها وأنا والت الولــد العجيــب، كف عــن أن تكون نفســك؛ هنا يبدأ الأمــر، ويتبع ذلك كل شــيء آخر، اترك نفســك تتبخر، اترك عضلاتك تتراخى، وتنفس حتى تشعر بروحك تندفع خارجة منك، ثم أغلقْ عينيك. هكذا يتحقق الأمر، يصبح الخواء داخل جســمك أخف من الهواء حولك. وتدريجيــا، ينعدم وزنك. تغلق عينيك؛ تفرد ذراعيك؛ تترك نفســك تتبخر، ثم ترتفع تدريجيا عن الأرض.

هكذا.

المؤلف في سطور

بول أوستر

· روائي وشاعر أمريكي، من أصول بولندية. ولد في 3 فبراير 1947، بعد تخرجه من جامعة كولومبيا انتقل إلى باريس في 1970، حيث عمل مترجمًا للأدب الفرنسي حتى عودته إلى أمريكا في 1974. وفي تلك الفترة نشر شعرًا ومقالات وقصصًا وترجمات لكتاب فرنسيين. حصل أوستر على عدد كبير من الجوائز. ومن أشهر أعماله "ثلاثية نيويورك" (1987)، "قصر القمر" (1989)، "موسيقى الصدفة" (1990)، "مستر فيرتيجو" (1994)، "تيمبوكتو" (1999)، "كتاب الأوهام" (2002)، "حمقى بروكلين" (2005).

المترجم فى سطور:

الشاعر عبد المقصود عبد الكريم

- من مواليد قرية "طنامل" بمحافظة الدقهلية، أول يونيو ١٩٥٦.
- استشاري الطب النفسي والأعصاب.

من أهم أعماله:

*** الشعر:**

- أزدحم بالممالك: أصوات، ١٩٨٠ .
- أزدحم بالممالك (١٩٨٨): الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.
- يهبط الحلم بصاحبه: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٣، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٧.
- للعبد ديار وراحلة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠١.
- يوميات العبد على حافة بئر الأميرة: ٢٠١٢، هيئة الكتاب.

*** الترجمة:**

- فنتازيا الغريزة، د. هـ. لورانس: دار الهلال، ١٩٩٣.
- الحكمة والجنون والحماقة، ديفيد روبرت لانج: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦.
- نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، بشبندر: الهيئة المصرية

العامة للكتاب، ١٩٩٦، طبعة ثانية، مكتبة الأسرة ٢٠٠٥.

- قصر الضحك، زبجنيف: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٧.

- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي، مجموعة من المؤلفين، إعداد وترجمة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩.

- الرجل البطيء، كوتسي: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٧.

- إسطنبول: المدينة والذكريات، أورهان باموق: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٨.

- إليزابيث كستلو، كوتسي: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٨.

- العار، كوتسي: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٩.

- أنا أورهان والي، مختارات من شعر أورهان والي: سلسلة آفاق عالمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩.

- القصر الزجاجي، أميتاف جوش: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩.

- فرويد وبروست ولاكان، مالكولم بوي: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩.

- أفكار شكسبير، أشياء أخرى في السماء والأرض، ديفيد بِفينجتون: دار آفاق بالتعاون مع المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.

- الجاذبيـــة المميتـــة، ســـوزان ليونـــارد: المركز القومـــي للترجمة، ٢٠١٠.

- داي، أ. ل. كيندي، سلسلة الجوائز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

- الإعـداد والانتحـــال، جولي ســاندرز، المركز القومـــي للترجمة، ٢٠١٠.

- على ونينو، رواية، قربان سعيد، سلسلة آفاق عالمية، ٢٠١٠.

- فضائح الترجمة، لورانس فينتي، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.

- الشـــخصية واضطرابـــات الشـــخصية والعنـــف، تحريـــر: ماري ماكموران وريتشارد هوارد، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢.

- القصـــص الفائزة بجائزة أوه هنري عام ٢٠٠٧، ٢٠١١، سلســـلة الجوائز، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- ستيف جوبز: بولمزبري - مؤسسة قطر، ٢٠١٢ .

- البحث عن الوعي، كريســـتوف كوتش، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣.

- قصر القمر، بول أوستر: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥.

التصحيح اللغوى: حمادة نجيب
الإشراف الفنى : حسن كامل

كنْتُ فى الثانية عشرة حين سرْتُ على الماء أول مرة. علّمنى الرجل ذو الثياب السوداء أن أفعل ذلك، ولن أتظاهر بأننى تعلمت الحيلة بين عشية وضحاها. عثر علىّ الأستاذ وأنا فى التاسعة، وكنت ولداً يتيماً يتسول السنتات فى شوارع "سانت لويس"، وعمل معى بدأب لثلاثة أعوام قبل أن يتركنى أعرض أعمالى علانية. كان ذلك فى 1927، سنة "بيب رث" و"تشارلز ليندبرج"،السنة التى بدأ فيها الليل يسقط على العالم إلى الأبد. ظللت أقوم بها إلى ما قبل انهيار أكتوبر بأيام قليلة، وكان ما قمْتُ به أعظم مما حلم به هذان الشخصان. فعلْتُ ما لم يفعله أمريكى قبلى، ولم يفعله أحدٌ من حينها.

اختارنى الأستاذ لأننى كنت الأضأل جسماً والأقذر والأكثر خسةً. قال: "لسْتَ أفضل من حيوان، إنك جزء من العدم الإنسانى." هذه أول جملة قالها لى، ورغم مرور ثمانية وستين عاماً على تلك الليلة، يبدو وكأننى مازلت أسمع الكلمات تنبعث من فم الأستاذ: "لسْتَ أفضل من حيوان. ستموت قبل انتهاء الشتاء إذا بقيتَ حيث أنت. وسأعلمك كيف تطير إذا أتيْتَ معى".

تصميم الغلاف: نادية كشك